فتح الله كولن

رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع : ISBN 978-975-315-534-2

DAR AL-NILE
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،

مدينة نصر-القاهرة/جمهورية مصر العربية

هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢-٥

المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

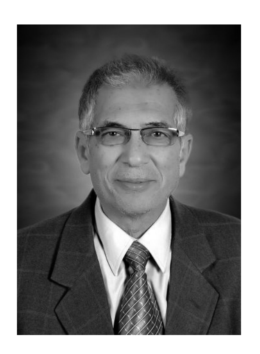
www.daralnile.com

فتح الله كولن

رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة

أ.د. عبد الحليم عويس





أ.د. عبد الحليم عويس

(١٢ يوليو ١٩٤٣م - ٩ ديسمبر ٢٠١١م)

ولد في قرية سندسيس التابعة لمدينة المحلة الكبرى محافظة الغربية بدلتا مصر. حصل على ليسانس اللغة العربية والدراسات الإسلامية (١٩٦٨م)، وعلى الماجستير (١٩٧٣م) عن أطروحته "دولة بني حماد في الجزائر"، والدكتوراه (١٩٧٨م) عن أطروحته "ابن حزم الأندلسي مؤرخا" في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة. عمل أستاذًا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ورقي فيها إلى درجة أستاذ (١٩٩٠م). درس في العديد من الجامعات الإسلامية وأشرف على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات الإسلامية، وناقش الكثير منها. انتدب أستاذًا في جامعة الزقازيق بمصر وبالجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية وهو عضو مجلس أمناء الجامعة. عمل نائبا لرئيس جامعة روتردام الإسلامية بهولندا. عمل مستشارًا لرابطة الجامعات الإسلامية. أشرف وأسهم في كتابة موسوعات في التاريخ، وتاريخ الإدارة، والحضارة الإسلامية. صاحب أكثر من ١٠٠ مرجع وكتاب وبحث علمي في التاريخ والحضارة والثقافة والعلوم الإسلامية، إضافة إلى مئات المقالات والبحوث المنشورة.



فهرس

الفصل الثالث:
حراء.. شمس متجددة

الفصل الرابع:
الروح وميلاد الحضارة



مقدمة

ما أصعب أن تكتب عن حياة واعظ داعية مثل الأستاذ محمد فتح الله كولن...

كان فكر الأستاذ متجهًا إلى أن يكون واعظًا وداعيًا ومصلحًا للفرد والجماعة، ولم يخطر بباله قط أن يكون أكاديميًا يخاطب الخاصة، أو ينظم كتابته تنظيمًا علميًّا أكاديميًّا، ذلك أن الذي يعظ الناس ويألف ذلك ويجعل إصلاح الأفراد -رجالاً ونساءً- هدفه، ليس لديه وقت ليكتب تلك الكتابة الأكاديمية المنهجية التي يكتبها الباحثون الأكاديميون، ولم يكن لديه وقت ليكون واعظًا مثل "ابن الجوزي" الذي يعدّ أشهر واعظ في تاريخنا، وكان قادرا -مع ذلك- على أن يكتب كتبًا مثل كتابه الرائع "المدهش" وكتابه "بستان العارفين". لقد كان عصره غير عصرنا وكانت التحديات التي يواجهها أقل من تحدياتنا.

أما الأستاذ فتح الله كولن فقد وجد أمة تحتاج إلى أن تبعث من جديد، ووجد عصرًا يمكن أن نسميه عصر الاتصالات السريعة من الإذاعة والتلفاز إلى الإنترنت والفضائيات. وبما أن الرجل دخل معركة بعث الأمة في عصر الإلحاد والانحلال والمادية، وفي ظل التطور الهائل لوسائل الاتصال الحديثة... فقد تفرغ للدعوة الفردية، ليبني إنسانًا قريبًا من الإنسان الذي بناه الرسول ﷺ في مكة والمدينة. وكان المنهج هو

القرآن، وهو السيرة والسنة التي يتعامل معها بالقلب قبل العقل، وبتحريك الوجدان قبل تحريك اللسان.

ومن هنا كانت صعوبة الكتابة عن فكر فتح الله كولن المتناثر عبر كتبه، بعيدًا عن الالتزام الموضوعي والأكاديمي.

ومع ذلك فهذا الرجل العظيم أصبح "الشخصية الأكثر تأثيرًا في العالم" وفقًا للإحصاء الذي أجرته مجلة "السياسية الخارجية" الأمريكية ومجلة "بروسبكت" الإنكليزية في عام ٢٠٠٨م.

والعجيب أن ملايين المسلمين في العالم العربي لا يعرفون صاحب هذه الشخصية النادرة الذي يلقبه أبناء تركيا بلقب "خُوجَا أَفَنْدي" ومعناه "الأستاذ المعلّم"... فكيف حصل هذا التناقض بين هذه القمة الشامخة في ميدان الدعوة الإسلامية على المستوى العالمي، وجهل الناس به هذا الجهل المشين؟!

إننا نعتقد أن الأستاذ فتح الله كولن يتحمل قدرا من المسؤولية حول هذا الأمر، فهو بطبيعته يعمل لله مخلصا في صمت، لا يسعى إلى الشهرة، ولا يريد أن يتعرف عليه الناس على أنه نجم من النجوم، وإنما يريد أن يربي أجيالا صالحة كأنها تعيش معه في دار الأرقم بن أبي الأرقم في شعاب مكة، فالمهم أن تتخرج أجيال صالحة من مدرسة النبوة التي يسير على هديها الأستاذ المربّي فتح الله، والمهم أن يكونوا طليعة خير أمة أخرجت للناس تُبعث من جديد في عالم القرن العشرين، الذي يعج بمئات الملايين من البشر، الذين يعيشون في صراع مادي وغيبة إيمانية وحياة لاهثة وراء المادة...

وقد امتدت بالشيخ فتح الله كولن -والحمد لله- ميادين العمل، فكادت

تعم تركيا بطريقة هادئة كريمة شعارها "بناء الإنسان".

ومع أنه كان حريصا على الابتعاد عن السياسة، إلا أن السياسة حاصرته، وتعرض للسجن والنفي وحرمان محبّيه من الاتصال به إلا في أضيق الحدود سنوات طويلة.

وصبر الأستاذ على كل ذلك، حتى جاء يوم انتشرت فيه دعوته، بحيث أصبحت دعوته عالمية، لا تعتمد على المادة ولا على الحزبية، وإنما تعتمد على مبدأين، هما: "الخدمة" من خلال المساواة بين الجميع، لاسيما رجال الأعمال الذين يسمّون بـ"الأصناف".. إنهم هؤلاء الذين يبنون المدارس والمستشفيات والجامعات، دون أن تكون لهم أرصدة في البنوك، بل من أموالهم الذاهبة العابرة يبنون قدر ما يستطيعون. أما المبدأ الثاني الذي التزموا به فهو قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾(الْكَهْف:١٩).

واليوم نستطيع أن نقول إنه توجد في كل المدن الكبرى في العالم مدارس عصرية استلهمت وجودها من فكر فتح الله كولن، وينطلق من خلفها مئات الألوف من الشبان المتواضعين العاملين بإخلاص، والملتزمين بقراءة فكر كولن، بعد التزامهم بفقه القرآن وفقه كتاب الكون.

* * *

تلك ومضات من قصة هذا الرجل "الأكثر تأثيرًا في العالم" الذي نُعرّف به ونقدم بعض فكره، آملين أن نُعرّف بطبيعة عمله الدعوي الذي نجح -من خلاله- في العمل المخلص دون الاقتراب من المجالات الحزبية أو السياسية، ودون الصراع مع أية مدرسة فكرية... وكل ما يهدف إليه فكر كولن وعمله إعادة بعث الأمة من جديد، على هدي كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وهدي آل بيته وصحابته الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

ويسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدني في جمع مادة هذا الكتاب وأسأله تعالى أن يوفّقنا إلى ما يحبّ ويرضاه، وبالله التوفيق.

أ.د. عبد الحليم عويس

٢١ يناير ٢٠١١م-

١٧ صفر ١٤٣٢هـ

الفصل الأول:
فتح الله كولن.. رائد النهضة الراشدة في تركيا

- الأستاذ فتح الله كُولَنْ وإنشاء حدائق الإبداع الحضاري
- داعية يولد للإنسانية كلّها



الأستاذ فتح الله كُولَنْ
وإنشاء حدائق الإبداع الحضاري[1]

قال الراوي:

كانت خريطة الأرض يوشك أن ترسم بريشة الإلحاد.

ونظر "خُوجَا أَفَنْدي"[2] حوله، وتساءل: "أليست وراثة الأرض للصالحين؟!"

واتخذ قراره.. لن نترك الأرض لظلمة الإيمان... وراح يغوص في جهود أبطال الإحياء، والبعث بالإيمان..

قرأ إحياء علوم الدنيا في تراث الأسلاف، وقرأ إحياء علوم الدين للغزالي، وحجّة الله البالغة للدهلوي، وأبحر في عالم المعاصرين المجددين في تركيا والشام والهند والجزائر... وأسعدته تلك القراءات المعاصرة للقرآن، تلك التي جمعت بين التفسير، والتربية والفقه والتذكير... قرأ التحرير والتنوير لابن عاشور، ومجالس التذكير لابن باديس.. وقرأ الظلال، وقرأ -قراءة عميقة- "رسائل النور" لأنها الأقرب إلى نفسه في الزمان والمكان والتحديات.

---

(١) مجلة حراء، العدد:١٦ (يوليو-سبتمبر ٢٠٠٩).

(٢) "خُوجَا أفندي" هو اللقب الذي يُطلقه أبناء تركيا على الأستاذ فتح الله كولن، وهو يعني "السيد الأستاذ".

وقد أتيح لصاحب رسائل النور -نتيجة ظروفه- أن يعيش مع الطبيعة، وأن يتصل بالكون، وبخالق الكون، من خلال كلمات الله الكونية.. فجاءت رسائل النور كأنها تنزيل من التنزيل.. ونفذت أشعّتها -مع أشعة الشمس- إلى قلوب الناس وكيانهم وعقولهم.. فتأصلت، وحملت العناية الربانية كلمات الرسائل وبذورها الإيمانية مع الرياح السائرة هنا وهناك، لتسقط منها حبة هنا، وحبات هناك.

* * *

قال الراوي:

والآن يا صاحب الرسائل، يا سعيدنا الجديد!

ها أنت تودع الأصحاب، وملايين الطلاب، بعد أن واجهت -بالأمل في مستقبل الإسلام- وبالثقة الكاملة في وعد الله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(التوبة:٣٣).. وبانتصار عالم القرآن على كل فلسفات الإلحاد والمادية.

والآن، يا كل دعاة الإيمان، يا أفغاني، يا محمد عبده، يا رشيد رضا، يا أرسلان! لينم كل منكم في قبره مأجورا، مسرورا...

وأنت يا صاحب الرسائل!

والآن، بعد ذهاب القرن الأسود،

نمْ مسرورا في قبرك وتنعّم..

فالوعد الحق سيجعل قبرك إشعاعا من فكرك،

قبرا محفورا في الأعماق.

فرسائل نورك مصباح لك في دنياك وأخراك،

في ساعة يُسرك أو عُسرك..

* * *

يا صاحب الرسائل،
يا زارع البذور في حقول الإيمان!
ها أنت هنا مسرّحا من وظائف الفناء،
كما علَّمتنا في رسائل الضياء..
ها أنت هنا تعيش ناعمًا في عالم البقاء،
عابرًا دونما إبطاء ودونما انقطاع،
مُبْحرا من عالم الشقاء والصراع،
أحلام قبورية...

*   *   *

يا صاحب الرسائل!
إخلاصك حتى في قبرك نورانية...
ذات ليلة يا سيدي،
يوم كنت تغوص في رسائل الإمداد،
تكتب بالعين والسمع والفؤاد،
تنقل من عالم العطاء والإسعاد..
غفوت والنور في راحتيك،
رحلت بروحك من عالم الأشياء،
ورحت تكلم الموتى مع الأحياء..
لا جسم لك، لا جرمَ لك،
لا نسمة من الهواء..
ها أنت هنا تعيش في عالم القبور،
قبرك من نور،

وفؤادك يرنو للبيت المعمور،

يرنو للّوح المحفوظ المسطور،

يسأل في لهفة حب وسرور،

وأنت تهرول حول اللوح، وتجري وتدور:

يالوح الكون ويا قلم القُدرة،

يا مخزن أسرار الكون المستور!

ترفع صوتك في قبرك، في الملأ الأعلى، وتنادي:

أخبرني عن أهلي، عن مليار مقهور،

يؤمن بالله ويشهد بالتوحيد،

ويصلي، ينتظر البعث المقدور،

يؤمن بالنّصر الآتي،

لكن لا يعرف كيف يسير؟!

أخبرني يا لوح الغيب الأعلى،

عن يوم النصر المبرور.

في الغفوة وبإحساس القلب المقهور..!

في تلك الومضة واللحظة،

ظهرت في القبر ملامح عصر يأتي،

يُبعث الإنسان المسلم، إنسان النور.

ها هي -يا سبحان الله- مظاهر أحلامك،

أقوى من كل الأحلام،

رسالة من القبر...

وهتفت بأنشودة آمال رمزية،

تقول لإنسان الإيمان المنتظر الأعلى:

يا من يختفي خلف عصر شاهق،

لما بعد ثلاثمائة سنة يستمع إلى كلمات النور،

بصمتٍ وسكون..

يا من تتسمّون بسعيد وبحمزة، وعمر،

وتُدعون بعثمان وطاهر أو يوسف وأحمد.

إني أتوجه بالخطاب إليكم،

ارفعوا هاماتكم وقولوا:

"لقد صدقت"...

وليكن هذا التصديق دَيْنا في أعناقكم.

إنني أتكلم معكم عبر أمواج الأثير،

الممتدة من الوديان السحيقة للماضي المسمى بالتاريخ،

إلى ذرى مستقبلكم الرفيع..

ما حيلتي،

لقد استعجلتُ، وشاءت الأقدار،

أن آتي خضم الحياة في شتائها..

أمّا أنتم، فطوبي لكم وألف طوبى،

ستأتون إليها في ربيع زاهر كالجنة..

إنّ ما نزرعه الآن يُستنْبت من بذور النور،

فتتفتح أزاهير يانعة في أرضكم..

نحن ننتظر منكم لقاء خدماتنا،

أنكم إذا جئتم لتعبّروا إلى سفوح الماضي،

عرّجوا إلى قبورنا،

واغرسوا بعض هدايا ذلك الربيع

على قمة "القلعة" المستضيفة لرفاتنا وعظامنا...

سنوصي الحارس ونذكّره: نادونا،

ستسمعون صدَى "هنيئًا لكم!" ينطلق من قبورنا...

لقد كانت هذه الكلمات "الأخروية" أنشودة نورانية ذات وقع خاص، وكان لها تأثيرها الكبير في نفوس طلاب الآخرة، طلاب الإيمان، البارزين الزارعين الزاهدين العابدين لله...

"كولن" وحدائق الإبداع الحضاري

قال الراوي:

كانت كلماتك -يا صاحب الرسائل- آمالا علوية،

كانت أدعية خاشعة ترشح بالإخلاص.

في قبرك لم تنس الأمة،

فتقلَّب وجهك في الأفق الأعلى...

تدعو بلسان الروح،

لسان القلب المجروح...

فتقبلها الله، وحققها في أرض الناس..

ليس بعد ثلاثمائة سنة، لكن في سنوات خمسين..

أجل..فقط في سنوات خمسين..

منحة رحمن وكريم!

هبَّت ريح الإيمان،

وظهر الفيض الرباني،

وتجلىّ في "فتح الله"...

منحة رب رحمن،

لإمام يحيا في "النور الخالد"...

يعشق أعظم إنسان، معجزة الإنسانية...

أحلامه أكبر من كل الأحلام،

أقوى من كل الآلام.

يعرف كيف يجيب على "أسئلة العصر"،

ويحل الألغاز السحرية...

جاء يخاطب كل الناس،

ويحاور عقل العالم، بوسائله العملاقة..

فالعقل المسلم قادر -يأخذ بالألباب- لو عرف "الموازين" و"أضواء الطريق"،

وتسلح بـ"النور الخالد"

وبـ"طرق الإرشاد في الفكر والحياة" العملية.

وهناك تألق "فتح الله"،

يبني ويقيم صروحا للروح،

في كل الأيام وكل الأعمال...

يصعد بالقانعين السفوح، إلى عالم "التلال الزمردية"،

ليعيشوا بالكلمة والعقل: حياة القلب والروح معا،

في توازن غابت معالمه منذ عقود،

بناء إنسان "النور الخالد"...

ولما كان الناس قد اختلطت لديهم "حقيقة الجهاد وروحه"،

وجروا الإسلام إلى معارك فوضوية،

حتى في داخل البيت المسلم نفسه،

وأعطوا الفرصة لتعاون الداخل مع الخارج في تشويه الإسلام والتربص بالعاملين له..

فقد كتب الأستاذ الواعظ الإنسان،

كتابه عن "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام"،

مبيّنا وظيفته الحضارية وأطره الإنسانية ودفاعه عن المقهورين ونشر المعاني الواسعة له، جهادًا بالعلم والمال والفكر والبناء الحضاري...

وهكذا عمد الأستاذ الواعظ "خوجا أفندي" "العالم الإنساني" إلى العمل على بناء إنسان جديد من خلال عدد كبير من الدراسات التي ترجم أقلها إلى العربية ومازال أكثرها حبيس اللغة التركية، مع أن العرب أحوج من غيرهم إليها ليدركوا -من خلالها- كيف تكتشف "أضواء القرآن في سماء الوجدان" ويدركوا حقيقة الخلق الإلهي، ودحض "نظرية التطور" التي سيطرت على العرب عدة عقود...

وليعرفوا -كذلك- أبعاد مشكلة "القدر والقضاء، في ضوء الكتاب والسنة"، وكيف أنه لا يسلب الإرادة الإنسانية، ولا تفتر بالعقل عن إرادة البناء الحضاري...

وكيف أن الإيمان الحق به عنصر فاعل إيجابي، يدفع إلى الكسب والأخذ بالأسباب دون عبادة الأسباب أو نسيان قدرة مسبب الأسباب، الذي لو شاء لأوقفها لحكمة يريدها ولإظهار تجليات قدرته ﷻ.

عبور الفجوة وملء الفراغ

كان العالم قد انتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) إلى وضع مأساوي، وسيطر اليأس على العالم. وبدلاً من أن يلجأ إلى العدل والرحمة توحشت لديه معاني القوة، وأصبحت فلسفة "نيتْشة" و"الفاوسْتية" -القائمة على البقاء للأقوى- هي المسيطرة.. وضاع معنى الحق أمام القوة، ومعاني العدل والرحمة أمام الجشع الذي أقبل عليه المنتصرون. وسحبت كل الوعود الخدّاعة بـ"العدل والمساواة والحرية" التي بذلت أثناء الحرب وقبيلها للشعوب المغلوبة على أمرها والقوى المستضعفة -بالطبع- لاعتبارات مصلحية توجبها الحرب.

وانفجر الموقف العالمي، وعمت الثورات، بعد أن خدع العالم باتفاقيات سلام.. لكن الأمر كان تقسيمًا للتركة العالمية بين الأقوياء والمنتصرين على حساب المقهورين الذين عدّوا ذلك خيانة وغدرا ونكثا للعهود. فأصيبت الأخلاق الإنسانية في الصميم.

وهنا وجد الأستاذ "فتح الله كولن" أن البشرية لم تعد مرشحة لإنشاء قوى تعمل على العدل والرحمة. لقد فقدت الإنسانية عقلها وقلبها ورشدها.

مقاومة الغارة على الإنسانية

ونظر الأستاذ فلم يجد أمامه إلا الفكر الإنساني التربوي النبوي الشريف وأفكار السائرين في الطريق نفسه. ورأى أنه في مواجهة هذه القوى العالمية لا معنى للصدام أو الثورات أو الصراع، بل لا بد من طريقة إنسانية نبوية لمخاطبة الإنسان نفسه، قلبه وروحه وما بقي يقظا من عقله.

ووجد الأستاذ أن العالم المنتصر بعد أن هزم المقهورين بقوته العسكرية بدأ يغزو كل إنسان وكل بيت، فلم تعد كتائب المستشرقين، ولا قوافل المنصرين، ولا قوى النفاق الداخلية كافية لتحقيق "عولمته" والعبث بالعالم كله، بكل رجل وكل امرأة وكل شاب، كما يشاء، يصوغهم كما تصاغ التماثيل المنحوته على النسق الذي يهواه فنانها.

وفي هذا السياق انتشرت أجهزة التلفاز والقنوات الداخلية والفضائيات الموجهة.. وانتشرت الإذاعات والصحافة عابرة القارات ودور النشر العملاقة.. وانتشر ما هو أخطر من كل هذه على الحياة وهو "الإنترنت".

ولم ييأس الأستاذ، بل قرر أن يكون مصباحا يجوب العالم، وينافس الظلام في كل مواقعه. وبارك الله له في نيّاته، وفي رجال الخدمة والأقوال والأعمال. فسخر الجميع كل جهودهم لتنمية بذور الإيمان. وانطلقوا إلى العمل في كل المجالات.. فهذه جريدة يومية مليونية، وهذه مجلات أسبوعية بالتركية وغير التركية. وهذه قنوات تلفازية قادرة على إنتاج تمثيلياتها وبرامجها. وهناك جامعات ومدارس مبثوثة في العالم التركي وخارجه، وتتميز بالعصرية وبالأصالة التي تقرها القوانين. وهذه مدن جامعية، وهذه مستشفيات على أفضل وجوه عرفتها الحضارة الحديثة.

وكانت خريطة الأرض بين يديه وهو يعالج أمراضَ إنسانية عجزت عن وجود من يهتم بإنسانيتها، ويضع الدواء لأمراضها الأخلاقية والحضارية، ويعيد للإنسان "الموازين" الصالحة لتحقيق حياة أفضل يتعانق فيها الإيمان مع التقدم مع الأخلاق، ويتم فيها التكامل بين الحق والقوة.

كان الأستاذ -بيقين- قد قرأ أحلام دعاة التغيير والتمكين، التي كل منهم أمل أن يرى استجابتها الحية في حياته أو في قبره، ويهنئ أصحابها

الذين استحقوا من الله التمكين، والذين سيمرّون أمامه ويشاهدهم من قبره فيرى بشائر انتصار الإسلام على وجوههم.

وعندها يطلب منهم الدعاء، لأنه وتلامذته هم الذين بذروا البذور، وعاشوا شتاء الحياة في ظل الإلحاد، وعانوا الكثير.

وها هم الحاصدون للزرع القادمون الوارثون للأرض الذين يعيشون ربيع الإيمان، يمرون أمامهم ويشاهدونهم وهم في قبورهم، فيفرحون، ويسعدون بهم، ويقولون لهم: "هنيئا لكم.. اذكرونا، اسألوا الله لنا الرحمة والفردوس الأعلى.. فنحن السابقون الزارعون للبذور في الشتاء القاسي، وأنتم اللاحقون الوارثون للأرض في ربيع الإيمان"...

فالنور يلد نورا.. وصدق ربنا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٥-١٠٧).



داعية يولد للإنسانية كلّها

ووالدٍ وما ولد

نِعْمَ الوالد ونِعْمَ الولد ونعم البلد، ولد محمد فتح الله كولن في ١٩٣٨م[٣] في قرية صغيرة تابعة لقضاء "حسن قلعة" المرتبطة بمحافظة

(٣) من المفيد تسجيل ما يلي حول تاريخ ميلاد الأستاذ فتح الله كولن نظرا لورود تواريخ مختلفة في بعض المصادر قد توقع القارئ في حالة من اللبس، ولعل هذا التوضيح يزيل اللبس الموجود حول هذا الموضوع. لقد ولد الأستاذ فتح الله كولن يوم ١١ من شهر نوفمبر ١٩٣٨، فذهب والده رامز أفندي إلى إدارة تسجيل المواليد ليسجله، وكان ذلك في عهد حكم الحزب الواحد حيث سيادة الفكر السلطوي العلماني مستحكمة. وما أن سمع الموظف باسم "محمد فتح الله" حتى ثار محتدا وقال "ممنوع تسجيل هذا الاسم". فغضب الوالد وعاد إلى قريته خاوي اليدين. بعد عامين ونصف ولد لرامز أفندي مولود آخر أحب أن يسميه "صبغة الله"، فلم يذهب إلى إدارة التسجيل إلا بعد عام ونصف، أي بعد ولادة فتح الله بأربعة أعوام، ولكن هذه المرة استعان بضابط مخفر القرية الذي كان يحترم رامز أفندي ويحبه. فذهبا معا إلى مصلحة التسجيل، وعندما اعترض الموظف مرة أخرى، صرخ الضابط في وجهه وطلب منه أن يسجل الاسمين وفق طلب الوالد، ثم غادر المصلحة. ولكن الموظف أبى إلا أن يسجلهما كما يحلو له، حيث سجل "صبغة الله" بـ"سيف الله".. وسجل "محمد فتح الله" بـ"فتُّ الله" (بحذف الحاء وحذف محمد)؛ كما سجل تاريخ ولادتهما في نفس العام، أي ١٩٤٢. فكان تاريخ ميلاد محمد فتح الله ٢٧ أبريل ١٩٤٢ في السجلات الرسمية، بدلا من ١١ نوفمبر ١٩٣٨. وفي عام ١٩٥٩ قدم الأستاذ فتح الله طلبا في مدينة أدرنة ليتم توظيفه إماما في أحد المساجد، فبدا أن عمره لم يتجاوز ١٧ سنة حسب التسجيل الرسمي، ومن ثم يتعذر عليه أن يتولى وظيفة رسمية، حيث إن شرط التوظيف

"أرضروم" وهي قرية "كورجك"، ومنذ شب عن الطوق وهو يعيش في بيت أبيه رامز أفندي الذي كان عاشق علم ورقائق ومواعظ، وأكثر من كانوا يفدون عليه هم طلاب العلم وبعض العلماء الذين يؤثرون الزهد والابتعاد عن الواقع اللاديني القاهر.

وهكذا زرع والده "رامِزْ أفنْدي" ووالدته "رفيعة هانم" في نفسه حب مجالسة الكبار والعلماء، لدرجة أنه -منذ النشأة الأولى ومع تفتّح عقله- تلقى العلم على أفاضل العلماء كالشيخ "محمد لطفي أفندي" الذي أثر فيه إلى الحد الذي جعل كولن يقول: "أستطيع أن أقول بأنني مدين للشيخ لطفي بقسم كبير من مشاعري وأحاسيسي وبصيرتي، لما كنت أسمع وأرى منه الآن".

وكذلك كان "عثمان بكتاش" الذي درّس عليه الفقه والأصول والعقائد. كما تعلم العربية والفارسية من والده المغرم بالقراءة والاطلاع، وكان يترنم بالقرآن في غدوه ورواحه، ويترنم بآيات ومأثورات من الشعر العربي والفارسي وأقوال الصحابة والتابعين، دائم الذكر والاستشهاد بحديث رسول الله ﷺ في سياق واحد.

إنه يبني نفسه روحيًّا ومعنويًّا، لكنه يعلم أننا في عالم العلم والفلسفة العقلية، ولذلك أعدّ نفسه ليكون مسلمًا معاصرًا بوجدانه وبعقله وبقدرته على تشريح أفكار العصر الفلسفية والاجتماعية والفكرية المغلوطة، وطرح البديل الإسلامي الميسور، والردّ على الأسئلة الحائرة التي تجول في

أن يكون عمره ١٨ سنة، فراجع المحكمة، فتم تكبير عمره سنة واحدة، وتم تغيير تاريخ الميلاد إلى ٢٧ أبريل ١٩٤١، وذلك هو المسجل رسميا في بطاقة هوية الأستاذ فتح الله كولن اليوم.(المحرّر)

أذهان الشباب ولاسيما شباب الجامعات، وأوساط الحرفيين والمثقفين؛ بل إنه عندما شعر بأنه يمتلك أدوات الدفاع عن الإسلام في هذا العصر، اقتحم عالم الحوار مع المثقفين والعلماء مع الحب والتسامح ونبذ الكراهية في جميع الأقاليم التركية، بل تجاوز ذلك إلى العالمية.

إنه على غرار العلاّمة بديع الزمان النورسي أصبح مؤمنًا بأن العالم رغم أنه قرية صغيرة يحتاج إلى العقيدة وإلى المنهج المستقيم، ولا بد -بالتالي- من تعاون عالمي بين أصحاب الأفكار السديدة والباحثين عن الحق لملء الفراغ الإيماني بالله وبإنسانية الإنسان والحق، حتى لا يتقدم الشر وبالتالي يَسودُ الباطل.

إننا يجب أن نعترف بأن هذا الواعظ كان نسيج وحده.. لقد عاش في المسجد لله، وقلّما يخرج منه إلا لضرورات مادية أو معنوية.. ينهل من كنوز العلم ويربّي نفسه على تحقيق مصلحة الإنسانية جمعاء، إنما كان ينطلق من فقهه لتلك الشمس المتوهجة التي عمّت أرجاء الأرض خلال قرون البعثة المحمدية، ألا وهي شمس الرسالة القرآنية.. إنما كان ينطلق من الفقه الأعمق بالقرآن وبالرسول وبالحياة، الذي كان حيز تطبيق للقرآن كله ولهذه العالمية التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأَنْبِيَاء:١٠٧).

بين التدريس والوعظ

عندما بلغ محمد فتح الله العشرين من عمره عين إماما في جامع "أُجْ شَرَفَلِي" في مدينة "أَدِرْنَة"، حيث قضى فيها سنتين ونصف السنة في جوّ من الزهد ورياضة النفس، وكان قد قرر المبيت في الجامع وعدم

الخروج إلى الشارع إلا لضرورة.

وحين جاء موعد أداء الخدمة العسكرية، أداها في "مَامَاك" و"إِسْكَنْدَرُون"، ثم رحل إلى أَدِرْنَة، ومنها نُقل إلى "قِرْقْلاَرْ أَلِي"، ثم نقل إلى مدينة إِزْمِير عام ١٩٦٦م.

في إِزْمِير بدأ عمله الدعوي في جامع "كَسْتَانة بَازَاري" في مدرسة تحفيظ القرآن التابعة للجامع، ثم عمل واعظا متجوّلا، فطاف جميع أنحاء غرب الأناضول. وفي عام ١٩٧٠م هداه الله إلى إقامة المخيمات للشباب، وكان في هذه المخيمات يربّي النفوس والعقول ويطهّرها من أدرانها، ويذكّرها بخالقها وربّها. وكانت النفوس عطشى والأرواح ظمأى إلى مثل هذا المرشد الذي ينير أمامها الطريق إلى الله تعالى وإلى رسوله الكريم ﷺ.

في ١٢-٣-١٩٧١م اعتقل الشيخ فتح الله -بعد الإنذار العسكري الموجه إلى الحكومة آنذاك- وذلك بتهمة "محاولة تغيير الأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للنظام القائم واستغلال الشعور الديني للشعب، وذلك بالقيام بتشكيل جمعية سرّية للوصول إلى هذا الهدف".

دام اعتقال كولن ستّة أشهر، وهي المدة التي انقضت في محاكمته، ثم بعدها أطلق سراحه وعاد إلى وظيفته بعد صدور العفو العام. وأرسلوه إلى مدينة أَدْرَمِيت، ثم نقل منها إلى "مَانِيسَا" ومنها إلى "بُورْنُوفَا" في محافظة إِزْمِير، حيث بقي هناك إلى سنة ١٩٨٠م.

في هذه السنوات كان "كولن" يجوب البلاد طولا وعرضا يلقي خطبه ومواعظه على الناس في الجوامع، كما كان يرتب المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية والفلسفية والفكرية، ويعقد الندوات والمجالس

واللقاءات الخاصة، يجيب فيها على الأسئلة الحائرة التي تجول في أذهان الناس وخاصة الشباب؛ فكانت أجوبته بلسما شافيا لعقول وقلوب هؤلاء الشباب والناس، مما جعلهم يلتفون حوله ويطلبون إرشاداته.

قامت الجموع التي حفّزها الأستاذ كولن -دون انتظار أي نفع، وضمن إطار القوانين المرعبة في تركيا- بإنشاء العديد من المدارس والأقسام الداخلية، وبإصدار الجرائد والمجلاّت وإنشاء المطابع وتأليف الكتب ومحطات الإذاعة والتلفزيون. وبعد انهيار الاتّحاد السوفيتي انتشرت المدارس في العالم بأسره، وتم الاهتمام بالأخص بدول آسيا الوسطى التي عانت من الاحتلال الروسي ومن الإلحاد الشيوعي سبعين عاما تقريبا.

الواعظ داعية الحوار

بدأ الأستاذ فتح الله كولن ولاسيما بعد عام ١٩٩٠م بحركة رائدة في الحوار والتفاهم بين الأديان وبين الأفكار الأخرى، متسمة بالمرونة والبعد عن التعصب والتشنج، ووجدت هذه الحركة صداها في تركيا وخارجها. ووصلت هذه الحركة إلى ذروتها في الاجتماع الذي عقد في الفاتيكان بين الأستاذ فتح الله وبين البابا إثر دعوة البابا له.[٤]

لقد آمن "فتح الله" بأن العالم أصبح -بعد تقدم وسائل الاتصالات- قرية عالمية، لذا فإن أي حركة قائمة على الخصومة والعداء أو العزلة لن تؤدي إلى أي نتيجة إيجابية، وأنه يجب الانفتاح على العالم بأسره بالعقل والوجدان، وإبلاغ العالم كله بأن الإسلام دين الرحمة للعالمين،

---

[٤] تمت الزيارة في ٨ فبراير ١٩٩٨م.

وأنه ليس قائما على الإرهاب -كما يصوره أعداؤه- وأن هناك مجالات واسعة للتعاون بين الإسلام والمسلمين وبين الأديان الأخرى وأتباعها المخلصين للإنسانية.

داعية يولد للإنسانية كلها

من أيادي الله عليّ -وأياديه لا تحصى- أني تعرّفت على صديق حبيب عاشرناه -فاعتقدنا وما زلت- أنه وليّ من أولياء الله الصالحين في هذا العصر، وقد اندمجت أرواحنا على بعد المزار، فأنا مصري وهو تركي، إلا أننا أصبحنا جسَدين في روح واحدة، تراه في الدنيا يتحرك ويمشي ويأخذ بكل الأسباب في عبقرية هادئة مغلفة مستورة بثوب الإيمان، "إيمان التقي الخفي"، إنه "محمد أنس أركَنه".. هذا الإنسان أظنّه أخذ من أستاذه "فتح الله كولن" بعض روحه وصفائه وإخلاصه وحبه للناس، وتفانيه في العمل للدعوة ولله بإخلاص شديد. وقد اختار الله صديقي -أنَس- كما أسمّيه ليكون القلم الذي يحاول أن يدخل إلى عالم فتح الله كولن، وأن يكتب كتابًا يدل على قدرته التحليلية عن حياة كولن النفسية والوجدانية، وعلاقته بالله التي لا يسمح لأحد أن يعرف عنها إلا القليل.

ولهذا لم يكن أمامي إلا أن ألجأ إلى كتاب صديقي محمد أَنَس أَرْكَنَه لأقتبس منه بعض ملامح العالم الداخلي والشخصية الجوانية الخفية للأستاذ فتح الله كولن "خُوجَا أَفَنْدي" (بالتعبير التركي).

في حديثه عن الأستاذ كولن يقول المفكر "محمد أنس أركَنه": "إن الإسلام هو المصدر الأساسي الذي يوجه دنيا الفكر والحركة للجماعات الإسلامية، والمهم كيفية فهمها للإسلام وتفسيرها له وكيفية نقله إلى

المجتمع، أو كيف تقوم -إلى جانب تفسيرها للأسس الإسلامية- بإنشاء الروابط والعلاقات مع القيم الاجتماعية في ظل هذه المدنية الحديثة، وكيف تتعامل مع مرحلة الثقافية العالمية ومع أصحاب وجهات النظر والآراء المختلفة"[٥].

"وعندما قمنا بتحليل الآليات الداخلية والمعنوية لحركة فتح الله كولن رأينا أنها: نتاج جديد لتقاليد إسلامية ربّانية قديمة جُعلت متلائمة مع شروط المجتمع الحديث وظروفه، ولبّها يكمن في مبادئ الزهد والتقوى والإحسان، وهذه المبادئ هي الأسس المعنوية للإسلام"[٦].

"ولا بد من الإشارة إلى أن براعة فتح الله كولن ومهارته في الخطابة أسهمت بشكل كبير في إعطاء شكل معين وسمة معينة لحركته، فاستطاع بقابليته الخطابية هذه جلْبَ انتباه الجماهير وإثارةَ اهتمامهم. وفي أحاديثه وخطبه يُلاحظ أنه -بجانب كونه مفكّرًا غزير العلم والمعرفة- يحرك العواطف والأحاسيس أيضًا، أي إنه خطيب على المنابر بوجدانه وقلبه كما يخطب بفكره وعقله. لذا فكما يتم تحليل مقالات فتح الله كولن ونشاطاته الثقافية الاجتماعية، يجب تحليل شخصيته من خلال ألفاظه الشفوية وأحاديثه الثقافية"[٧].

وفي حديثه عن حركة الأستاذ فتح الله كولن يقول: "لا شك أن لهذه الحركة "طابعًا دينيًّا" ولكننا عندما ندقق بنْيتها التي اكتسبتها على النطاق

---

(٥) فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة ١٤١٠هـ، ص:١١.

(٦) فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٢.

(٧) فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٣-١٤.

العالمي في هذا الموقع الجغرافي، نرى أنها تملك أيضًا "هوية اجتماعية وثقافية" عالمية. وعندما قمنا بتناول ماهيتها الدينية اتضحت الطبيعة الروحانية والإنسانية المتسمة باللين والمسامحة التي تبنّاها الأتراك في هذه البقعة الأرضية إبان تعرفهم على الإسلام واهتدائهم بهديه. لأن الجذور التاريخية لمشروع الحوار والمسامحة والابتعاد عن التعصب، ترجع إلى دخول الأتراك الإسلام على يد المتصوفة. حيث كانت هذه سمة الحركات الصوفية (السنّية) للأتراك المسلمين في الأناضول التي كان شعارها: "توقير الخلق والإنسان"[٨].

"إن الإسلام دين واسع المدى والأفق -بلا حدود-، لذلك فهو دين عالمي. وقد توجّه الأستاذ فتح الله كولن إلى مشاعر الخير والمسامحة الثرة الكامنة داخل الإنسان التركي وحرّكها وأثارها. إن هذه التضحية للإنسان التركي مظهر من مظاهر فهمه العميق للإسلام. وهنا تكتسب رسالة فتح الله كولن أهميتها. فالشعب التركي كريم ومعطاء، وقد لاحظ فتح الله كولن عمق هذا الكرم والعطاء الموجود عند الشعب التركي. ولكن لكي لا يتم استغلال هذا الكرم استغلالاً سيئًا فقد اعتنى فتح الله كولن عناية خاصة بتوجيه هذه العواطف والمشاعر نحو المصالح العليا للمجتمع، وحث السير ضمن هذا الإطار باستمرار وبلا توقف. وهكذا أوجد فهمًا جديدًا للتضحية والتساند الجماعي في المجتمع"[٩].

"لقد اهتم فتح الله كولن بالعقل والفكر وتزويدهما بالعلم والحكمة والمعرفة من جهة، وبالقلب والوجدان وتقويمهما بعوامل الخير والإحسان

---

[٨] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١١-١٢.

[٩] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٥.

من جهة أخرى"[١٠].

"وهكذا نكتشف جانبين من شخصيته، الجانب الأول: هو "علمه"، والثاني: هو "عرفانه"؛ فهو يملك معلومات واسعة في العلوم الدينية وفي الثقافة الغربية وفي الفلسفة وفي المشاكل الاجتماعية والثقافية للعالم الحديث. فمن هذه الناحية تظهر أمامنا هويته كعالم ديني وكمفكر عقلاني في جميع الساحات هذه. وهو باستنادٍ إلى مخزون معلوماته وإلى تراكم تجاربه قَدم في شخصه أنموذجًا مثاليًّا في أفكاره النيرة وآرائه العقلانية تجاه العالم. أما الجانب الثاني من شخصيته -أي الجانب السلوكي والعرفاني- فهو يحتوي على معلوماته العرفانية حول الوجود والكائنات، وعلى تجاربه في هذا الخصوص"[١١].

"إن فتح الله كولن هو صورة للتراث الإسلامي في العصر الحديث. ولم أصادف شخصيًّا في حياتي إنسانًا آخر يملك هذا المستوى الرفيع من المعرفة ومراقبة النفس في كل شأن من الشؤون.. لا محل للفوضى في حياته؛ فهو يعيش بنظام الساعة ودقتها، فكأنه اتخذ من النظام المدهش السائد في الكون أساسًا لحياته. ويمكن مشاهدة هذا الأمر في جميع شؤونه بدءًا من أبسط حركاته، ووصولاً إلى قيامه بتخطيط الكثير من الفعاليات والأنشطة. فكأننا أمام عقل يعمل بإيقاع منظم على الدوام.. وحساس جدًّا أمام العناصر المعنوية كحساسيته أمام العناصر المادية.. نظراته وأطواره وقورة جدًّا، وهذه النظرات تبدو وكأنها لا تلامس المظاهر

---

[١٠] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٦.

[١١] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٥-١٦.

الخارجية بل تنفذ إلى الأعماق"[١٢].

"عندما ننظر من أعتاب دنيا إدراكنا العقلي المعاصر، نرى أن فتح الله كولن يملك شخصية معنوية وفكرية قوية، قد عركته تجارب سنين طويلة في دنيا الفكر، فوقف بشكل مهيب يخاطب هذا العصر الذي ضعفت فيه الروح والفطرة السليمة، وضعف فيه الإدراك الصحيح. ولا يحس الأشخاص القريبون منه في ظل الثقل الفكري والمعنوي له بالراحة؛ لأن عليهم أن يكونوا يقظين على الدوام وفي جو روحي عميق.. ولا يمكن الولوج إلى عالمه بأحاسيس ومشاعر تميل إلى الدنيا ومتاعها المادي ومصالحها ومنافعها. فلكي تلج إلى عالمه عليك أن تتجاوز حدود عالمك الشخصي وتتعدّاه. وبالمقابل هو أيضا لا يساعدنا كثيرًا على فهمه وتحليل شخصيته بعمق، لأنه يقوم بإخفاء العديد من الأمور المتعلقة به ويسترها بسبب تواضعه الجم"[١٣] ورغبته العميقة في التجرد والإخلاص.

[١٢] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٨-١٩.

[١٣] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:٢٠-٢١.

الفصل الثاني:
القضايا المنهجية والفكرية
من منظور فتح الله كولن



- الأستاذ فتح الله كولن.. مرشدًا ومربيًا
- النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية
- الموازين أو أضواء على الطريق في فكر الأستاذ فتح الله كولن
- أسئلة العصر المحيرة في فكر الأستاذ كولن
- الطريق إلى الدعوة والإرشاد في الفكر والحياة
- القلب والروح في فكر علامة الأمة: فتح الله كولن
- التربية الإسلامية (القرآنية النبوية) وصناعة الإنسان
- حديث حول القدر في فكر العلامة فتح الله كولن
- حقيقة الخلق ونظرية التطور في فكر الأستاذ كولن
- روح الجهاد وحقيقته في الإسلام في فكر الأستاذ كولن
- بين حِكم ابن حزم الأندلسي وحِكم الأستاذ فتح الله كولن
- القضايا الوجدانية والروحية في فكر الأستاذ فتح الله كولن
- أضواء قرآنية في سماء الوجدان



الأستاذ فتح الله كولن.. مرشدًا ومربيًا

عندما تدخل إلى عالم الداعية المربّي "فتح الله كولن"، ادخل إلى عالمه تلميذًا يريد أن يعرف الحق بالعلم والنور ويعمل به.. ولا تدخل إلى دنياه أستاذًا يريد أن يعلّم وينقد... والفرق شاسع بين المدخلين.

وعندما تدخل تلميذا تكتشف الكثير.. بوجدانك كله.. تكتشف أنك تعيش الطبيعة العصرية لمنهج القرآن والنبوة.. لكأنك في مدينة الرسول ﷺ مع أنك في القرن الحادي والعشرين للميلاد، الخامس عشرة للهجرة.

وفي مجلسه تشعر بعبق الرسول الأعظم الخاتم، سيد المرسلين، وإمامهم ﷺ، كما تشعر بالرائحة الزكية لصحابته ﭬ وكأنهم أنفسهم موجودون.

وفي عالم الأستاذ "فتح الله كولن" يدعو بمنهج الرسول... متخولاً بالموعظة كل الناس، داعيًا لصحابته الذين يجلسون بين يديه، لأنه يعلم أن وجدانهم وحبهم يمنعهم من الجدال... وقد يتكلم تلامذته قليلاً بأدب قرآني، أو تتكلم مؤمنة، فيجيب.. ولا جدال.

ولا مكان هنا -في مجالس التربية والوعظ- لهؤلاء الذين جعلوا الخلاف والشقاق وألوان العصبيّات هي الأصل.. فذاقت الأمة من جزاء سيادة منهجهم أشكال الضياع المختلفة... وما زالت حتى يومنا هذا...

* * *

اذهب إلى عالم الأستاذ -أو الواعظ- "كولن"، وأنت تتمثل منهج النبوة القديم والمعاصر. واعلم أنه يحقق المنهج نفسه.. فتعاملْ معه بقريب مما كان الصحابة يعاملون به المعلم الأعظم محمد ﷺ بين يديه في مسجده، أو وهم يمشون معه عليه الصلاة والسلام في دروب المدينة وأسواقها.

وهنا ستكون قد عرفت المفتاح الأساس العام من مفاتيح مدرسة كولن القرآنية النبوية الفكرية العملية.

* * *

في وعظه وإرشاداته وتربيته، يسير الأستاذ "كولن" على قواعد وأصول مستقاة من مدرسة النبوة، وتنطلق الدعوة عند الشيخ من قواعدها، وهي أنها علم وفقه وثقافة وروح ورسالة عالمية، وكل قضية جزئية لا تخرج عن كونها وحدة من وحدات المنهج؛ ومع ذلك فإن لكل قضية خصوصيتها وظرفها المكاني والزماني الذي يستدعي أن تعطى حقها، وأن تواجه بعلمية كاملة دون أن تنقطع العلاقة بينهما وبين قواعد ومنطلقات الدعوة.

في حديثه عن طرق الإرشاد وضوابطه يذكر العلامة فتح الله كولن عدة أدوات ينبغي أن يتزود بها الداعية على رأسها:

الأداة الأولى: العلم والعمل

إن العلم في حقيقته الربانية والإنسانية الخالدة هو: معرفة الإنسان لربّه ﷻ بعد معرفته نفسه.. ومعرفة الإنسان لربه ﷻ تكون بمعنى أن يجعل العلم أو المعرفة بالله هي التي توصِّل الإنسان إلى مقام الإحسان.. ومقام الإحسان هذا هو أرقى مراتب العبودية، وهي المرتبة التي وصل

الأنبياء عليهم السلام إلى أكملها. إذ أن مقام الإحسان كما بينه النبي ﷺ: "الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

ومن هنا جعل الأستاذ كولن غاية العلم "هي أن ينتج المعرفة والمحبة الإلهية"[١٤]، فالذي يتوصل من خلال علمه إلى المعرفة بالله فهو العالم حقًّا، والذي لم يتوصل من خلال علمه إلى معرفة بالله فليس بعالم حتى ولو كان يحمل أكبر الألقاب العلمية. إنه كما عبر القرآن الكريم: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(الجمعة:٥). والعالم البيولوجي لا بد أن يصغي سمعه للأرض حين تنطق بالتوحيد.. وعالم الفلك لا بد أن يتسمع تسبيح الكواكب والمجرات.. وعالم الكيمياء لا بد أن يشاهد حركات صلوات الذرّات حين يتفاعل بعضها مع بعض... فإن فعلوا، فهم علماء حقًّا، وإن لم يفعلوا فما أحط قيمتَهم.

وتفيد العبارة القرآنية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فَاطِر:٢٨) أن المقصود بالخشية هم العلماء الذين وقفوا على الحقيقة في محراب العلم، حين ساووا أقدامهم في محراب الصلاة خاشعين لله يطلبون منه القبول والرضا عن ظاهرهم وباطنهم.

وحتى يزداد الأمر وضوحًا نتفحص هذا الحديث الصحيح: عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم.. إن الله ﷻ وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلم الناس الخير»(رواه الترمذي). من هذا الذي يكون فضله كفضل النبي ﷺ وهو لم يعرف عن الله

[١٤] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٤.

تعالى شيئًا؟ أم من هذا الذي يستحق أن يصلي الله تعالى وملائكته وأهل السماوات والأرضين والدواب والحشرات عليه وهو لا يعترف بوجود الله تعالى أصلا؟ إذًا العالم هو الذي عرف الله تعالى.[١٥]

وهنا يأتي العمل القائم على العلم واليقين، وهذا فيصل آخر بين مفاهيم الإنسان الخالد ومفاهيم الحضارة المحدودة... فالعلم عندما لا يرتبط بالعمل لا يعني شيئًا.

وإذا كان التعليم في الإسلام هو طلب المعرفة الحقة، فإن قيمة هذا التعليم أن يعمل صاحبه، ثم يحث الناس على العمل به. وقد ضرب الإمام الحسن البصري -رحمه الله- أروع المثل في هذه المسألة، فروي أنه سأله بعض العبيد أن يحث السادة في مواعظه على إعتاق الرقاب، فانتظر بالموعظة حتى يحققها فعلا، فاشترى عبدًا أولاً ثم أعتقه، ثم حث الناس بعد ذلك على العتق. فهذا الشيخ أدرك بحصافة فكره ورجاحة عقله أن الحال أبلغ بكثير من المقال.

وهذا على العكس من هذا الخطيب الذي ينذر الناس في أسمارهم، حين يصعد المنبر، فيتحدث عن حقوق الجار، وأنه ينبغي أن يبعث إلى جاره من طعام بيته.. فسمع ولده كلامه، وكان هذا الخطيب قد اشترى بطيخة، فانصرف الولد إلى البيت وأخذ البطيخة وأعطاها لجار له فقير، فلما رجع الخطيب إلى البيت، افتقد البطيخة، فأخبره ولده بما فعل، فضربه. فقال الولد "يا أبتي، ألم تأمر أنت بذلك على المنبر؟". فنهره وقال له: "يا أحمق، علينا أن نقول، وعليهم أن يفعلوا!". فهذا الخطيب وأمثاله

---

[١٥] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٨٧ (بتصرف).

لا يستحقون أن يكونوا من عباد الرحمن، لأنهم لم يرضوا أن يكونوا للمتّقين إمامًا.

فإذا تعلم الداعية ثم عمل بعمله، فإنه يصل إلى المرحلة التالية وهي التبليغ أو التعليم، وذلك ليعم الخير المجتمع كله وتشمله الفائدة. والتبليغ هو الميثاق الذي أخذه الله على العلماء قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾(آلِ عِمْرَان:١٨٧)، ولهذا توعد الله سبحانه وتعالى الذين يكتمون العلم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾(البَقَرَة:١٥٩)

الأداة الثانية: معرفة الواقع المعاصر

وتأتي الأداة الأخرى بعد العلم والعمل.. وهي معرفة الواقع المعاصر.

إن ثقافة العصر[١٦] هي السلاح الذي يستخدمه الداعية للوصول إلى هدفه. فقد ضرب علماء المسلمين أروع الأمثلة في الإلمام بثقافة العصر، وعلى رأس هؤلاء حجة الإسلام الإمام الغزالي، الذي كانت ثقافة عصره هي "الفلسفة"، فعكف على دراستها حتى فاق علماءها في المعرفة بها، ورد عليهم شبههم الدينية بنفس سلاحهم، وجرد إليهم سيفه "تهافت الفلاسفة"... كما هضم علماؤنا علم المنطق الأرسطوطاليسي وعلم المنطق الحديث لدرجة أنهم "مَنْطَقُوا" (أي فرضوا) المنهج المنطقي الصوري على علوم اللغة العربية وعلم الكلام.

ونحن في عصرنا هذا تسود ثقافة "الأرقام"، وثقافة علوم "الرياضيات"

[١٦] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١١٨.

و"الطب" و"البيولوجيا" و"الفيزياء".. فلو أخذ الداعية من هذه الثقافة نصيبًا لخرج من استخدامها بحظ وافر من النجاح.

ولقد تحدث الأستاذ فتح الله كولن عن هذه الأداة تحت عنوان "معرفة المخاطب وأسلوب التفاهم" فيقول: "لا يمكن لمن يجهل ثقافة عصره ومدى فهمه وأسلوب خطابه أن يفهّم إنسان عصره شيئًا"[١٧]. ولقد حث الأستاذ كولن على بذل كل ما في الوسع للتسلح بما يخدم وظيفة الإرشاد والتبليغ والدعوة حتى لو استدعى ذلك الذهاب إلى النجوم.. ولعل هذه العبارة الأخيرة العظيمة القيمة يستوعبها الدعاة ليعرفوا قيمة الدعوة عند علامة عصره الشيخ "فتح الله كولن".. فالدعوة للإسلام الذي هو كلمة الله الحق توجب علينا أن نبذل الغالي قبل الرخيص في سبيلها، لأن الثمن هو الخلود في الجنة.

وفي مكان آخر إشارة من الشيخ كولن إلى الزاوية نفسها وهي "النظر من زاوية العصر"[١٨]، وذلك عندما يدعو كولن الدعاة إلى الإيمان الأصيل مع المعرفة بالعصر، لأنه ضرورة للداعية. وتأكيدًا لهذا المعنى الكبير ذكر الشيخ "كولن" ضرورة وعي الداعية بثقافة العصر من فلك وكيمياء وتكنولوجيا حديثة ليستطيع من خلال ذلك أن يتجاوب مع أبناء الجيل ويحدثهم بثقافتهم ويكلمهم بما يعرفون. لأن الداعية إن لم يتأثّر بثقافة عصره، فلن يستطيع أن يؤثّر في الناس من حوله.

ولا يجوز أن يتحدث الداعية بلغة لا يفهمها المخاطب، فهذا ليس من البلاغة في شيء، لأن البلاغة تعني مراعاة حال المخاطب والنزول إلى

---

[١٧] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١١٨.

[١٨] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٢٢.

مستواه، أو الارتفاع والسمو إلى مستواه العلمي. ولن يستطيع الداعية أن يزيل الشبهات أو يحل المشكلات إذا لم يحدثهم بلغة عصرهم وثقافتهم. فإذا حدثهم بلغتهم، وخاطبهم على قدر عقولهم، سهل عليه الوصول إلى إقناعهم.[١٩]

الأداة الثالثة: تعلق القلب بالقرآن

وإلى جانب ذلك هناك أداة أخرى ألا وهي تعلق القلب بالقرآن. فعلى المبلغ أن يربط بين الآيات القرآنية والكونية أمام الناس، ثم يصنع منهما مركبًا يدخل إلى القلب. ويلاحظ أنه في بعض الأدوات السابقة يركز مؤلفنا الكبير على ضرورة التعانق بين ما هو قرآني وكوني. فيقول كولن: "إن أول شرط لا يستغنى عنه المبلّغ قط هو تطبيقه الآيات الكونية الظاهرة في الآفاق والأنفس على الآيات القرآنية المتلوّة، ومن ثم صياغة مركب منهما. وبمقدار نجاحه في هذا الميدان يوفَّق في تبليغه وإرشاده. وبخلافه لا شيء إلاّ الإسراف له ولمخاطبيه"[٢٠].

الأداة الرابعة: استعمال الوسائل المشروعة

يقول الأستاذ كولن: "الداعي إلى الله يتحرى بدقة الوسائل والطرق المشروعة لدى دعوته الناس وتبليغهم؛ إذ لا يُسلك إلى هدف مشروع إلاّ بوسيلة مشروعة، بل لا يمكن بلوغ الهدف المشروع بوسائط ووسائل غير مشروعة ألبتة. ولما كان هدفنا هو الحق ونحن أعداء الباطل، فلبلوغ هذا الهدف الحق ليس لنا أن نستعمل الباطل الذي هو عدوّنا. فبخلافه نكون

---

[١٩] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٤، ٩٥.

[٢٠] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠٢.

قد كذّبنا أنفسنا وناقضنا جميع ما قمنا به من أعمال. وفي الحقيقة لا تقوم دعوة على الكذب، ولو قامت فلا تدوم قطعًا، فلقد رفع الله سبحانه البركة واليُمن من الأعمال التي اتخذ فيها العاملون للإسلام هذه الوسائل"[٢١].

إذن لا بد من الصدق كشرط من شروط الداعية.. فالصدق شرط من شروط نجاح الداعية، لأن الصدق وحده هو الذي يهدي إلى البر، أما الكذب فهو يهدي إلى الفجور. في صحيحيهما عن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا "(متفق عليه). ولا يجوز للداعية أن يستعمل الكذب في حديثه بغرض إقناع الناس بالدين.

الأداة الخامسة: معرفة البناء الفكري للمخاطب

وتُعد معرفة البناء الفكري للمخاطب أداة ضرورية حيث يؤكد المصنف[٢٢] على وجوب اهتمام المرشدين والمبلغين بالبناء الفكري لمخاطبيهم. يقول كولن: " إن معرفة المخاطب هي بالإحاطة بمستواه الاجتماعي وبناه الثقافي. هذه حالة مهمة جدًا من حيث فن التبليغ، فكما أن التبليغ والإرشاد وظيفة، فإن معرفة فن التبليغ وظيفة أخرى"[٢٣]. إضافة إلى ذلك، إن واقعنا المعاصر مليء بجماعات إسلامية كثيرة، ولكل

---

[٢١] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠٣-١٠٤.

[٢٢] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١١٥ وما بعدها.

[٢٣] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١١٦.

جماعة مشرب يميزها عن غيرها من الجماعات الأخرى، فعليه أن يحترم الجماعات كلّها، وأن يساير البناء الفكري لمخاطبيه، حتى يكون كلامه مقبولاً لدى الجميع، وهو في هذه الحالة يكون ملتزمًا بـ"أدب الخلاف".

الأداة السادسة: الدعاء لله والتضرع بين يديه

والأداة الأخرى التي يستعين بها الداعية هي من أهم الأدوات بل هي أعظمها وما أخرت في الترتيب إلا لأنها تاج الأعمال ورأسها، وهي الطريق إلى نجاح كل شيء، كما أنها الطريق إلى تفعيل أسباب الخير وإلى الوقوف في مواجهة الشر. هذه الأداة هي الدعاء.

فالداعية الحق كما يرى الأستاذ كولن[٢٤] هو الذي يقتدي بالنبي ﷺ في جميع أحواله.. ومن أحواله ﷺ أنه كان يكثر من الدعاء، ولا تكاد تخلو له حركة ولا ساكنة من دعاء أو ذكر. فهو يدعو عند الاستيقاظ، عند دخول الخلاء، وفي بدء الوضوء، وبعد الانتهاء منه، وعند دخول المسجد والخروج منه، وعند دخول البيت والخروج منه، وعند لبس الثياب ونزعه، وقبل الأكل وبعده وقبل الشرب وبعده، وعند الجماع، وبعد الغسل.[٢٥] فالنبي ﷺ الذي نشر الإسلام في جزيرة العرب وفي بقية بلاد العالم، وحارب الروم على مشارف الشام ونزلت عليه آيات القرآن المعجزة... ما ترك الدعاء في أي حال من أحواله عليه الصلاة والسلام.

يقول الأستاذ كولن: "إن الاهتداء ليس له علاقة قوية بالتبليغ والإفهام. لأنه بيد الله سبحانه. فإن لم يُرِد اللهُ الهداية لشخص لا يكون أحد وسيلة

---

[٢٤] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٤٤.

[٢٥] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٤٥.

لها قط. وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(القصص:٥٦). لذا فأصل المسألة هي الارتباط بالله الذي له مقاليد خزائن الغيب والحاضر، والهداية خزينة عظيمة، فمفتاحها أيضًا بيده ﷻ بلا شك. فالألزم إذًا للمرشد والمبلّغ أن يلجأ إلى القدير الذي بيده مفاتيح كل شيء في أثناء تبليغ شيء ما إلى المخاطب بإخلاص تام"[٢٦].

نعم، إن الدعاء أداة من أدوات الداعية يستخدمها مع الضال ليهديه الله ويستخدمها مع المهتدي ليثبته الله. أما عن أسلوب المبلغ والداعية فيجب عليه أن يعتبر نفسه رسولاً لرسول الله، وسفيرًا للإسلام.. يتحدث بلسان الرسول والرسالة، وينظر الناس إلى دينه من خلال شخصه، فإما أن يكون حكيمًا يجذب القلوب والعقول إليه، وإما أن يكون متهورًا ينفض الناس عنه.

والنبي ﷺ إمام الدعاة والمتقين وقدوة المرشدين حدد الله له الأسلوب الذي يدعو به إلى ربه في ضوء قوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النَّحل:١٢٥).

ولكي نعالج دواعي الأسلوب الحكيم بالتفصيل الممكن فيجب علينا أن نؤكد من الأساليب التي تتعلق بالمخاطب تعميم الخطاب.. فالأسلوب الحكيم هو الذي يبتعد عن التشهير والمواجهة التي تخاطب مخاطبا بعينه فيشعر بالأذى لا القصد، وليس بالتعبيرات المباشرة الصريحة. وليكن حديثه عامًا لجميع الحاضرين، فإنه ﷺ كان عندما يقوم بتقويم خطأ يقول: "ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا "، إلا أنه ﷺ كان يوجه حديثه أحيانًا

---

[٢٦] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣٨-١٣٩.

لشخص بعينه وذلك في حالات خاصة وأمور شخصية.

والعلاج الذي ينجح في مجتمع ربما لا يكون ملائمًا لمجتمع آخر، فلكل مجتمع وكل مخاطب أسلوبه الذي يتحدث به الداعية إلى المخاطبين وبالله التوفيق.

ومن البديهي أن البُعد عن الرّياء من مؤهلات الداعية؛ فالعلماء الربانيون مثل الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه كان همه من الجدال هو الوصول إلى الحقيقة وليس السفسطة الجدلية التي تهدد الجهد والوقت. كان يقول رضي الله عنه "ما جادلت أحدًا وأحببت أن يخطئ". لماذا؟! لأنه يبحث عن الحكمة، ولربما ألقى الله الحكمة على لسان خصمه فيذعن له ويقبل حكمه. ومن هنا قال كلمته المشهورة: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب". وذلك لأن هدفه الوصول إلى الحقيقة والصواب، وليس التعصب لرأي.[٢٧]

الأداة السابعة: عدم الأنانية

ويدخل في هذه المؤهلات الصفاء والإخلاص.[٢٨] يقول كولن: "إن مَن ينطوي على غرور وكبر لن يكون مرشدًا ومبلّغًا قط، مهما ارتقى في مقامات عالية، وتسنّم وظائف جليلة، فهو أبعد بفراسخ عن التبليغ، والتبليغُ أبعد منه بفراسخ. نعم، إن المبلغ يحافظ على وضعه كما هو في كل زمان ومكان وأيًّا كانت الظروف. فهو ذلك الإنسان الذي لم يطرأ عليه تغيير، ولم يزغ بصره بعدما حاز ما حاز من النصر والتوفيق، وهو الذي

---

[٢٧] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣٨ وما بعدها.

[٢٨] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٥٠.

ينهي عمله كما بدأ به أول يوم.. فحياته التي بدأت على حصير متواضع، تدوم على الحصير، ويلقى ربه وهو على ذلك الحصير.. فهو هو، مهما تغيّر العالم مِن حوله، وقامت انقلابات عالمية عظيمة، وافترش الناس النجوم والكواكب.. فهو في تواضعه لا يشاهَد منه انحراف قط سواءً في أطواره أو في معاملاته"[٢٩].

نعم، إن الأنانية[٣٠] عامل يعيق الهداية ويزيل بركتها، سواءً للمبلغ أو المخاطب.. لأن السبب الرئيسي للأنانية هو الجدال والمراء، والإنسان في ساعة الأنانية يفقد شعوره بالله.

الأداة الثامنة: الامتثال بالمرونة

يقول الأستاذ كولن: "على المبلغ أن يكون مرنًا وأن يحافظ على مرونته هذه.. لأنه أحيانا ينزل في أعماق الوديان العميقة، وأحيانًا يصعد أعالي المنابر؛ إذ بين مخاطبيه مَن هو في كلتا النقطتين، وهذا يقتضي أن تكون مساحة ثقافته واسعة جدًّا. وإلاّ فلا يكون مرشدًا حقًّا"[٣١].

وللأسف الشديد فإن هذه المؤهلات والشروط لا توجد إلا في أقل القليل من الدعاة اليوم في العالم الإسلامي.

نجح المسلمون في الكلام وحده حول فنون العصر. ويكون العمل به دون الكلام بكثير، فالكلام بدرجة الامتياز، والعمل بدرجة مقبول! وهذه القضية أن النسبة بين الكلام أو العمل به وتحليله تحليلاً علميًّا منتشرة

---

[٢٩] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٥١.

[٣٠] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١١٥.

[٣١] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٢٠.

في فكر الشيخ فتح الله كولن كله؛ انطلاقًا من أن القرآن المعجز يخاطب مستويات مختلفة، لأنه نزل إلى الناس كافه، وكل من يستمع إليه يعتقد أنه المقصود في خطاب القرآن المجيد، وكأن القرآن يخاطبه وحده.

الأداة التاسعة: عدم مصادمة قوانين الفطرة

ومن الضروري عدم مصادمة الفطرة، فالمبلغ ينبغي أن يكون صاحب بصيرة لا يصطدم مع قوانين الفطرة المستقرة بالآيات الكونية. يقول كولن: "المبلّغ لا يصطدم قطعًا مع قوانين الفطرة. بل يتخذ البصيرة أساسًا في تبليغه، لأن الفطرة مستقرة بالآيات التكوينية. فالتكاليف والأوامر التي تُبلَّغ يجب أن تُبلّغ وفق هذه القوانين، أي تؤخذ الخصائص والمزايا التي فُطر الإنسان عليها بنظر الاعتبار؛ فيخاطب وفق تلك المزايا والخصائص. وبخلافه ربما لا يهتم المخاطب بالكلام مهما كان بليغًا وبراقًا؛ لأنه قد لا يفهم كليًا ما يخاطب به، أو يعدّه أمورًا نظرية خياليّة"[٣٢].

ومن صفات الفطرة المستقرة في الإنسان "الحب" كما يقول كولن: "إن المبلّغ بدلاً من أن يقول للمخاطب: "لا تحب"، عليه أن يقول له: "اصْرِف الحب إلى من هو سرمدي دائمي، أو اصرف حبك لأجله وفي سبيله". عند ذلك تكون محبة جميع المخلوقات غير محظورة"[٣٣].

ومن صفات الفطرة العناد.. نعم، إن "العناد قوة عظيمة للثبات على الحق. فلو لم يكن شعور العناد، يمكن أن يتراجع الإنسان عن الحق إذا رأى قليلاً من الضيق. بمعنى أننا إذا ما وجهّنا هذا الشعور إلى وجهه

---

[٣٢] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٦٠.

[٣٣] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٦٠.

الإيجابي، يمكن أن نجني ثمرات ونتائج حسنة جدًّا. ولهذا لا يمكن أن نقول للناس: دعوا العناد جانبًا أو اتركوا العناد.. بل علينا أن نقول لهم: استعملوا العناد في الثبات على طريق الحق والحقيقة. فهذا أجدى وأسلم"[٣٤].

ومن الفطرة صفة "فرض الذات بالإكراه على الآخرين" التي إذا وضعت موضع الأنانية كانت شرًّا ووبالاً على صاحبها وعلى المجتمع، وإذا كانت في موضع الثبات على الحق والمبدأ المستقيم كانت خيرًا على صاحبها وعلى المجتمع.

تبعات الإرشاد

وهنا نصل إلى الحديث عن التبعات والأعباء التي تقتضيها قضية الوعظ والإرشاد والدعوة والتربية.

١-انتظار التوفيق من الله تعالى

فمن المعروف أن لكل وظيفة تبعات، هذه التبعات تكليف يقع على القائم بهذه المهمة، ولن يستطيع القائم على أمر الإرشاد والدعوة القيام بتبعاتها مهما أوتي من الحكم إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى.. إن نبي الله شعيبًا عليه السلام، وهو خطيب الأنبياء، لجأ إلى توفيق الله تعالى وأخَذ بأسباب التوكل عليه، والرجوع والإنابة إليه، فقال لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هُود:٨٨).

---

[٣٤] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٦١.

٢-طلب الأجرة

إن من أوائل مشكلات الدعوة وأعبائها طلب الأجرة[٣٥] عن قصد وربط الدعوة بها.. قال تعالى على لسان أنبيائه وهم يبلغون الدعوة لأقوامهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشُّعَرَاء:١٠٩).

نعم، "إن المبلّـغ لا يريد جزاءًا ولا شكورًا من أحد عوضًا عما يؤدّيه من وظيفته المقدسة، ماديًّا كان ذلك الأجر أو معنويا وروحيًّا.. لأن طلب الأجر يُذهب صفاء الإخلاص والصدق. وحالما يتكدر الصدق والإخلاص تتلاشى قوة التأثير. بل المبلّـغ يقلق حتى على ما يورثه تبليغه من ذوق معنوي ولذة روحية أن يكدّرا صفو الإخلاص، ناهيك عن الأجر المادي الذي يجرح التبليـغ"[٣٦].

إن الأنبياء والبشر يطلبون أجرهم من الله وحده سبحانه كي لا يكونوا أصحاب شُبهة؛ لأنهم موقنون بأنهم يقومون بأمر الله وأعباء رسالته. والتركيز على الطموح في اكتساب المال من خلال الدعوة والإرشاد يحول دون الوصول إلى الغاية، وهي إرشاد العباد والتأثير فيهم قولاً وعملاً.

إذن فالمرشد -وهو الداعية- يتقاضى أجره من الله.. ولهذا كان الأنبياء يكتسبون معاشهم من عمل آخر غير عملهم الدعوي، كما قال ﷺ: «ما أكل امرؤٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده».

---

[٣٥] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠٤-١١١.

[٣٦] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠٤.

وقد ورد أن داود ﷺ كان بجانب نبوّته يشتغل في مهنة الحدادة كما قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾(الأَنْبِيَاء:٨٠)، وقال ﷺ: «ما بعث الله نبيًّا إلا وقد رعى الغنم». وقد كان ﷺ يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وكان يتاجر مع عمّه أبي طالب وفي مال زوجته خديجة رضي الله عنها.. وهكذا كان كبار الأمة الأعلام من الدعاة ﷺ، فقد كان منهم "الزَّجاج" (أي صانع الزجاج)، و"النجار" (أي صاحب الخشب)، و"البيطار"، و"العشّاب"، و"التاجر"، وغير ذلك.

والمرشد لا يأخذ أجرًا على دعوته؛ كي لا يدخل تحت منَّة أو إذلال أحد.. لأن ذلك يؤثر على حرية دعوته وصدق كلمته.

ولكنه في الوقت الحاضر (أي في عصرنا الحديث والمعاصر) يجوز العمل في وظائف الدولة ضمن حالات الاضطرار بالنسبة للظروف التي يعيشها الدعاة اليوم.[٣٧]

٣-صدق الظاهر مع الباطن

ومن مشكلات الداعية أيضًا في الحياة، صدق الظاهر مع الباطن وتوافق العفل مع القول. فإذا لم يتوافق وجدانه وقلبه مع جوارحه، فإنه يحيا حياة ازدواجية متناقضة، هي حياة المنافقين، نعوذ بالله من أن نكون منهم، كما قال سبحانه ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(الْمُنَافِقُون:١). وقال

[٣٧] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠٤-١١٠.

لبني إسرائيل منكرا عليهم سوء فعلهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البَقَرَة:٤٤). وفي القرآن عاتب الله عباده على ارتكاب هذا النفاق وحذرهم من عاقبته فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾(الصَّف:٢-٣).

نعم، "إن أهم قاعدة من قواعد التبليغ أن المبلّغ يحيا بما يبلّغ، ويبلّغ بما يحيا.. ذلك لأنه على الصراط السوي للمؤمن الحقيقي. والمؤمن الحقيقي يعني مَن بلغ إلى تكامل الظاهر والباطن. فلا تخالف بين الظاهر والباطن في هذا المؤمن. أما الحياة الازدواجية فهي صفة النفاق، ويتنزه المبلّغ الصادق من مثل هذه الأخلاق المذمومة، وما ينبغي له، ولأن صفة الإيمان قد أراه أفق الأخلاق الرفيعة، بأن ليس له إلا تبليغ ما يحيا به في كل زمان ومكان"[٣٨].

ومن البدهي أن السبب المباشر لتأثير كلام المبلغ في وجدان أتباعه أن تتحول الإرشادات إلى واقع ملموس معايش، فإذا لم تكن واقعًا ملموسًا فكيف تؤثر وهي مجرد نظريات وكلمات لا واقع لها في عالم التطبيق؟![٣٩]

إن المُبلّغَ الذي يحيا بما يُبلِّغ، أي أنه صورة حية عملية لقوله، يكون في محاسبة مستمرة للنفس أي في عبادة ومراقبة، فلا يتكلم عن الصلاة نهارًا وقد فاته التهجد ليلاً، ويخجل من النظر للحرام عندما يتلوث بصره

---

[٣٨] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٢٩.

[٣٩] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣٠.

به..[٤٠] فالأفكار التي لا تجد مجالاً تطبيقيًا في صاحبها لا تجد حسن القبول لدى الناس.[٤١]

٤-التبليغ والمعيار

ومن مشكلات الداعية موقفه من الموازين من ناحيتي معرفة قيمتها وفائدتها العملية.. فميزان التبليغ هو ميزانه لكل شيء.. فإن الأشكال الدينية التي يسميها بعضهم عبادات لا فائدة فيها إذا لم تحقق الغاية منها وهي جعل أمور الهداية واقعًا ملموسًا. يقول كولن: "الإرشاد والتبليغ في المجتمع الإسلامي ليس وظيفة فحسب، بل هو بمثابة معيار ومقياس لكل شيء، حيث يقيس أفراد ذلك المجتمع جميع شؤونهم وفق ذلك المقياس وينظمون أوقات يومهم وفقه، ويمضون لياليهم تحت أنّات هذه المسؤولية"[٤٢].

وهكذا فإن الحفاظ على الميزان الأساسي للإرشاد، يوجد في قليل منذ إشراق شمس الدعوة إلى يومنا هذا.. وهؤلاء هم المتقون أي "العالمون العاملون".

٥-التبليغ والمعاناة

ومن مشكلات الداعية مستواه في تحمل المعاناة عندما يبلغ كلمة الله، فالمعاناة لا بد منها، وهي من لوازم الدعوة، ولا بُدَّ للداعية أن ينال حظه

---

[٤٠] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣٠.

[٤١] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣١.

[٤٢] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣٢.

من سنة الله هذه.

لقد استهزئ بالأنبياء جميعهم عليهم صلوات الله وسلامه؛ فألقي إبراهيم عليه السلام في النار بسبب دعوته، وأوذي موسى عليه السلام بسببها، ونُشر زكريا عليه السلام بالمنشار بسببها، وحاول بنو إسرائيل صلب عيسى عليه السلام بسببها.. فقابل كل هؤلاء ذلك بالصبر حتى جاء الأمر الإلهي لحضرة النبي محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(الأَحْقَاف:٣٥).

وعلى الهدي أو الطريق نفسه سار الصحابة الكرام رضي الله عنهم فضرب الكفار أبا بكر الصديق رضي الله عنه حتى أغمي عليه، وكُوِيَ بالنار عمَّار بن ياسر رضي الله عنه وأبوه، وقُتلت أمه رضي الله عنها، وقيد الكافرون طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وأوقدت النار من تحت الزبير بن العوام رضي الله عنه وجُلِد بلال بن رباح رضي الله عنه.[٤٣]

وكل ذلك لأن هذا هو سنة الله في طريق الدعوة لله والتربية الدينية، ولهذا قال لقمان عليه السلام لابنه وهو يعظه ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(لُقْمَان:١٧).

نعم، "إن التبليغ أمر إيماني، فمن ينصر الإيمان، عليه أن يعزم عزيمة جادة على إدامة حياة الإيمان، وليكن عزمه -في الأقل- كعزمه على إدارة بيته وأهله، أي يدافع عن دعوته بمثل ما يدافع عنهم. وبخلاف هذا لا ينجو من عاقبة بني إسرائيل. والمبلّغ والمرشد مترقّب دائمًا لمواجهة المصاعب والمتاعب، ويلقّن نفسه بهذا باستمرار، ويعتقد يقينًا أنه لا يفلح ما لم يصبه ما أصاب الذين قبله في دعوتهم؛ أي يبتغي العزيمة دائمًا ويتهيأ لتحمل المشقة، وإن قوبل باليسر يشكر ربه الذي أنعم عليه بهذا

---

[٤٣] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٢٦.

ويستمر في دعوته"[٤٤].

٦-التبليغ والنفاق

ومن مشكلات الداعية، الصدق في الارتباط بالله تعالى قولاً وعملاً، لأن الارتباط بالله تعالى يوجب موافقة اللسان مع القلب مع العمل، وكل ذلك هو "الصدق" مع الله والنفس، مصداقًا لقوله ﷺ «الإيمان ما وقر في القلب وَصَدَّقه العمل».. فلا بد من تصديق الجوارح للقلب؛ وهذا ما أكده شعيب عليه السلام عندما قال لقومه وهو يعظهم: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾(هُود:٨٨).

نعم، "إن الشعور بالمراقبة والمحاسبة عامل حض دائمي للمبلّغ.. فالمرشد في مراقبة مستديمة لنفسه، فيراقب مشاعره وتصوراته، ويجهد أن يستقر في نفسه ما يبلّغه للآخرين أولاً ومتلبّسا به. وفي الوقت نفسه يتجنب ويتحرز تبليغ الآخرين أو نصحهم بمسائل لم يحاسب نفسه عليها بعدُ. وهذا التجنب لا يمنعه التبليغ بل يحض عليه ويدفعه إلى الإرشاد أكثر. إذ التخوف من أن يقع في النفاق أو أن يتشبه بالمنافقين يدفعه دائمًا إلى الإخلاص"[٤٥].

٧-الشفقة

ومن قضايا الداعية نجاحه في مقاومة الكبر، والتواضعُ مع كل الناس والرفق.. وأول من يستحق ذلك رجال الدولة والأثرياء، لأن نفعهم

[٤٤] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣٥-١٣٦.

[٤٥] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣٦.

للإسلام أعم، وإذا أصلحهم الله بفضل جهود الداعية المخلص صلحت كل أحوال الأمة مع مراعاة الرفق واللين مع كل الناس خاصة الحكام والأغنياء، ثم أسرة الرجل وبينه امرأته وأولاده.. أما الوالدان فحقوقهما مقدمة على الجميع، لأن الأمر برعايتهما جاء بعد أمر الله بالتوحيد في كتاب الله. قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأَنْبِيَاء:١٠٧)، وقال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آلِ عِمْرَان:١٥٩).

وقد بلغ من شفقته ﷺ أنه كان يدعو لأعدائه قائلاً: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». ومن البدهي أن هذه الجهود توجب الاستعداد من الداعي للتضحية في سبيل الله ودعوته.

وقد تنازل صهيب الرومي عن أمواله وثروته بمكة كلها مقابل الالتحاق بالرسول الأعظم ﷺ بالمدينة.. بينما كانت زوجته في مكة المكرمة. وكذلك الأنصار الذين مدحهم الله في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الْحَشْر:٩).

يقول الأستاذ كولن في هذا الموضوع: "ربما يُدفع الناس بالقوة إلى إطاعة أمور معينة، إلا أنكم لن تدفعوا أحدًا إلى محبة الحقائق التي تريدون تبليغها. وفي الحقيقة ليس أمام الشفقة والرحمة باب مسدود لا يمكن فتحه. فجبال الثلج التي لا تذوّب بالشفقة والرحمة، لا يذوّبها شيء قطعًا. لذا إن كنتم تريدون ربط الناس بعضهم ببعض بمحبة دافئة، عليكم أن تطووهم تحت جناح الرحمة والشفقة أولاً. وما لم تعفوا عن تقصيرات

الناس وأخطائهم، وما لم تظهروا لهم الحقيقة ملفعة بالشفقة والحنان، لن تحلّوا حلاًّ جذريًّا أيّة مسألة من مسائل الناس الفردية والجماعية"[٤٦].

---

[٤٦] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٧٢.



النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية(٤٧)

ليست سيرة النبي ﷺ وفقه أحداثها والبصرُ بمراحل تطورها مجرد عملٍ من أعمال التاريخ وحسب، شأنها شأن سواها من سير العظماء والنابغين في الميادين المختلفة للعظمة والنبوغ، ولكنها فوق ذلك التطبيق الأمثل لحقائق الإسلام الكبرى والتمثيل الصحيح لمبادئه وقواعده المجردة، بحيث لا يستقيم لأحد من طلاب الحق والمعرفة أن يفهم الإسلام فهمًا راشدًا ويقف على مواطن عظمته دون الوقوف على سيرة نبي الإسلام وتأمل شخصيته واستكناه نواحي العظمة فيها، للتأكد من أن محمدًا ﷺ لم يكن مجرد عبقري فذ سمت به عبقريته بين قومه، ولكنه قبل ذلك رسول مؤيد بوحي من عند الله، ونبيّ كريم شاءت الحكمة الإلهية أن يكون خاتم النبيين، وأن تكون رسالته كلمة الله الأخيرة إلى خلقه.

وقارئ سيرته العطرة ﷺ واجدٌ فيها المثل الأعلى والأسوة الحسنة في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة، وفي كل ناحية من نواحيها؛ ذلك أن الله ﷻ جعله قدوة للإنسانية كلها إذ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأَحْزَاب:٢١)، وفي سيرته كذلك ما يعين المسلم على فهم كتاب الله وتذوق روحه والبصر بمقاصده؛ فمعلوم أن آيات كثيرة في

(٤٧) النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

القرآن الكريم إنما تجليها وتبين معناها أحداث السيرة العطرة، وما كان للنبي ﷺ إزاءها من مواقف وتصرفات. أما الدعاة والمعلمون فإن السيرة النبوية بالنسبة لهم نموذج حي للتربية الروحية السليمة والدعوة الراشدة التي أمر الله ﷻ أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة. لقد كان رسول الله ﷺ معلّمًا ناصحًا ومربيًا فاضلاً لم يأل جهدًا في تعليم أصحابه وتربيتهم بكل وسيلة ممكنة خلال مراحل دعوته وأطوارها المتعاقبة.

وبالجملة فقد كان النبي ﷺ النموذج الكامل؛ نبيّا بذل وسْعه في سبيل إبلاغ رسالته، ومؤسس دولة نجح في بنائها في مدة وجيزة لا تمثل في حساب الزمن شيئًا مذكورًا، ثم جعل يسوس أمورها بحذق بالغ وحكمة نادرة، وقائدًا حربيًا محنكًا، وزوجًا عظيمًا وأبًا حنونًا، لم تشغله الدعوة والعبادة عن إشاعة جوّ من السعادة والعاطفة النبيلة في محيط أسرته. وهو قبل ذلك كله نقل المؤمنين به من الشرك إلى الإيمان، ومن الركود إلى الحركة، ومن الفوضى إلى النظام، ومن المهانة الحيوانية إلى الكرامة الإنسانية.

وكان ﷺ في كل ميدان من تلك الميادين عظيمًا متفردًا، سمت به العظمة المتفردة لأن يكون قدوة للمقتدين في المناقب التي يرجو المخلصون من أصحاب الدعوات الإصلاحية أن تشيع في الناس وتكون ميزانًا لضبط سلوكهم.

وليست دراسة سيرة النبي ﷺ إلا إبرازًا لجوانب العظمة الإنسانية المكلوءة بالوحي في أوفى نموذج وأتم صورة.

فقد كتب في السيرة النبوية المسلم وغير المسلم، وفيهم المحب الغالي والمبغض القالي ممن نأى به بغضه للإسلام وحقده على نبيه عن

القصد والإنصاف، كما كتب فيها كثير من المنصفين من غير المسلمين؛ الذين أبدوا إعجابهم وعجبهم من سيرة النبي وعظمته، وكيف استطاع أن يقيم دولة الحق والعمل وكيف استطاع من رباهم أن يسودوا الدنيا، وأن يسموا بالإنسان، وأن يحققوا تقدمه في كل المجالات.

إن السيرة العطرة لسيدنا محمد ﷺ تمثل الركيزة الأساسية لحركة التاريخ الإسلامي الذي يعتز به المسلمون على اختلاف لغاتهم وأقطارهم، فهي المحور الذي تدور حوله حركة التدوين لتاريخ الإسلام، وهي العامل الذي أثر في أحداث الجزيرة العربية -مهد الإسلام- أولاً، ثم في أحداث سائر أقطار العالم الإسلامي ثانيًا.

وفي اعتقادنا أن ذلك الاهتمام بسيرة خاتم النبيين وإمام أولي العزم من الرسل سوف يمتد إلى قيام الساعة.

واتساقًا مع كل ما سبق؛ كتب أستاذنا محمد فتح الله كولن دراساته الموسوعية عن: "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" الذي خاطب فيه عموم المسلمين على اختلاف فئاتهم وتباين أنصبتهم من الفكر والثقافة، في إطار مهمته الأساسية التي نذر نفسه لها وهي الدعوة إلى الله ورد المسلمين إلى صحيح الإسلام وتحريضهم على التزام قواعده والاستمساك بسننه كما تمثلت في سيرة النبي ﷺ. ومن ثم فإن أستاذنا لم يجنح إلى البحث المستعصي في سيرة النبي الكريم، وترك بعض التفاصيل وسكت عن إيراد بعض الأحداث الجزئية.

وكانت الظروف تستوجب العناية بالسيرة النبوية، لتذكير الناس برسولهم، وللوقوف أمام فتنة الهجوم على السنة، ولرد الشباب إلى دينهم الحق، من خلال سيرة نبيهم وكفاحه وعظمته ﷺ.

ولهذا فإن أستاذنا كولن لا يتناول السيرة في إطار سرد الأحداث وذكر التواريخ كما أسلفنا، بل يتناولها من حيث ما فيها من فقه وحكمة ومقاصد وأسرار، وهو ما تعظم حاجة المسلمين إليه في حياتهم المعاصرة.

إن كولن يذكّر الناس بأن رسولنا الكريم محمدًا ﷺ؛ قد بعث والعالم كله ظلام دامس، ويسُوده مناخ من غياب للقيم وفقر في الخلق وكدر في الحياة، ومن ثم فإن الحاجة لفجر يسطع بنوره وسط هذا الظلام كانت ماسة وضرورية.

ويتحدث كولن عن مكانة النبي فيذكر ما كان عند حادثة شق صدره ﷺ وهو في بني سعد، عند مرضعته حليمة السعدية، حيث إن الرسول ﷺ "وزن بعشرة من أمّته فرجّحهم، ثم وزن بمائة فوزَنَهم، ثم وزن بألف من أمّته فوزنهم، فقال الملَك لصاحبه: "دعه عنك فلو وزنْته بأمّته لوزنها"[٤٨].

وسبحان الله الخالق الذي بعث رسوله محمدًا ﷺ هاديًا ومبشرًا ونذيرًا "لكي يشرح معنى الوجود، ومعنى الكون والكائنات. وكذلك يشرح لهذا الإنسان الذي سخرت له هذه السماء الواسعة والأرض والشمس والقمر والنجوم وكل الوجود.. ويشرح له من أين أتى وإلى أين هو كادح وإلى أي شيء هو مرشَّح؟"[٤٩].

ويبين شيخنا أن الرسول الهادي الأمين محمدًا صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين لم يأت غائبًا فجأة للوجود، ولم يكن أمر بعثته غائبًا عن الرسل والأنبياء؛ بل بشّر به جميع الأنبياء الذين سبقوا رسالته، وأكثر

---

(٤٨) الدارمي، المقدمة، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٨٤/٤؛ الشفاء للقاضي عياض، ١٧٣/١. (انظر: النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، ص:١٦).

(٤٩) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٦.

من ذلك أخذ الله عليهم ميثاقًا بالإيمان به ونصرته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(آلِ عِمْرَان:٨١).[٥٠]

ويؤكد كولن أن "جميع الأنبياء قد التزموا بهذا العهد الذي قطعوه لله سبحانه وتعالى، وعاشوا لتحقيقه، وكان نشاطهم منصبًا في هذا الاتجاه. وعندما عُرِجَ برسول الله ﷺ إلى السماء صلت أرواح هؤلاء الأنبياء وراءه فقد كان في مقدمتهم النبي إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، وكأنهم يريدون أن يكونوا مؤذنين عند رسول الله ﷺ"[٥١].

ولقد جاءت الإشارة والبشارة لسيدنا محمد رسول الله ﷺ عندما "يقول عيسى عليه السلام في الإنجيل: "إنني ذاهب لكي يأتي سيد الزمان"[٥٢]. فكان يلفت أنظار الإنسانية إلى هذا النبي العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم"[٥٣].

الفجر المرتقب

ليس هناك قيمة للنور إلا إذا أزاح الظلام وبعث الأمل وكشف الغمة وجلب الخير، وهذا ما تجلى في قيمة الفجر الذي ترقبه العالم سواء كان يدري أو لا يدري، وعلى حد تعبير المؤلف "لقد ساد الظلام الدامس الدنيا قاطبة، إلا أنه حمل في طياته آمال النور، بل النور المرتقب. والبشرى الآتية التي تحمل مجيء رسول الله وملأت أنباء البشرى دروب مكة،

---

[٥٠] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٨.

[٥١] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٨.

[٥٢] يوحنا، الباب:١٦، الآية:٨.

[٥٣] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٨.

وتحدث الأهل والسكان عنها"(٥٤).

وهنا يجول بخواطر الأمهات والآباء آمال ورجاء أن يكون هذا النبي المرتقب بنوره ونبوته من نسلهم، ولذا سمّى الكثير منهم أبناءهم بـ"محمد".

الكل يرتقب ويأمل، وبخاصة وأن التوقعات لا تشير إلى قرب القدوم ودنو المجيء فحسب، ولكن تؤكد ظهور النور.. فحلكة الظلام تؤذن بقدوم الفجر.(٥٥) وأي فجر هذا.. إنه فجر لم تعرف الإنسانية أفضل منه.

هذا الظلام الدامس الذي أحاط بالإنسانية وأثّر فيها فسادًا في الشعور وضلالاً في الفكر والاعتقاد وظلمًا في أصول الاجتماع عرف بعهد الجاهلية، ويستشهد "كولن" بالقرآن الكريم الذي يشير إلى ضيق الحياة وانعدام الهدف في ذلك الوقت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(النُّور:٣٩). وليست الحياة فقط هي التي انعدمت قيمتها وهدفها ولكن الأفكار والمشاعر والتصرفات كانت أكثر إظلامًا، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(النُّور:٤٠)، ومن ثم استحق هذا الوقت أن يطلق عليه "عهد الجاهلية"، وكانت بعثة النبي ﷺ أكبر نعمة من الله جلت قدرته، وأفضل إحسان، ولنقرأ في كتاب الله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ

(٥٤) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٥ (بتصرف).

(٥٥) انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٥.

أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آلِ عِمْرَان:١٦٤)، ومن فضل الله على العرب أن نبيّه ﷺ نشأ بين هؤلاء الناس، فهو يعلم جيدًا قسوة الظلام والإظلام، ذلك أنه جاء من بين قومه ويحس بما يحسون وإن جاء مرشدًا وهاديًا إلى الطريق الموصل لله سبحانه وتعالى.[٥٦]

ويواصل "كولن" حديثه عن النبي القدوة فيقول: "فإن احتاجوا إلى إمام تقدمهم وأصبح لهم إماما، وإن احتاجوا إلى خطيب اعتلى المنبر فكان خطيبًا مفوّها، وإن احتاجوا إلى أمير كان لهم أميرًا يرسل الرسائل للملوك ويختم المعاهدات، وإن احتاجوا إلى قائد تقدم صفوفهم في الحرب، وأصبح لهم قائدًا أفضل من جميع القواد المتمرسين"[٥٧].

ولا ينسى فتح الله كولن أن يبين أن الله قد حفظ نبيه، وأنه أعدّه ليكون جديرًا بحمل الرسالة الخاتمة؛ فهو -النبي- وإن كان نشأ في قوم ضالين جاهلين، إلا أنه ﷺ كان بعيدًا كل البعد عن صفات الجاهلية، ونأى بحياته الخاصة عنها تمامًا، ولم يعش الرسول الكريم حياة جاهلية قط، فلقد كان أمينًا يعرفه الجميع بهذه الصفة، وكان صادقًا فهو الصادق، وكان ﷺ يعرف ذلك من نفسه حتى إنه حين أمر بأن يجهر بالدعوة صعد الصفا وقال: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟" قالوا: "ما جربنا عليك كذبًا"[٥٨].[٥٩]

---

[٥٦] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٥.

[٥٧] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٦.

[٥٨] البخاري، تفسير سورة (١١١) ١-٣؛ مسلم، الإيمان ٣٥٥.

[٥٩] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣١-٣٢.

وقد جاء الرسول الكريم إلى الدنيا من أب اسمه "عبد الله" وأم اسمها "آمنة". هذه الأسماء تقدير إلهي من الله وتحمل معاني؛ لو تأملناها، لوجدنا أنه ﷺ أتى من أم اسمها يحمل معنى الأمن والأمانة، والأب يحمل اسمه معنى العبودية لله تعالى، فتلك لبنات من التهيئة الربانية، والإعداد الإلهي.(٦٠)

ولقد نشأ نبينا -كما هو معلوم- يتيمًا، "فقد أباه وهو في بطن أمه، وفقد أمه في سن السادسة من عمره، فكفله جده عبد المطلب، وما إن بلغ الثامنة من عمره حتى توفي الجد، وكأن الله أراد أن يهيئه لتسليم أمره كله له سبحانه تعالى، فكل من مدّ يده إليه أو أخذه في حمايته كان سرعان ما يرحل"(٦١).. فكأن هذا كله كان يدفع الصبي الصغير اليتيم -كما يقول كولن- إلى أن يشعر ويحس بكلمة التوحيد وبجملة "حسبي الله" وذلك في أعماق وجدانه... وينطق بها، ولا شك أن القائد والمعلم الذي يمر بمثل هذه الأيام الصعبة، يعرف جيدًا كيف يكون أبًا رحيمًا على أمته، عطوفًا عليها... فقد ذاق طعم الفقر لكي يشعر بمعاناة الذين يقوم بإدارة أمورهم وتصريف شئونهم. ولقد علّمه الله وربّاه وأرشده لما يصنع، ولنا في كتاب الله عظيم البيان ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(الضُّحى:٦-١١).(٦٢)

وهكذا جاء الرسول الكريم ﷺ هداية للعالمين، الذي أدّبه هو ربه

(٦٠) انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٢.

(٦١) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٢.

(٦٢) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٢-٣٣ (بتصرف).

وأضاء به الكون، فكان ﷺ دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام وبشرى سيدنا عيسى عليه السلام، وصدق الله العظيم إذ يقول في دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البَقَرة:١٢٩). ويقول سبحانه وتعالى في بشرى عيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(الصَّف:٦). وصدق نبينا العظيم عندما سأله أحد الصحابة: سأله أحد الصحابة يومًا: ما كان بدءُ أمرك؟ فقال: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم»[٦٣].[٦٤]

* * *

إنَّ فتح الله كولن يذكر أن أكبر دليل على نبوة محمد بن عبد الله ﷺ وهو القرآن الكريم الذي يُعد معجزة خالدة أبد الدهر، والذي تناول مئات الآيات التي تدل وتبرهن على نبوة فخر العالمين، وهو يذكر أن اليهود والنصارى كانوا يدركون ويعلمون جيدًا أن محمدًا ﷺ رسول الله وأنه النبي المرتقب الذي بشرت به التوراة ثم الإنجيل، إلا أن موجات الحقد والحسد كانت تمنعهم من الإيمان به، وتحول بينهم وبين اتّباعه،[٦٥] وصدق الله العظيم الذي يقول في قرآنه المحكم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(البَقَرة:١٤٦). وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ

---

[٦٣] كنز العمال للهندي، ٣٨٤/١١.

[٦٤] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٥.

[٦٥] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٦.

قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(البَقَرَة:٨٩). إن هذه الآية تشير -كما هو معلوم- إلى ما كان بين اليهود والمشركين في المدينة من مشاحنات اشتد أوارها قبل الإسلام، حيث كان اليهود يفخرون على العرب بأنهم أهل كتاب وينعون عليهم عبادة الأوثان، فإذا اشتد الجدل وطالت الخصومة قال لهم اليهود: إن الله يوشك أن يبعث نبيًّا فنتبعه ثم نقتلكم قتل عادٍ وإرم. فكان اليهود أول من كفر برسول الله ﷺ يوم ظهر، أما العرب الأمّيون الذين هددوا به فآمنوا به واتبعوه وألحوا في الانتصار له والمنافحة عنه، حتى عرفوا بالأنصار.

من صفات الأنبياء

إن الحديث عن صفات رسول الله ﷺ وإن أنست له القلوب وشغفت النفوس، إلا أنه مسلمة من المسلمات لا يحتاج لإثبات أو برهان، وإن تنوع وتعدد، ويمكن الانتقال من صفة إلى أخرى وكأننا ننتقل من أريج إلى ضياء ونور، ورحيق مختوم فيه شفاء للقلوب، وذلك كله عندما نعرض لصفات رسولنا الكريم ﷺ.

١-الأمانة

قد قام كولن بالحديث عن صفات النبي ﷺ،(٦٦) وهو يرى أن أمانة(٦٧) رسول الله ﷺ ليست مثلاً يحتذى أو قيمة يُقترب منها فحسب، ولكنها عالم بأكمله وحالة لدراسة أبلغ مثال لمفهوم الأمانة.

(٦٦) انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٧٥-٦٠٣.

(٦٧) انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٢٤-١٣٧.

وقد ذهب الأستاذ كولن إلى "أن لفظ "الأمانة" مشتق من "الإيمان"، فالمؤمن هو ذلك الشخص الذي يحمل صفة الإيمان، ويعطي انطباعًا بالأمن، وكما أن الأنبياء في ذروة الإيمان، فهم أيضًا في ذروة الأمانة، والقرآن الكريم يشير إلى صفتهم هذه في عديد من الآيات منها: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ﴾(الشُّعَرَاء:١٠٥-١٠٨).. ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشُّعَرَاء:١٢٣-١٢٥)"[٦٨].

ومن المعروف "أن اسم المؤمن" من أسماء الله الحسنى، لذا فهو مصدر للثقة والاطمئنان، وهو الذي زين الأنبياء بصفة الأمن والأمان والأمانة.[٦٩]

وإذا كانت "الأمانة من صفات الأنبياء والمرسلين ومن أهم صفات نبيّنا المصطفى محمد ﷺ، فهي أيضًا من أهم صفات جبريل عليه السلام حيث يصفه القرآن الكريم بأنه: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(التَّكْوير:٢١)"[٧٠]. وإنه ليكفي لكي ندرك عظمة صفة الأمين أن أمين الوحي جبريل قال يومًا لرسول الله ﷺ: "كنت أخشى العاقبة، فأمنت لثناء الله عز وجل عليّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(التَّكْوير:٢٠-٢١)"[٧١].[٧٢]

ولقد كان رسول الله ﷺ أمينًا في تبليغ الرسالة، و"كولن" يؤكد ويقرر

---

[٦٨] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٢٤.

[٦٩] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٢٤.

[٧٠] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٢٤.

[٧١] الشفا للقاضي عياض، ١/١٧.

[٧٢] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٢٥.

أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه عاش حياته كلها مثقلاً بالأمانة، عظيم الشعور والإدراك بخطورة المسؤولية التي ألقيت على كاهله، ويجتهد بكل ما وسعه من إخلاص وتفان أن يكون أمينًا لها.[٧٣]

ولعل حجة الوداع تذكرنا بما كان الرسول الكريم فيه من حال، حيث أحس بدنو الرحيل، فيقول لأصحابه وهو يتذكر هذه الأمانة الكبيرة «ألا هل بلغت؟» فقال الحاضرون:نعم، فقال: «اللهم اشهد»[٧٤]. وهكذا "جاء حفظ الأمانة بداية من عند الله سبحانه وتعالى ومارّا بجبريل عليه السلام ومستقرًا عند رسول الله ﷺ، ثم ساريًا منه إلى أمته"[٧٥].

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن أمانة النبي الكريم ﷺ أن نذكر رواية عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ قالت: "لو كان محمد ﷺ كاتمًا شيئًا مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾(الأَحْزَاب:٣٧).[٧٦]

٢-الصدق

ورسول الله عاش حياته صادقًا أمينًا، وهو يوصي أمته بأن يكونوا صادقين لأن في الصدق الخير كله، ولنسمعه الآن عليه السلام يقول: «اضمنوا

---

[٧٣] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٢٥-١٢٦.

[٧٤] البخاري، الحج ١٣٢، المغازي ٧٧؛ مسلم، الحج ١٤٧؛ أبو داود، المناسك ٥٦؛ ابن ماجه، المناسك ٧٦، ٨٤..

[٧٥] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٢٦.

[٧٦] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٢٦.

لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: أصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»[٧٧].[٧٨]

ولقد كانت أقوال الرسول الكريم علامة من علامات صدقه، وهذا واضح في الحديث السابق، فما أوصى به ﷺ كله يدخل ضمن دائرة مكارم الأخلاق التي لا يحافظ عليها إلا من أراد الله كرامته.

وليس من قبيل المبالغة أن نقول: إن "هناك ما يقارب من ثلاثمائة معجزة نبوية مذكورة في كتب الأحاديث المعتمدة، وقد تحقق القسم الأعظم من الأخبار الغيبية التي أخبرها النبي ﷺ ومن أهمها: الأخبار الغيبية المتعلقة بعهده ﷺ، والأخبار المتعلقة بالمستقبل القريب أو البعيد، والحقائق التي أوضحها ببيانه السهل الممتنع والتي لم يعرف معناها إلا بعد تقدم العلوم"[٧٩].

وإضافة إلى تلك الصفات التي وهبها الله لرسوله الكريم تأتي دعوة أمته إلى الأمن. ويأتي أيضًا توكله على الله بلا حدود، و"قد علمه الله تعالى أن يقول: "حسبي الله"، وبذلك قضى حياته مطمئنًّا معتمدًا على الله، واثقًا به ومتوكلاً عليه"[٨٠].. "فعندما هاجر ﷺ كان بيته محاطًا من جميع جوانبه بأناس مصمّمين على قتله أشد تصميم، فتلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾(يس:٩)، وقد نثر

---

(٧٧) المسند للإمام أحمد، ٣٢٣/٥.

(٧٨) انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٦.

(٧٩) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٨٨.

(٨٠) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٢.

صلوات الله وسلامه عليه ملء كفه ترابًا ثم خرج من بينهم بكل اطمئنان ودون أن يبدي أي قلق"[٨١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التوكل على الله لم يكن قولاً بلا عمل، ولكن كان العمل أسبق ابتغاء وجهه الكريم، فعندما "توجه صلوات الله وسلامه نحو غار ثور، هذا الغار الموجود على قمة جبل يصعب ارتقاؤه حتى على الشباب، ولكنه ارتقى صلوات الله وسلامه عليه ذروة الجبل وهو في الثالثة والخمسين من عمره"[٨٢]، وهذا هو التوكل المقرون بالعمل والجهد والمشقة ابتغاء مرضاة الله.. ومع ذلك كان يعلم أن الله هو الذي يحفظه، وقد قال لأبي بكر حينما خشي أن يعثر عليهما المشركون وهما في الغار «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[٨٣].

إن ثقة النبي بربّه وتوكله عليه قد لفتت أنظار الجميع، حتى غير المسلمين؛ يقول جورج برنارد شو: "إن محمدًا شخص له جوانب سامية متعددة ومذهلة، وليس في الإمكان فهم هذا الإنسان اللغز حق الفهم، ولاسيما فهم أحد جوانبه وهو ثقته المطلقة بالله، فهذا سر لا يمكن فهمه"[٨٤].

٣-التبليغ

ويستمر "فتح الله كولن" في الحديث عن صفات النبي محمد ﷺ،

---

[٨١] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٣. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام، ١٢٧/٢.

[٨٢] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٣.

[٨٣] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٣. وانظر: البخاري، تفسير سورة (٩) ٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤/١.

[٨٤] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٤.

ومن بين صفاته العظيمة -وهي من صفات الرسل- مسألة التبليغ، أي تبليغ الرسالة. ولقد علمنا الرسول الكريم أن هذا الأمر ارتكز على قواعد ثلاثة[٨٥] وهي:

١-النظرة الشمولية باعتبار الرسالة شاملة جامعة عامة،

٢-وعدم انتظار الأجر، وهي مهمة وشعار الأنبياء وفي مقدمتهم سيدنا محمد رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ﴾(يونس:٧٢)،

٣-وثالث هذه القواعد: ترك النتائج لله سبحانه وتعالى، فهو وحده المتكفل بنجاح المهمة وبتحقيق النتائج.

ولقد تميز رسولنا الكريم بصفات هامة في تبليغ دعوته لعل من أهمها: الفطنة في الدعوة والتبليغ، ويطلقون عليها "منطق النبوة" وكذلك التمثيل الجيد للدعوة، وذلك بأن يعيش صاحب الدعوة، دعوته في جميع مظاهر حياته، ويطبق ما يدعو إليه على نفسه وأن يكون -رضا الله تعالى- هو النتيجة المبتغاة من الدعوة، وليس أي شيء آخر من حظوظ النفس.[٨٦]

لقد "كان الرسول ﷺ حريصًا كلّ الحرص على دعوة الناس لدين الله،إذ كان لا يريد أن يبقى شخص واحد لم تصله الدعوة، لذا كان يلحّ في تبليغ الناس وفي دعوتهم بالأسلوب الصحيح والمناسب"[٨٧].

٤-العصمة

إن فتح الله كولن يشرح باستفاضة معنى "العصمة" لغة واصطلاحًا

---

[٨٥] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣٩.

[٨٦] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٤٤.

[٨٧] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٥٤-١٥٥.

ويذهب إلى أن "من صفات الأنبياء أنهم معصومون وأطهار من الذنوب، ونحن نطلق على هذه الصفة العصمة. والعصمة لغة: المنع والحفظ؛ واصطلاحًا: حفظ الله تعالى أنبياءه من الذنوب كبيرها وصغيرها، أي أن الله تعالى لا يعطي للنبي فرصة اقتراف الذنب إذ يحفظه من ذلك، ولقد أورد القرآن الكريم العديد من الآيات في العصمة، فمثلاً قول نوح عليه السلام لابنه ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا﴾(هود:٤٣) فأجابه ابنه قائلاً: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾(هود:٤٣)، فكلمة "يعصمني" الواردة في هذه الآية تأتي من فعل "عصم" ومعناه "حفظ"، وأجاب نوح عليه السلام ابنه بجواب جاءت فيه كلمة من نفس الاشتقاق إذ قال:﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾(هود:٤٣)، وسواء أجاءت كلمة "عاصم" بنفس معناها أم بمعنى معصوم فالأمر لا يختلف كثيرًا، إذ هناك "عاصم"، وهناك "معصوم"، والمعنى يدور حول العصمة. وعندما شرحت "زليخا" عفّة يوسف عليه السلام قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾(يوسف:٣٢)، أي امتنع وصان نفسه ولم يقرب الفاحشة"(٨٨).

ويستطرد كولن شارحًا لحقيقة جلية وهي أن "كل الأنبياء معصومون، فلن تجد في حياة أي منهم أي انحراف مقصود"(٨٩)، والحقيقة أن عصمة الأنبياء لا تشكيك فيها، وهناك الأدلة الواضحة على عصمتهم، ونحن نقرأ في كتاب الله ما يوضح ذلك، وفتح الله كولن يقول: "يقول الله تعالى ممتنًا على موسى عليه السلام ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾(طه:٣٩)، ويُفهم من الآية أن الله سبحانه وتعالى لم يدع تربية موسى في قصر فرعون لا إلى فرعون ولا إلى أمّه، بل ربّاه هو جل جلاله، فكيف لا يكون هذا النبي الكريم معصومًا

---

(٨٨) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥١٩.

(٨٩) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥١٩.

وهو منذ طفولته في رعاية الله وعنايته وتربيته؟! ويقول رسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها»[٩٠]، فإذا كان الله سبحانه وتعالى حفظ عيسى وأمّه عليهما السلام من الشيطان منذ ولادته، فكيف لا يكون ﷺ معصومًا من الذنب؟! وعندما كان الرسول المصطفى ﷺ صبيًّا وذهب مرتين ليحضر حفل عرس، ألقى الله تعالى عليه النعاس فنام في المرّتين،[٩١] فحفظه الله تعالى من رؤية منظر قد يكون حرامًا، إذن فقد كان صلوات الله وسلامه عليه مصانًا على الدوام مع أنه لم يكن قد بعث بعد نبيًا"[٩٢]، ولا غرو في ذلك فإن القرآن الكريم يصفهم بـ ﴿الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾.

وإن كان "كل الأنبياء في عصمة من الله سبحانه وتعالى، فإن سيد الأنبياء أسمى حتى في العصمة، فهو غاية الخلق، وأحب الخلق لله سبحانه وتعالى.. فكل نبيّ مرسل لفترةٍ من الزمن ولمكانٍ معين ولقومٍ بذاتهم، بينما سيدي رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ أُرسل إلى الناس كافة حتى قيام الساعة"[٩٣]. نعم، "إن قيل: إنّ كل نبي كان نجمًا مضيئًا، فإن رسول الله ﷺ كان شمسًا ساطعة اختفت أضواء جميع النجوم أمام ضيائها"، ويستشهد كولن بقول البوصيري في بردته الشهيرة:[٩٤]

---

[٩٠] البخاري، الأنبياء ٤٤؛ مسلم، فضائل ١٤٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٨٨/٢.

[٩١] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٥٠/٢-٣٥١.

[٩٢] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥٢٣-٥٢٤.

[٩٣] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥٦١.

[٩٤] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥٦١.

فإنه شمس فضل هم كواكبهاُ   يُظهرن أنوارها للناس في الظُّلَمُ

وشيخنا يقول ويؤكد أن عصمة الرسول المصطفى ﷺ انعكست في حياته وتمثلت في عديد من الأمور، "فكان رسولنا صلوات الله وسلامه عليه أزْهد الزّاهدين، فالخوف من الله تعالى والخشية منه كان بالغًا عنده أقصاه حتى ليكاد قلبه أن يقف من هذه الخشية والرهبة، وكان الرسول الكريم يملك قلبًا حساسًا إلى درجة أن دمعه كان على الدوام جاريًا على خده"[٩٥].

كان رسولنا الكريم مؤمنًا بأنه "جاء إلى الدنيا لمهمة معينة، بفكرة وإحساس ينفثان الحياة في الناس، وعندما انتهت مهمّتُه غادر الدنيا"[٩٦]، وعاش كما ذكرنا آنفًا زاهدًا، ولعل حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يوضّح جزءًا من هذا الأمر لا مراء فيه: «ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٩٧].

كانت نظرته ﷺ للآخرة نظرة صدق، فكان أسوة حسنة من خلال تلك النظرة لأمته، والتي كانت تعد انعكاسًا للنظرة الإلهية له، وهنا يورد كولن ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: "قال لي رسول الله ﷺ: «اقْرأْ عليّ القرآن» فقلتُ: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، فقرأتُ النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾(النِّسَاء:٤١)، رفعتُ رأسي، فرأيتُ دموعه ﷺ تسيل"[٩٨].

---

(٩٥) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥٨٧.

(٩٦) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٥٨٨.

(٩٧) الترمذي، الزهد ٤٤؛ ابن ماجه، الزهد ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠١/١.

(٩٨) البخاري، تفسير سورة (٤) ٩؛ مسلم، صلاة المسافرين ٢٤٧-٢٤٨؛ وانظر: النور الخالد،

٥-الفطنة

وتبقى صفات كثيرة وملامح أكثر لرسولنا الكريم، منها تلك الفطنة الرائعة الصافية التي عُرف بها النبي ﷺ، والتي تبدت في موقفه من تعمير الكعبة قبل الرسالة، وجهوده في الدعوة التي أسلم من خلالها أعظم المشركين عنادًا وأشدهم جحودًا، وفطنته ﷺ عندما يتحدث إلى البدو الذين يعيشون في الصحراء، وفطنته ﷺ في خطابه للأنصار في حنين، وفطنته ﷺ في استخدامه لما أوتيه، فقد أوتي رسول الله جوامع الكلم.(٩٩)

ولقد "كان الرسول الكريم يدرك أهمية ما خصّه الله به من ألطاف ونعم إدراكًا واعيًا، فكان لا يرى بأسًا من إعلانها تحديثًا بنعمة الله عليه، ويتجلى ذلك في قوله صلوات الله وسلامه عليه "أنا محمد النبي الأمّي، أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه"(١٠٠). وقال "إنما بعثت فاتحًا وخاتمًا وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه"(١٠١)، وكان ببيانه الذي يشع نورًا وضياءً يعلن أنه سيّد خطباء الأولين والآخرين"(١٠٢).

ويستمر فتح الله كولن في بيان عظمة النبي محمد ﷺ فيقول: "إن روح النبي ﷺ كانت مغلقة وقلبه موصدًا تُجاه جميع المفاسد والشرور، ومفتوحين لكل خير حتى أصغره وأدقّه، فعاش حياته للخير وفي جو من الأمن والطمأنينة، واطمأنّت الإنسانية إليه، ووثقت به، وخاب وخسر

فتح الله كولن، ص:٥٩٠.

(٩٩) انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٧١-١٨٢.

(١٠٠) المسند للإمام أحمد، ٢/٢٥٠، ٤١٢؛ كنز العمال للهندي، ٤١٢/١١.

(١٠١) البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦؛ وانظر: كنز العمال للهندي، ٤٢٥/١١.

(١٠٢) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٨٢.

الذين ناصبوه العداء وأداروا له ظهورهم، أما هو فقد بسط جناح الرحمة على أمّته ولبّى طلب كل من دقّ بابه"[١٠٣].

"ومجمل القول أن كثيرًا من الكتب وضعت في شمائل رسول الله ﷺ بدءًا من أوصاف بدنه ووصولاً إلى أخلاقه وإلى عالمه الروحي العميق، فقد كان إنسانًا كاملاً في كل شيء، وهنا يقول الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يصف الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: "كان رسول الله أجود الناس كفًا، وكان أشرح الناس صدرًا، وكان أصدق الناس لهجة، وكان ألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة.. مَن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه"[١٠٤]"[١٠٥].

النبي ﷺ مربّيًا

وعن جهود النبي التربوية يقول: "إن أفضل ممثل لصفة "الرب" لله تعالى هو سيدنا محمد ﷺ، أي هو أفضل من يمثل هذا الاسم من الأسماء الحسنى، حتى بين سائر الأنبياء؛ لأنه كان صاحب فطرة متميزة كما أن الصحابة الذين تلقوا التربية منه، كانوا أفضل الناس بعد الأنبياء.. وهل هناك شك في أن تنشئة نماذج من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم، أمر لا أقول إنه مستحيل بل ليس في الإمكان، وهناك غير هؤلاء الأفاضل من صحابة رسول الله الذين تربّوا في نفس بيئة ومناخ التربية النبوية، فكانوا كالدرر المنثورة في العصور التي جاءت

(١٠٣) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:١٣١.

(١٠٤) الشمائل للترمذي، ٢٧٦-٢٧٨؛ الترمذي، المناقب ٨؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٢١/١.

(١٠٥) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٨٤.

بعده وأصبحوا مدار فخر للإنسانية، ومن ثم لا غضاضة من أن نقول: إنه من الصعب مجيء أمثالهم أو تربية أناس في مستواهم، فهم علماء أفاضل تلقّوا دروسهم من رسول الله ﷺ، ونشأوا على نظم تربيته"[١٠٦].

ودون لجاجة في الفكر أو الرأي "فإن الانتساب لرسول الله ﷺ وحده هو الذي يستطيع أن يعطي هذه الثمار اليانعة وهو عطاء مستمر إلى يوم القيامة"[١٠٧].

وقبل الحديث عن أصول التربية العامة للرسول الكريم فإنه من المناسب إلقاء الضوء على رسولنا ﷺ رئيسًا للعائلة، فقد كان له زوجات وأولاد وأحفاد.[١٠٨]

إن "هذه العائلة التي تنتسب لسيدنا محمد ﷺ لهي أفضل وأسعد عائلة في تاريخ البشرية كلها، ولا يتعارض مع ذلك أنها كانت من أفقر العائلات من ناحية القدرة المادية، فقد كانت الشهور تمر دون أن يوقد في البيت موقد لطعام،[١٠٩] أما الأماكن المخصصة لزوجات الرسول رضي الله عنهن غرفة صغيرة لكل منهن، ومع ذلك كانت زوجاته المحظوظات لا يعدلن الساعة الواحدة التي يقضينها مع الرسول ﷺ بالدنيا وما فيها.. كن محظوظات ومطمئنات وسعيدات"[١١٠].

"ولقد مات أبناء النبي كلهم في حياته ما عدا فاطمة، وبعد وفات النبي

---

[١٠٦] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٨٨ (بتصرف).

[١٠٧] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٨٨.

[١٠٨] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٨٩.

[١٠٩] البخاري، الهبة ١، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ٢٨.

[١١٠] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٨٩ (بتصرف يسير).

ذرفت فاطمة رضي الله عنها دموعًا ساخنة لأيام طوال، ثم ماتت بعد ستة أشهر، وهي تحس بالسعادة لأنها ستلاقي ربها، وستجد عنده أباها ونبيها محمد ﷺ، وحقيقة لم يحب أي ولد أباه مثل حب فاطمة لأبيها كما أنه لم يحب والد ولده مثل حب رسول الله لابنته فاطمة"[١١١].

وكذلك لم تحب قط امرأة زوجها مثلما أحبّت زوجات الرسول ﷺ رسول الله ﷺ. ولقد كان فراق رسول الله ﷺ يمثّل لديهن مصيبة أمرَّ وأقدح من الموت، وكان هذا شعورًا مشتركًا بينهن، ذلك أن النبي ﷺ، احتل في قلوبهن محلاً وموضعًا لا يمكن تعويضه أو تبديله أبدًا، ولقد كان إحساسهن أنهن لو افترقن عنه لأصبحن مثل إنسان محروم من الهواء يكاد يختنق. فقد كانت كل واحدة منهن ترى أنها أقرب لقلبه، وكان هذا نابعًا من مروءته التي لا مثيل لها، فقد كان الرسول ﷺ يجالس نساءه وأحيانًا يتذاكر معهن بعض المسائل وإن لم يكن في الحقيقة في حاجة إلى آرائهن ذلك أنه كان مؤيدًا بالوحي، ولكنه كان يريد أن يعلّم أمّته أمرًا، وهو رفع مكانة المرأة، خلافًا لما كانت عليه سابقًا، ولا شك أن الشورى والمشورة طبقت في بادئ الأمر في بيت رسول الله ﷺ إذ كان يستشير زوجاته.[١١٢]

وفتح الله كولن يقول ويؤكد: "أن قضية المرأة إن كانت قد حققت ما تصبو إليه في تاريخ الإنسانية، فقد حققته في العهد النبوي"[١١٣].

صفة الأبوّة لدى النبي ﷺ

لقد "كان الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، يعامل أولاده

[١١١] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٨٩ (بتصرف).

[١١٢] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٨٩-٢٩٠.

[١١٣] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٩٦.

وأحفاده بفيض دافق من الحنان، ومع هذا كان يوجه أنظارهم إلى الآخرة وإلى معالي الأمور"[١١٤]، وكان "يحذّر من الوقوع في الإفراط أو التفريط، بل يختار الطريق الوسط ويمثل الصراط المستقيم"[١١٥].

"ويروي مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنين: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»[١١٦]"[١١٧].

فقد كان صلوات الله وسلامه عليه "يتصرف بشفقة ورحمة وبعاطفة حقيقية نابعة من صميم قلبه، وحقيقة الأمر أن حنان الرسول ورحمته وعواطفه، لم يكن بوسع أحد أن يمتلك منها الكثير لقد كان رئيسًا للعائلة وأبًا رحيمًا"[١١٨].

لقد توفي أولاد الرسول الكريم في حياته، وكان آخرهم إبراهيم الذي احتضنه الرسول في وفاته وقد ملأت الدموع عينيه، ثم قال وهو ينظر إلى المستغربين لحزنه: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون». وفي حديث آخر: «إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا»[١١٩] وأشار إلى لسانه.[١٢٠]

ولنا أيضًا في حنانه وحنوه على الحسن والحسين رضي الله عنهما

---

[١١٤] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠١.

[١١٥] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠١.

[١١٦] مسلم، الفضائل ٦٣؛ المسند للإمام أحمد، ١١٢/٣.

[١١٧] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠١.

[١١٨] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠١ (بتصرف).

[١١٩] البخاري، الجنائز ٤٤، ٤٥؛ مسلم، الفضائل ٦٢، ٦٣، الجنائز ١٢؛ ابن ماجه، الجنائز ٥٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٣/٣؛ أبو داود، الجنائز ٢٤.

[١٢٠] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠١-٣٠٢.

عبرة، فقد "كان الحسن والحسين رضي الله عنهما يركبان على ظهر المصطفى ﷺ، ويطوف بهما"[١٢١]. ويذكر الأستاذ واقعة[١٢٢] تدل على مدى ما كان يعامل به النبي أبناءه، ففي أحد الأيام وبينما كان الحسن والحسين رضي الله عنهما على ظهره دخل عليه عمر بن الخطاب ﷺ فقال لهما: "نعم الفرس تحتكما"، فقال الرسول ﷺ: «نعم الفارسان هما»[١٢٣].

نعم، "لقد كان الرسول الكريم ﷺ يحب أولاده وأحفاده حبًّا جمًّا، كان يشعرهم بهذا الحب ولكنه أيضًا لم يكن يسمح بأي استخدام سيء لهذه المشاعر"[١٢٤]. "فمثلاً مد الحسن ﷺ وهو طفل صغير يده إلى تمر صدقة، فأسرع الرسول ﷺ وانتزع تلك التمرة من فيه قائلاً له: «أما علمتّ أن الصدقة لا تحلّ لآل محمد»[١٢٥]"[١٢٦].

والجدير بالذكر "أن النبي كان يعامل أحفاده كلهم -ذكورًا وإناثًا- معاملة واحدة، فكثيرًا ما شوهد وهو يخرج من البيت وعلى كتفه حفيدته أمامة، وكان يحملها على ظهره وهو في صلاة النافلة، فإذا ركع وضعها على الأرض وإذا قام رفعها.[١٢٧] وكان هذا الحب في مجتمع كان الناس فيه حتى عهد قريب يَئِدون البنات، وكان هذا التصرف من الرسول الكريم

---

[١٢١] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠٢.

[١٢٢] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠٢.

[١٢٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٨٢/٩.

[١٢٤] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠٢.

[١٢٥] البخاري، الزكاة ٥٧؛ مسلم، الزكاة ١٦١؛ المسند للإمام أحمد، ٢٧٩/٢.

[١٢٦] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠٣.

[١٢٧] البخاري، الأدب ١٨؛ مسلم، المساجد ٤١-٤٣.

تصرفًا جديدًا غير مسبوق عندهم"[١٢٨].

صفة تربية الرسول ﷺ للناس وأسلوب تربيته

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن تربية رسول الله ﷺ لم تقتصر على تزكية النفوس، فقد أتى بنظام شامل للتربية يخاطب العقل ويحضه ويشوّقه، ثم يتناول الروح ليسمو بها إلى مراتب أعلى، ويأخذ بالقلب إلى العوالم التي يشتاق إليها ويهفو.[١٢٩]

أجل، "لقد جاء الرسول الكريم ﷺ برسالة شاملة ضمّت الاقتصاد والمال والإدارة والتعليم والتربية وفيها أحكام العدل والقوانين الدولية وغيرها الكثير"[١٣٠].

وإجمالاً فإن أستاذنا فتح الله كولن يقول: "إن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أتى برسالة تحتضن كل ضرورات التقدم، ذلك لأنه لو كان هناك أي نقص في أي ناحية من نواحي رسالته لما تحققت الغاية من إرساله، بينما يقول النبي ﷺ في حديث له: «إنّ مثَلي ومثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[١٣١]. وفي هذا المعنى العظيم يقول القرآن الكريم: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

---

[١٢٨] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٠٣.

[١٢٩] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣١١-٣١٢.

[١٣٠] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣١٢.

[١٣١] البخاري، المناقب ١٨؛ مسلم، الفضائل ٢٠-٢٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٥٧، ٣٩٨.

الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(الْمَائِدَة:٣) أي أن جميع الأنبياء والأصفياء والأولياء كانوا يقولون: متى يتمّ البنيان؟ فأنا أرسلتك نبيًا كاملاً لتكملة هذا البنيان.. ولقد قام ﷺ بمهمة التتمة والتكملة وبمهمة الإصلاح والبلوغ إلى الكمال.. وكان عليه تعديل كل عوج، وإصلاح كل نقص، وتكملة كل قصور"(١٣٢).

ولقد أنجز الكثير فسمي بالروح والنفس والعقل، وكانت دعوته عالمية وفي إطار من الحركة والعمل والنشاط في كافة مناحي الحياة، والدعوة إلى الأخذ بأسباب العلم والاجتهاد، وفوق ذلك الجهاد من أجل إعلاء كلمات الله التامات.

النبي العسكري

ويرى فتح الله كولن أن هناك جوانب في شخصية رسول الله الكريم تتعلق بالجهاد؛ ذلك الذي "سد الله سبحانه وتعالى أبوابه المادية لبعض الوقت أمام الرسول الكريم، وكان ذلك تمشيًا مع طبيعة الأشياء ولأن لكل شيء وقته المرهون به، واستمر ذلك لسنوات، ثم أذن الله تعالى بالنضال المشروع، وسمح باستعمال القوة والدخول في الحروب للدفاع عن النفس وعن الحق"(١٣٣).

وبداية تجدر الإشارة إلى "أن الإسلام قد أباح للأفراد والأمم حق الدفاع عن النفس ضدّ من يهدّد كيانها ووجودها من القوى المعادية لها"(١٣٤).. "ولقد وضح الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه كيفية

(١٣٢) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣١٢.

(١٣٣) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٩٦.

(١٣٤) النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٩٦.

استخدام القوى داخل إطار من الانضباط الدقيق قبل أربعة عشر قرنًا فاستخدام القوة متى اقتضى الأمر يكون بجانب الحكمة، واستعمال التهديد بجانب الإرشاد، ولا شك أن المسلم إن أراد حياة كريمة عزيزة فعلية أن يكون قويًا مستعملاً القوة في سبيل الحق"[١٣٥]. وهكذا يؤكد كولن على ضرورة "أن يكون المسلم قويًا، وأن يسمع صوته للعالم، وأن يقطع الأصوات المنكرة، فيكون بذلك ممثلاً للتوازن الدولي"[١٣٦].

ولا ريب أن الحرب في الإسلام لم تشرع للعدوان ولكنها شرعت من أجل نجدة المظلومين والمستضعفين والمساكين، وإن لم يسرع المؤمنون للنجدة فمن غيرهم يسرع إذن؟ ولذلك جاء الجهاد وفيه ردع للظلم وتمكين من حرية الدعوة حيث نشر الحق والحقيقة والفضيلة والاستقامة، فضلاً عن صيانة الأسس الإنسانية المتعددة.[١٣٧]

ولا شك أن الحرب وإن شرعت طبقًا لما أوضح الإسلام فإنها تأتي كأمر استثنائي في حين أن إعمال السلْم هي الأساس في الإسلام، ولعل ما ورد في كتاب الله أعظم دليل وبرهان قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(الأَنْفَال:٦١)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(البَقَرَة:٢٠٨).[١٣٨]

ولقد حرص الرسول صلوات الله وسلامه عليه على أن يقوي

---

[١٣٥] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٩٧.

[١٣٦] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٩٧.

[١٣٧] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٩٧.

[١٣٨] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٠٤.

المسلمين بقوى معنوية، تعين الرجال الخارجين لساحة القتال، ولا ريب أن الإيمان هو منبع وسند القوى المعنوية، ولم يكن ذلك الأمر عفويًا، ولكنه استمد جذوره وأسسه الراسخة من كتاب الله، فهناك من الآيات ما تقوى به الروح المعنوية للمؤمن وتهيئه للقتال؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النِّسَاء:٧٤)، وقوله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البَقَرَة:٢٤٩)، وقوله ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آلِ عِمْرَان:١٣٩)، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأَعْرَاف:١٢٨).[١٣٩]

إن أستاذنا فتح الله كولن يحاول تحليل "المبدأ الذي من الممكن أن يستقى من هذه الآيات، وهو أن "الحقّ يعلو ولا يُعلى عليه"، وهذا هو الشعور الذي يملأ قلب المؤمن وهو مقبل على القتال، إذ يكون قد تحصن بقلعة من الإيمان لا يمكن تخطي أسوارها.. وهكذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ينشر مثل هذا الإيمان ومثل هذا الشعور بالاطمئنان في قلوب جنوده وأبطاله، وهو يعدهم ويهيئهم للقتال وللنصر بإذن الله"[١٤٠].

ولقد تجلّت مهارات رسول الله ﷺ في الجهاد وفي عديد من الأدوات المحيطة به من حشد القوة وتهيئة الظروف المناسبة للعمل على الطاعة ورسم الخطط[١٤١] والتصرف بتكتم[١٤٢] وإقامة شبكة استخبارات[١٤٣]

---

[١٣٩] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٠٥-٤٠٦.

[١٤٠] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٠٦.

[١٤١] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤١٠-٤١١.

[١٤٢] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤١٢.

[١٤٣] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤١٢-٤١٣.

لخدمة الإسلام والمسلمين، وفي مجمل هذا ينتهي الأمر بضرورة إشعار الجميع بوجود الكيان الإسلامي وأن الهيمنة للحق[١٤٤] وأن الهدف هو إقرار الأمن والسلام والاطمئنان[١٤٥].

مسك الختام

فداك أمي وأبي وكل الخلق يا رسول الله... يا من كنتَ زاهدًا بل أزهد الزاهدين، متواضعًا، سباقًا إلى الخير، متصدقًا، داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

سيدي يا رسول الله.. اصطفاك ربك وأدبك وأرسلك للعالمين، وما نحن إلا بشر من العابدين ومن "عباد الرحمن"، لا يمكن أن نوفّيك حقك ولا نملك إلا أن نُعمل طيب ذكرك... والصلاة عليك يملأ القلوب والأفئدة... وحسبنا قول الله: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(الأَحْزَاب:٥٦).

وإلى أن نلقاك، عليك أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، يا سيدي يا رسول الله.

---

[١٤٤] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤١٦-٤١٧.

[١٤٥] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤١٧.



الموازين أو أضواء على الطريق في فكر الأستاذ فتح الله كولن

للأستاذ فتح الله كولن دراسة حول "الموازين"[١٤٦] التي تمثل على طريق المسلم -والداعية بخاصة- حدودًا يجب مراعاتها.

وتتكون "الموازين" من عدد من الرؤى التي تحدد مقاييس الحياة الإنسانية في رحلتها إلى البعيد، من خلال النظر الإيماني.

ويسير الكاتب في ذلك وفق أسلوب التحديد الدقيق لـ"الموازين الإنسانية"، وهي في رأينا نتاج رؤية عميقة لجملة من القضايا والمفاهيم الكبرى في الحياة، عالجها أستاذنا الجليل "كولن" بمنهج الفقيه الداعية الملتزم بضوابط الكتاب والسنّة، وإن لم يحلْ ذلك الالتزام بينه وبين التحلي بروح الفيلسوف المتأمّل، مع الأخذ في الاعتبار أننا لا نعني بالفلسفة معناها الاصطلاحي المحدود، بل معناها الواسع الدالّ على منهج الحياة وطريقة النظر إلى الأمور، وهذا المنهج وتلك الطريقة مقيدان لدى الشيخ بمبادئ الإسلام وأصوله الكلية.

يفتتح أستاذنا رحلته في الموازين بمناجاة لله الكبير المتعال، هذه المناجاة تتسم بشاعرية رقيقة، ولنستمع إليه حين يقول:

---

[١٤٦] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، الطبعة السابعة، القاهرة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

"يا خالقنا العظيم! الجميل فوق كل جمال... أنت الذي أوصلتنا إلى شاطئ الوجود، وأذقتَ قلوبنا اللذة اللانهائية للوجود... أنت مَن بسط الكون الواسع الرحب أمام أنظارنا مثل كتاب... وأنت مَن هزّ قلوبنا بأسرار الوجود... أنت مَن جعلتَ قلوبنا شاطئًا تضربه أمواج الأسرار اللاّهوتية... لو لم توجدنا، لكنّا عدمًا... لو لم تجعل هذا الكون صحيفة مفتوحة، ولو لم ترسل لنا الأدلاء والمرشدين العظام لِيُعَرِّفُونَا بك ويصِفوك لنا لَما عرفناك، ولَقضينا حياتنا جهلة وميتي القلب... لو لم تهبنا نعمةَ تَعريفنا بك، كيف كنّا نستطيع أن نصل إلى إدراك الذات الإلهية أو الوصول إلى سر العلاقات بين العالم الخارجي وبين قلوبنا؟ وكيف كنا ندرك العلم الحقيقي والمعرفة الحقيقية لو لم تنقش العلم الأولي في قلوب فطرتنا؟ كيف كنا نعرفك، وكيف كنا نصل إلى التوله بك والشوق إليك؟ نحن العبيد أمام عتبة بابك... الومضات الموجودة في قلوبنا من ضياء نور وجودك... بكل ما نملكه من نعم نعمةٌ منك وعطيةٌ منك نعلن هذا مرة أخرى، ونعترف بأننا عبيد فضلك وكرمك ونجدد عهدنا معك"[١٤٧].

"إن كنا قد أخطأنا وتعثرنا، فقد تعثرنا ونحن نسير نحوك ونحاول أن نرشد الآخرين إليك، وإن شاب القصور عملنا، فقد شابه ونحن في الطريق المؤدي إليك. ولكن الخطأ هو الخطأ، والقصور هو القصور على الدوام"[١٤٨]. "وندري أنّ الخطأ والقصور يليق بنا نحن عبيدك، ولكننا نعلم علم اليقين بأن العفو والمغفرة تليق بك"[١٤٩].

[١٤٧] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨.
[١٤٨] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩.
[١٤٩] الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٩.

وإذا استعرضنا المفاهيم الجزئية للموازين عند "كولن" وجدناها تصل إلى أكثر من مائة ميزان، بيد أننا يمكننا وصفها في إطار موازين كبري تندرج بصفة إجمالية -تحت قضايا كبرى- هي:

- المعرفة[١٥٠]
- أهمية المعرفة للدعوة: "فتح صدرك للجميع"[١٥١]
- التوحيد ومحبة الله[١٥٢]
- الأخلاق[١٥٣]
- الإنسانية[١٥٤]
- الروح بين المثالية والإجرام[١٥٥]
- الأمّة[١٥٦]
- الحياة الحقيقية[١٥٧]
- الفنون (الأدب واللغة البليغة-والشعر والجمال)[١٥٨]

فإذا تناولنا رؤية أستاذنا للمعرفة تفصيلاً نجده قد أبرزها من خلال تحليله لعدد من الجوانب كالعلم والدعوة والسياحة والإيمان والتربية

---

(١٥٠) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٧، ١٧٠.

(١٥١) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٩.

(١٥٢) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٢٠١.

(١٥٣) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٨٥.

(١٥٤) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٥.

(١٥٥) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٠٦.

(١٥٦) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٤.

(١٥٧) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١١١.

(١٥٨) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٠٧، ١١٤، ١١٨.

والثقافة والفكر والرؤيا والدين والمشاعر واللغة والبصيرة والطبيعة والحكمة والحق والنصيحة والحضارة.

فهو يرى -عندما يستعرض مفهوم المعرفة من زاوية الحكمة-[١٥٩] أن "المعاناة من أهم مصادر الإلهام"[١٦٠]، وفي الوقت نفسه يجزم بأن "كيان الأمة يتناسب طرديًا بشكل متواز مع عمق ثقافتها، كما يرى أن العلم يجب أن يكون مقياسًا للقيمة بين الناس، ويجعل الجهل أعدى أعداء الحق؛ إذ يقول: "عندما يبدأ الحق في الحديث يغضب الجهل"، ثم يستطرد معرّفًا الجاهل بأنه "الشخص المحروم من الإحساس بالأمر الصحيح" أي أنه "الشخص المحروم من الحق".[١٦١]

ويؤكد الشيخ فتح الله كولن كثيرًا على ضرورة المعرفة الدينية على أساس أنها تحمل موازين ثابتة مطلقة، كما أنه يؤكد على أهمية التخصص المعرفي، وعلى ضرورة الارتباط التكاملي بين العلم والعمل.

وغاية المعرفة لدى كولن[١٦٢] هي "اتخاذها رشدًا وهاديًا للإنسان ولتنوير الطرق التي ترقى بالإنسان نحو الكمالات الإنسانية... فكل معرفة لا تُوجّه الإنسان إلى الأهداف السامية ليست إلا عبئًا للقلب والفكر لا فائدة منها"[١٦٣].

والمعرفة الصحيحة سبيل إلى سكينة الروح وهدوء الخاطر وراحة

---

[١٥٩] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٧٠.

[١٦٠] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٧١.

[١٦١] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٧١.

[١٦٢] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٠-١٢.

[١٦٣] الموازين، فتح الله كولن، ص:١١.

الضمير، أما "النفوس المسكينة المحرومة من معرفة الحقيقة فتظل تغير طريقها واتجاهها، وتقضي عمرها في إطلاق الحسرات والأنين، لأنها لا تستطيع التخلص من أوهامها المريضة"(١٦٤).

الحكمة والفلسفة

يربط أستاذنا كولن بين الحكمة والفلسفة كعنصرين للمعرفة، ويجعل الفكر الصحيح هو الطريق السديد إليهما، فمهمة الفكر في نظره هي البحث عن الأمر الصحيح (الحق).(١٦٥)

ويعرف الفكر بأنه "رقة العقل وتنوّره"(١٦٦) أي إضاءته ورقيه وقدرته على دحض الظلام.

و"غاية الحكمة هي تنوير الطرق المؤدية إلى الله وإلى الروح"(١٦٧). والحكيم أرقى من العالم عند المؤلف، ولهذا يقول: "والحكيم تُجاه العالم هو كموقف العالم أمام الجاهل"(١٦٨). وفي حديثه عن المعرفة العلمية ينوّه أستاذنا فتح الله بأن "العلوم هي ضياء العقل، أما الحكمة فهي البروق التي تبرق في سماء الروح"(١٦٩).

ثم يشير إلى الثقافة(١٧٠) -كفرع معرفي- على أنها نبعٌ ترده الأمة في

---

(١٦٤) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٢.
(١٦٥) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦٤.
(١٦٦) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦٤.
(١٦٧) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦٥.
(١٦٨) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦٦.
(١٦٩) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦٧.
(١٧٠) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٩-٨١.

مراحل تطورها، والثقافة سمة الحياة المعيشة في مجتمع والناتجة من عادات وتقاليد ولغة ونظام في التربية والسلوك، وكل جزء منها قطعة مهمة من الأسس الكلية للمجتمع، وكل محاولة يراد بها سانح المجتمع من ثقافته تورد المجتمع موارد الحيرة المؤرقة والضلال عن الحق وتنكب سبيله.

وهكذا فإن كولن يلفت النظر إلى ما في مدلول الثقافة من خصوصية وتميز، ويُشير من طرف خفي إلى أن إهدار هذه الخصوصية والذهول عن مقتضياتها يمسخ هوية الأمة ويمسخ معالم شخصيتها.

وبهذه الرؤية السديدة يتحدث الأستاذ عن تمازج الثقافات قائلاً: "والثقافة قد تنتقل من مجتمع إلى آخر نتيجة احتكاك الامم بعضها مع البعض الآخر، مثلها في ذلك -بمقياس ما- مثل المدنية. ولكن إن لم يتم مرور هذه الثقافة من خلال عملية تصفية ضرورية يقوم بها روح الأمة، وإن لم تتم عملية فرز واصطفاء فلا مهرب آنذاك من حدوث أزمة ثقافية وأزمة مدنية"[١٧١].

ويقول أيضًا: "تحتل الثقافة محلاً متميزًا في حياة كل أمة. وكل ثقافة امتزجت مع ماضي الأمة وارتبطت بجذور روحها تستطيع إنارة طريق الحياة والتقدم أمامها. وعلى النقيض من هذا فإن قيام الأمة بتسليم نفسها إلى أحضان فكر أو ثقافة أجنبية والسير متذبذبة ذات اليمين وذات اليسار سيؤدي إلى اضمحلال تلك الأمة وتفسخها"[١٧٢].

وفي ظل اختلاط الثقافات واحتكاكها من خلال آليات عصر المعلومات

---

[١٧١] الموازين، فتح الله كولن، ص:٨٠.

[١٧٢] الموازين، فتح الله كولن، ص:٨١.

يشير أستاذنا إلى أن حرية الفكر والتعبير توجب على كل مثقف أن يهتم بكل ما يقال في مجلسه من الأفكار المخالفة لفكره.[١٧٣] ويقول مؤكدًا: "الاعتراض على كل شيء، ونقد كل شيء حركةٌ تخريبية"[١٧٤].

ولا يفوت الأستاذ كولن في موازينه المعرفية أن يُشيد بالمنهج التجريبي الحديث في البحث والاستقراء... وهو -في الحقيقة- يدٌ إسلامية أسدتها الحضارة الإسلامية للإنسانية.

كما يرى الأستاذ فتح الله كولن أن تحصيل المعرفة هو الغاية من خلق الإنسان[١٧٥] بشرط توظيف المعرفة في مجال الحق -بالطبع-.. يقول: "لا تظهر إنسانية الإنسان واضحةً إلا عند محاولته التعلم ثم تعليم غيره وتنويره"[١٧٦].

المعرفة والتربية

أكّد الأستاذ كولن على أهمية المعرفة التربوية وأثرها في تقوية الأمّة والنهوض بها، وبيّن أن "الأمم التي تهمل أطفالها محكوم عليها بالنقراض"[١٧٧].

وفي مفهوم "التربية" يؤكد "كولن" على ضرورة رعاية النشء، فيقول: "إن بقاء أمة ودوامها مرتبطٌ بالأجيال التي تنشئها"[١٧٨]، ويضع

---

[١٧٣] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٩٠.

[١٧٤] الموازين، فتح الله كولن، ص:٩٠.

[١٧٥] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٠.

[١٧٦] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٠.

[١٧٧] الموازين، فتح الله كولن، ص:٨٢.

[١٧٨] الموازين، فتح الله كولن، ص:٥١.

المؤلف إطارًا لتحديد المسؤولية التربوية في الأمة، فيقول: "ولا شك أن الوظيفة الأولى في تنشئة الأجيال تنشئة صالحة تقع أولاً على الآباء والأمّهات"[١٧٩].

ويؤكد "كولن" على ضرورة تنشئة البنات تنشئة خاصة، بحيث يصبحن مثالاً للرقّة والحنان، فيجب الاهتمام بهن فكرًا وسلوكًا.[١٨٠] وكذلك يلفت الأستاذ النظر إلى أهمية الثقافة الدينية والتربية الإسلامية في المدارس، إذ يقول: "يجب أن تولى أهمية لدروس التربية والثقافة الدينية في المدارس بقدر الأهمية المعطاة للدروس الأخرى في الأقل، حتى تتربّى أجيال قوية في خلقها وسلوكها وروحها، فيحوّلوا ربوع هذا الوطن إلى جنة... والتعليم شيء والتربية شيء آخر؛ فمن الممكن أن يكون أكثر الناس معلّمين، ولكن القلة فقط منهم يستطيع أن يكون مربّيًا"[١٨١].

و"مع كون دروس التربية الدينية والثقافة الدينية ضرورية جدًّا، إلا أن الأهمية المعطاة لها في المدارس قليلة. فإذا استطعنا يومًا أن نسد هذا النقص نكون قد خطونا خطوة هامة جدًّا في مضمار تقدم هذه الأمة واتخذنا أصوب قرار"[١٨٢].

المعرفة والدعوة

ويهتم الأستاذ فتح الله كولن كثيرًا بالدور الدعوي للمعرفة، فلا جدوى من العلم إن لم يقترن بالتبليغ والإرشاد، كما أنه لا جدوى منه إن لم

[١٧٩] الموازين، فتح الله كولن، ص:٥١.
[١٨٠] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٨.
[١٨١] الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٨-٧٩.
[١٨٢] الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٩.

يقترن بعمل، في نطاق صاحبه وفي نطاق الآخرين. يقول الشيخ: "والمهم في الدعوة أن يكون الموضوع المتناولُ مقترنًا بالإخلاص وحسن القبول"(١٨٣).

وهناك حقائق قد استنبطها الأستاذ كولن يرى أنها جاءت تهديدًا غير مباشر. ويتجلى هذا المعنى في قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(مُحَمَّد:٣٨). فبقاء أمتنا (أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) مرتبط بخدماتها الإيمانية والدعوية فهي باقية بدرجة بقاء دينها وخدمتها لهذا الدين.

ويقول أيضًا: "عندما تتوقف الخدمات الإيمانية، تبدأ البلايا في التهاطل"(١٨٤).

وفي مقام آخر يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فُصِّلَتْ:٣٤). وعليه يستشهد المؤلف في إرشاداته للدعاة بقول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسانٌ

ومعنى ذلك -في مجال خدمة الدعوة- أن الدفع بالحسنة هو في حدّ ذاته خدمة للدعوة والعكس صحيح كذلك.(١٨٥)

وعندما يتناول الأستاذ كولن قضية المعرفة القرآنية على أساس أنها زاد للدعاة يحدد تعريفه للقرآن في القول بأنه: "مجموعة من القوانين

(١٨٣) الموازين، فتح الله كولن، ص:٢٠٠.

(١٨٤) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٩٩.

(١٨٥) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٢٠٠.

الإلهية النازلة من لدن الخبير المتعال على عالم بني الإنسان"[١٨٦].

كولن والإنسان

يفترض الأستاذ كولن أن الإنسان الغالي كالغيمة المحملة بالأمطار، فهو محمل على الدوام بالأفكار السامية والفضائل العالية.[١٨٧] والإنسان مكرم ومختار من الله، ولهذا فالله يعطيه حياة فانية، ليكسب مقابلها حياة خالدة إذا عمل صالحًا.[١٨٨]

وعلى الإنسان أن يهتم بروحه وفكره أكثر من اهتمامه بصحته وبدنه.. ويضع المؤلف للإنسان الحقيقي الموسوم بـ"الإنسانية الكاملة" علامات مضيئة على درب إنسانيته، فيقول له: "على الإنسان أن يجعل من نفسه ميزانًا يزن به كل شيء في سلوكه تجاه الآخرين"[١٨٩]، و"على الإنسان ألا ينحرف عن الإنصاف وعن المروءة حتى تجاه من رأى منه الإساءة والشرور"[١٩٠].

الأخلاق والدعوة

وعندما يتحدث الأستاذ كولن عن الأخلاق يطول معه الحديث ويتفرع إلى زوايا عديدة مثل حاجة الدعوة إلى الأخلاق الإيجابية الحسنة مثل: "حفظ السر"، و"الحيطة"، و"الشورى"، و"التسامح"، و"الصبر"،

---

[١٨٦] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٤١.

[١٨٧] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١١٣.

[١٨٨] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١١٣.

[١٨٩] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٥.

[١٩٠] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٥.

و"التواضـع"، و"الجمال"، و"الصدق"، و"الاعتدال"، و"احترام الآخرين"، و"الشرف"، و"الضمير"، و"المحبة"، و"التضحية"، و"العدل"، و"المرءوة"، و"النصيحة"، و"الوفاء".. وفي المقابل يتحدث عن الأخلاق السيئة الضارة مثل "الأنانية"، و"الانحراف"، و"الفساد" وأثر هذه الأخلاق على الدعوة والدعاة.

يقول الأستاذ مدللاً على قيمة حفظ السر بقوله: "السر كالعرض"[١٩١] وبالتالي "على الإنسان أن يحذر من إفشاء أسراره هنا وهناك حذرًا شديدًا"[١٩٢]، "لأن السر يشكل قوة لصاحبه ما بقى في الصدر"[١٩٣]، وعلى الإنسان أيضًا أن يحذر من إيداع أسراره لشخص أحمق"[١٩٤].

وعندما يتناول ميزان "الحيطة" كخلق تقوم عليه حياة الإنسان، يقول: "إن اتخاذ الحيطة والتدابير اللازمة رأسمال كبير للإنسان الذي يأمل الوصول إلى مبتغاه" ويستطرد قائلاً: "إن إبداء أي تَراخٍ أو إهمالٍ خطأٌ كبير"[١٩٥]. ويدلل على ذلك بقوله: "عليك أن تمسك بتلابيب النشال [اللصِّ] قبل أن ينشلك [يسرقك]"[١٩٦].

وينتهج الأستاذ كولن "التخطيط" كأساس لتحقيق الحيطة فيقول: "على كل إنسان أن يتناول كل عمل ضمن خطة مسبقة وتدبير"[١٩٧]، ولا

---

(١٩١) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٣.
(١٩٢) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٤.
(١٩٣) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٤.
(١٩٤) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٥.
(١٩٥) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦.
(١٩٦) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦.
(١٩٧) الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦.

شك أن الأمم التي تقدمت في الآونة الأخيرة بشكل مطرد قد اعتمدت على خطة موضوعية شاملة للنهوض بنفسها.

ثم يضع إطارًا للحيطة يبرز مفهومها وحدودها من خلاله، فيقول: "كما أن اتخاذ الحيطة لا يعني الخوف والتراجع إلى الوراء لأنهما شيئان مختلفان تمامًا، كذلك فإن التصرفات البعيدة عن الحيطة وعن اتخاذ التدابير اللازمة لا علاقة لها بالشجاعة والبسالة"[١٩٨].

الأخلاق والشورى

يستهل الأستاذ "كولن" كلامه عن الشورى بقوله: "اسْأل خبيرًا" ثم يستطرد موضحًا: "وخبْرتان أفضل من خبرة واحدة"[١٩٩]، ويضع "كولن" الشورى شرطًا أولاً لصحة القرارات وجودة النتائج، ومن ثم فإن أعقل الناس في رأيه هو أكثرهم احترامًا للشورى.[٢٠٠]

وينصح الأستاذ كولن كل مسلم قبل مباشرة أي نشاط أو اتخاذ أي قرار بضرورة القيام بكل الاستشارات اللازمة: "فقبل القيام بأي عمل وبأي نشاط، إن لم يتم التفكير جيدًا في العاقبة وإن لم تؤخذ آراء المجرِّبين، فلا يمكن التهرب من خيبة الأمل والندامة"[٢٠١].

افتح صدرك للجميع

شعار يستهل به الأستاذ كولن حديثه عن خلق المسامحة، ويستطرد

---

[١٩٨] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٦.

[١٩٩] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٨.

[٢٠٠] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٨.

[٢٠١] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٩.

قائلاً: "افتح صدرك للجميع.. افتحه أكثر ما تستطيع.. ليكن كالبحر"، والعلة والغاية المقصودة: "لتمتلئ بالإيمان وبمحبة الإنسان"[٢٠٢].

وفي ميزان المسامحة يضع الشيخ "كولن" لنا عدة قواعد على النحو التالي: "وقّر الأخيار بسبب خيرهم وفضلّهم" [أي قف وراءهم بكل قوتك]، وكن ذا مروءة تجاه المؤمنين، وكن ليّنًا تجاه المنكرين إلى درجة تذوب معها أحقادهم وتصورهم"[٢٠٣].

وينبهنا الأستاذ "كولن" في سياق حديثه عن خلُق المسامحة إلى قاعدة قرآنية جليلة معناها "ادفع السيئات بالحسنات"[٢٠٤]، مصداقًا لقوله جل وعلا: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾(الْمُؤْمِنُون:٩٦)، وهو بذلك يقتدي بالمرشد الأعظم محمد ﷺ الذي كان خلُقه القرآن، وكان الآية العظمى في العفو والتسامح.

وكعادته في وضع الموازين التي تضبط خلق المؤمن يضع الأستاذ "كولن" لنا ميزانًا يساعد قلب المؤمن بقيمه على المسامحة.. وهو "أن يحب الحب ويعادي العداوة"[٢٠٥]، كما يحارب الطبيب المرض وليس المريض. والطريق إلى تحقيق هذا الميزان والثبات عليه كما يرى الشيخ "كولن" هو "أن تتخذ من معاملة الحق تعالى لك مقياسًا لكي تتصرف على ضوئه مع الناس"[٢٠٦].

---

[٢٠٢] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٩.
[٢٠٣] الموازين، فتح الله كولن، ص:٢٠.
[٢٠٤] الموازين، فتح الله كولن، ص:٢٠.
[٢٠٥] الموازين، فتح الله كولن، ص:٢٠.
[٢٠٦] الموازين، فتح الله كولن، ص:٢١.

الصبر

والصبر كما يراه الأستاذ كولن "مثل عشب مرّ يهدئ الآلام"[٢٠٧]، وتتجلى الحقيقة القرآنية: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(الشَّرْح:٦) في ميزان "الصبر" في قول رسول الله ﷺ: «اعلم أن النصر مع الصبر»، فيقول كولن: "النجاح في الصبر والثبات"[٢٠٨]، وعليه فهو يخط لنا طريقًا بقوله "التأنّي أفضل طريق للتمنّي"[٢٠٩].

ويقول: "الأخطاء هي أكثر الموجودات في جعبة المتعجلين"[٢١٠].

ويقول: "إذا كان هناك شيء مبدأه سمّ ومنتهاه عسل، فهو الصبر"[٢١١].

الأنانية

يعتبر كولن "الأنانية" نعمة يدرك بها الفرد خالقه جلَّ وعلا مبينًا أنه يجب إذابتها في لهب حب الله ونور معرفته. ومن يعجز بأنانيته عن تجاوز نفسه إلى الله محروم -بلا ريب- وتكون كل أعماله هباءً منثورًا.[٢١٢]

ويرى كولن أن "الأنانية صفة شيطانية"[٢١٣].

ويبين الأستاذ مصدر الأنانية، فيذكر أنها "قد تنشأ من العلم أو من الثروة والسلطة أو تنبع من الذكاء و تتضخم بالجمال"[٢١٤].

---

[٢٠٧] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٨٢.

[٢٠٨] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٨٢.

[٢٠٩] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٨٢.

[٢١٠] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٨٢.

[٢١١] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٨٢.

[٢١٢] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٤١.

[٢١٣] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤١.

[٢١٤] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٢.

وعندما تمتزج الأنانية الشخصية بالأنانية الجماعية عن طريق الفلسفة نراها تتضخم وتأخذ شكلاً عدوانيًا.[٢١٥]

ويعقد كولن مقارنة بين الفلسفة والدين محورها خلق الأنانية، فيقول: "الفلسفة كانت ولا تزال تمثل الأنانية، والنبوة تمثل الحق والتواضع. طريق الفلسفة حافل بالشكوى والشبه والخداع والشدة والغضب، وصدامات عنيفة كصدامات جبال الثلج وتفتتها، بينما نجد النور في طريق النبوة وانشراح القلوب ونجدة الملهوف والتساند والتعاون"[٢١٦].

التواضع

وعلى الجانب الآخر من خلق الأنانية يأتي التواضع.. التواضع الذي لا تشوبه شائبة من تصنع أو تكلف أو تظاهر... فالتواضع المفتعل نوع من الكبر، و"التواضع دليلٌ على النضج وعلى فضيلة الشخص، والكبرياء علامة نقصه وانخفاض مستواه"[٢١٧].. بل يذهب كولن إلى ما هو أبعد من ذلك بقوله: "إن ارتفاع أي شخص إلى مرتبة الإنسان لا يكون إلا بتواضعه"[٢١٨]، وهذا مصداق قول رسولنا ﷺ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل».

والتواضع في رأي كولن "مفتاح لجميع السجايا الحميدة. والذي يملك هذه السجية يستطيع امتلاك السجايا الحميدة الأخرى. ومن يحرم منها يحرم -على الأكثر- من السجايا الحميدة الأخرى. فبينما استطاع

[٢١٥] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٢.
[٢١٦] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٢.
[٢١٧] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٣.
[٢١٨] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٤.

النبي آدم عليه السلام بتواضعه أن يسترجع كل ما فقده من نفائس تتجاوز قيمتها العالم المادي، أصبح الشيطان الذي تورّط في الذنب معه ضحية لغروره وكبريائه"[٢١٩].

أما "الكبرياء فهي صفة من صفات الله، فلذلك فإن مدعي الكبرياء من المغرورين المعرضين دومًا للغضب الإلهي"[٢٢٠].

الحق

ميزان الحق عند كولن: "الحق محجوب ومقبول حتى وإن كان مغلوبًا على أمره، والباطل مكروه وغير مقبول وإن كان غالبًا"[٢٢١] ومنه قوله "الذي يسحق الضعيف مغلوب وإن كان غالبًا، والمغلوب هنا غالب إن كان الحق معه، حتى ولو بدا أمام الناس مغلوبًا"[٢٢٢].

الأمة

يرى الحكيم كولن أن الأمة هي مجموعة من الأفراد متّحدي الديانة واللغة والتاريخ والعاطفة والفكر، وكلما ازداد هذا الاتحاد قوة تصبح الأمة مرشحة للترقي.[٢٢٣]

و"أعلى الأمم قدرًا هي الأمة التي تسير أمورها في ظل الوحدة والتآلف، والتي تعطي أهمية لقدر شعبها. وهذا يتعلق بقيام أفراد هذه

---

[٢١٩] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٤.

[٢٢٠] الموازين، فتح الله كولن، ص:٤٤.

[٢٢١] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٧٨.

[٢٢٢] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٧٩.

[٢٢٣] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٥.

الأمة بتلقي التربية نفسها في الدين واللغة والتاريخ"[٢٢٤].

ويرى الأستاذ كولن أن "من أهم الأمور التي أدّت بأمتنا إلى الضعف هي سذاجتنا أمام الخادعين الذين ظهروا في مسرح الأصدقاء أمامنا. والحال أن على الإنسان ألا ينخدع بكل وعدٍ، وألا يثق بكل دليل طريق"[٢٢٥].

إن "الأمة التي تكون فيها العلاقات الموجودة بين أفرادها علاقات قوية كقوة العلاقات العائلية، تكون مرشحة للسير نحو الأمام بثبات. أما إن كان الود مفقودًا بين أفرادها والثقة معدومة فيما بينهم، والعداء ساريًا، فمثل هذه الأمة لن تكون أمة بالمعنى الصحيح، ولا تملك أملاً للمستقبل"[٢٢٦].

الرقي والمدنية

يرتكز "رقي الأمم"[٢٢٧] عند الأستاذ كولن على ثلاثة محاور:

١-وضوح الهدف والغاية في ظل تصور مسبق ومحدد.

٢-قبول الفكرة أو التصور المرسوم لدى الجماهير.

٣-بذل الجهود المتكاتفة في سبيل تحقيق الهدف.

ويرى الأستاذ أن المدنية علم وأخلاق، فهما جناحان لا يطير طائر الحضارة إلا بهما.

في طريق الأبدية

تتلخص عناصر الرؤية التوحيدية عند الأستاذ كولن فيما يلي:

---

(٢٢٤) الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٤.

(٢٢٥) الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٤.

(٢٢٦) الموازين، فتح الله كولن، ص:٧٤-٧٥.

(٢٢٧) انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:٨٨-٩٠.

١-"وجودنا استمد من وجود الخالق تعالى"[٢٢٨]

٢-"السماوات والأرض لمعة من بريق نوره"[٢٢٩]

٣-"من ترك بابه تعالى، خسر خسرانًا مبينًا وضل طريقه"[٢٣٠]

٤-"بعنايته تعالى تحول الكون إلى كتاب"[٢٣١]

٥-"الدين مدرسة مباركة لجميع الطبائع الجميلة"[٢٣٢]

٦-"الدين نبع مبارك لأسس المدنية الحق"[٢٣٣]

٨-"الدين هو طريق الله ﷻ"[٢٣٤]

٩-"الأنبياء كالجبال بين الناس"[٢٣٥]

١٠-"عرفت الإنسانيةُ المدنيةَ الحقّة بوساطة رسولنا محمد ﷺ"[٢٣٦].

الفن

الفن[٢٣٧] عند كولن "من أهم الطرق المؤدّية إلى سموّ الروح والمشاعر"[٢٣٨]، هكذا يعرف الشيخ كولن الفن، وشبّهه بـ"مفتاح سحري

---

[٢٢٨] الموازين، فتح الله كولن، ص:٥٧.

[٢٢٩] الموازين، فتح الله كولن، ص:٥٧.

[٢٣٠] الموازين، فتح الله كولن، ص:٥٨.

[٢٣١] الموازين، فتح الله كولن، ص:٥٨.

[٢٣٢] الموازين، فتح الله كولن، ص:٩٣.

[٢٣٣] الموازين، فتح الله كولن، ص:٩٥.

[٢٣٤] الموازين، فتح الله كولن، ص:٩٥.

[٢٣٥] الموازين، فتح الله كولن، ص:٩٥.

[٢٣٦] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٢٣.

[٢٣٧] انظر: الموازين، فتح الله كولن، ص:١٥٢-١٥٤.

[٢٣٨] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٥٢.

لكنوز السرية"[٢٣٩] والعلم والإيمان التي ترينا الفن في تصوير خلجات الإنسان وتسجيل انفعالاته.

والفن -بطريقة ما- "يحوّل أرخص المعادن إلى ما هو أثمن من الذهب والفضة والماس"[٢٤٠]، ومن ثم فالفن هو بعث أو إحياء لقيم الجمال الجامدة المبثوثة في الكون والنفس.

يقول كولن: "ألم يجعل الفن -وهو يرافق الإيمان- هذه الدنيا معرضًا للجمال بالمعابد الفخمة وبالمنائر التي تشبه أصابع الشهادة المتوجّهة إلى السماء، وبفن الحفر على أحجار المرمر وبالألوان والتصاميم الجميلة، وفنون الخط والتذهيب والنقوش الجميلة جمال أجنحة الفراش؟"[٢٤١].

ويرى كولن أن الإنسان المجرد من الحس الفني والشعور بقيمة الجمال يستوي في ميزان الإنسانية وجوده وعدمه، ذلك أنه لا يستطيع أن ينفع نفسه ولا أن ينفع أمته، فيقول: " الأرواح الخالية من الفن والمنغلقة دونه يستوي وجودهم وعدم وجودهم، لأنهم ليسوا إلاّ أفرادًا لا يستطيعون تقديم أي نفع لا لأنفسهم ولا لعوائلهم ولا لأمتهم، بل قد يكونون ضارين أيضا"[٢٤٢].

---

[٢٣٩] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٥٣.

[٢٤٠] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٥٣.

[٢٤١] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٥٣.

[٢٤٢] الموازين، فتح الله كولن، ص:١٥٤.



أسئلة العصر المحيرة
في فكر الأستاذ كولن

وسط خضم هائل من الأفكار التي تغزو عالمنا الإسلامي، يحاول شبابنا المسلم أن يلتمس الصراط المستقيم، وبالأخص ذلك الشباب الذي نشأ في دول غير عربية أو دول أوروبية، مثل "الشباب التركي الذي يعمل جاهدًا حتى يتمكن من الخروج إلى جادة الحق من هذا البحر الهائج بتلك الأفكار التي يشكل معظمها تناقضًا مع ما ورثه من أسس فكرية، وهو في خضم هذه الأفكار الجديدة المتضاربة والمتناقضة مع جذوره الإسلامية يقف حائرًا: هل يترك نفسه للتيار القوي الهادر الذي يحاول قلعه من جذوره، ومحو هويته الإسلامية؛ أم يرجع إلى جذوره الإسلامية الصحيحة؟ ولكن كيف يرجع إليها وهي متّهمة ليل نهار بالرجعية وبأنها لا تناسب روح العصر؟!"(٢٤٣)

وفي هذه التيارات المتباينة تكثر الأسئلة المحيرة التي لا يعرف لها الشباب إجابة شافية، فيتخبط الشباب تخبطًا قد يفضي به إلى الإلحاد.

وقد قيض الله ﷻ لهذا الشباب التركي الحائر بين أمواج الفكر الهدام، الأستاذ محمد فتح الله كولن ذلك الداعية الإسلامي الكبير، "فأخذ حاجة

(٢٤٣) أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، مقدمة المترجم، ص:٥.

الشباب بنظر الاعتبار وصرف قدرًا كبيرًا من جهده الفكري ونشاطه الدعوي لإزالة الشكوك من عقول الشباب، والإجابة على الاستفسارات والأسئلة التي تحير عقولهم"[٢٤٤].

وتتعلق الأسئلة المطروحة المحيرة بقضايا مهمة يعنى بها كل مسلم مهموم بالفكر الإسلامي والدعوة إلى الله، نحو:

- الرد على الملحدين واستفساراتهم المتعلقة بذات الله وماهيته.[٢٤٥]
- الدفاع عن القرآن وبيان محاور إعجازه.[٢٤٦]
- إيضاح مسألة القدر والالتباس في أمر التسيير والتخيير.[٢٤٧]
- مسألة الموت وما بعده من أمور الآخرة.[٢٤٨]
- مناقشة الجدل العلمي حول أمور كالدارونية والأثير وغيرها.
- الكلام عن الأنبياء وما يقع فيه بعض الناس من شبهات.[٢٤٩]
- جدوى العبادة ولزومها في الدنيا تحديدًا.[٢٥٠]
- الكلام عن أهل الفترة ومن لم تبلغه رسالة الإسلام.[٢٥١]
- بيان حقيقة الروح.[٢٥٢]

---

[٢٤٤] أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، مقدمة المترجم، ص:٥.

[٢٤٥] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٥.

[٢٤٦] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٧، ٧٢، ٧٧، ١١٦، ٢٤٢، ٢٦٠.

[٢٤٧] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٢٩، ٤٢، ١٠٠، ١١٢، ١٢٩.

[٢٤٨] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٦١، ١٠٠، ٢٧٨.

[٢٤٩] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٨٩، ٧٧.

[٢٥٠] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٩٥، ٣٠٧.

[٢٥١] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٢١٩.

[٢٥٢] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:١٢٧.

- توضيح مفهوم الدين وأهميته (بوجه عام).[٢٥٣]
- المرأة في الإسلام.[٢٥٤]
- دحض الشيوعية.[٢٥٥]
- الدولة العثمانية.[٢٥٦]
- حدود طاعة أولي الأمر ومعنى الجهاد.[٢٥٧]

ويضيق المقام عن إيراد جميع الأسئلة المحيرة التي أجاب عنها شيخنا الجليل، فقد وفق الله شيخنا في الإجابة عنها كلها على نحو استل به من نفوس الشباب أسباب الحيرة وبواعث الاضطراب ليحل محلها إيمان مستقر ويقين لا يخالجه شك، يلوذ بهما الشباب في مواجهة حياة أبرز قسماتها الحيرة والقلق.

ماهية الذات الإلهية

ولعل أبرز هذه الأسئلة وأكثرها دورانًا بعقول الناس ذلك السؤال القديم المتجدد: ما جوهر الله وما هي ماهيته؟ وكانت الإجابة "أن الله لا يشبهه أي شيء من مخلوقاته.. هذا الإنسان الذي يعيش في هذا العالم المحدود لا يكون فكره ونظره وأحاسيسه إلا محدودة أيضًا. أجل فنسبة ما يراه في هذا العالم يبلغ فقط خمسة في المليون تقريبًا، و كذلك نسبة ما يسمعه؛ فمثلاً لا يستطيع أن يسمع صوتًا اهتزازه ٤٠ تردد في الثانية،

[٢٥٣] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:١٥٣، ١٥٦.

[٢٥٤] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:١٧٩.

[٢٥٥] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٢٣.

[٢٥٦] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:١٤١.

[٢٥٧] انظر: أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:٢٤٥

كما أن هذا التردد إذا تجاوز الآلاف فلن يستطيع أن يسمعه أيضًا. كما أن مجال بصره محدود جدًّا، إذن كيف يستطيع هذا الإنسان المحدود في علمه وبصره وسمعه أن يتجرأ ويسأل: "لماذا لا يرى الله؟".. فمن أنت أيها الإنسان وماذا تعلم أصلاً لكي تتجرأ وتحاول إدراك الله تعالى؟ إن الله تعالى منزَّه عن الكيف والكمّ، وهو منزَّه عن أن تحيط به مقاييسك الناقصة. فلو سافرت بسرعة الضوء تريليون سنة إلى عوالم أخرى ثم راكمت تلك العوالم بعضها على بعض لَما بلغ ما شهدتَه وما علمته بالنسبة لعلم الله سبحانه وتعالى ذرة أو هباءة. وعندما نكون عاجزين حتى عن معرفة قارة أنترتكا[٢٥٨] فكيف يتسنى لنا أن نحيط علمًا بجوهر الله وماهيته هو سبحانه وتعالى؟! فالله فوق كل تصوّر من تصوراتنا، وكل تخيل من تخيلاتنا. يقول علماء الكلام: "ما خطر ببالك، فالله غير ذلك". أما المتصوف فيقول: "ما خطر ببالك فهو وراء وراء وراء ذلك. فأنت محاط بالحجب وكأنك داخل فانوس". ويقول ديكارت:"الإنسان محدود من جميع جوانبه، والمحدود لا يستطيع التفكير في اللامحدود".. فوجود الله ﷻ غير محدود ولا نهائي، لذا لا يستطيع الإنسان القاصر والمحدود أن يحيط به. ويقول الأديب الألماني "جوته": "ذكروك بألف اسم واسم، أيها المجهول الموجود! لو ذكرتك لا بألف اسم بل بآلاف الأسماء لم أستطع أن أوفّي حقك في الثناء، لأنك وراء وفوق كل وصف"[٢٥٩].

والأستاذ كولن عندما يتحدث عن ذات الله يستوحي آيات الكتاب العزيز وينهل من معين القرآن الكريم في تصديه للإجابة، أي أن القرآن هو

---

[٢٥٨] قارة غير مأهولة تقع حول القطب الجنوبي.

[٢٥٩] أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:١١.

الذي يتكلم، وهو الذي يتحدث عن ماهية "الله" ﷻ، يقول الله تعالى عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشُّورَى:١١)، يقول الشيخ فتح الله كولن معلقًا: "لا يشبه الله أي شيء من مخلوقاته سواء الحقيقي منها أم النسبي"[٢٦٠]. ويستطرد ربنا ﷻ قائلاً: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فيشير بذلك إلى محدودية (نسبية) السمع والبصر لدى الإنسان مقارنة، ولا مجال للمقارنة بإطلاقية السمع والبصر لدى الله ﷻ وشموليته.

ويقول كولن: "الكون شاهد على الله تعالى، فكل الكون تجلّ لصفات الله، ومرآة تعكس أسماءه الحسنى سبحانه وتعالى"[٢٦١].

ونلاحظ كذلك استفادة الشيخ فتح الله من أدلة المتكلمين والفلاسفة والعلماء المعاصرين في دعم إجابته حتى تنفذ إلى العقل المسلم في سهولة وإقناع.

رؤية الله تعالى في الدنيا

ومن الأسئلة التي أجاب عنها الأستاذ كولن مستفيدًا من معطيات العلم الحديث ذلك السؤال القائل "لماذا لا نرى الله؟"[٢٦٢].

يقول الأستاذ: "الرؤية مسألة إحاطة. فمثلاً هناك جراثيم في جسم الإنسان، وقد توجد ملايين من البكتريا أسفل سنّ واحدة، وهذه البكتريا تستطيع بما أوتيت من قابليات وإمكانيات نخر سن الإنسان وتخريبها. ولكن الإنسان لا يستطيع سماع صوتها أو ضجيجها، كما لا يحس بها

---

[٢٦٠] أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:١٢.

[٢٦١] أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:١٢.

[٢٦٢] أسئلة العصر المحيِّرة، فتح الله كولن، ص:١٣.

ولا بوجودها، كما أن هذه البكتريا لا تستطيع رؤية الإنسان ولا الإحاطة به. ولكي تستطيع الإحاطة به عليها أن تكون في موضع مستقل وخارجي عنه، وتملك في الوقت نفسه عيونًا تلسْكوبية.. إذن فعدم قدرتها على الإحاطة بالإنسان تمنعها من رؤيته"[٢٦٣].. كذلك الإنسان لا يُمكن له أن يحيط بذات الله تعالى، وبالتالي لا يمكنه رؤيته.. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فسوف يرى الصالحون ربهم، كمكافأة لهم على إيمانهم.

ويستمر الأستاذ في حديثه مبينًا غرور الإنسان وجهله فيقول: "إنه على الرغم من امتلاكنا للميكروسكوب ولأشعّة إكس، فلا نستطيع أن نحيط إحاطة شاملة بالعالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة الشاملة في العالم الأكبر. ويقول رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»[٢٦٤]. وقال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[٢٦٥]. إذن كيف يمكن أن تصور هذه العظمة الهائلة؟! بالنسبة لهذه الأكوان أجزاء ميكروسكوبية كيف تستطيع ادعاء الإحاطة بالكون والمكان؟ بينما الأماكن كلها والأكوان كلها تعد أشياء ميكروسكوبية بالنسبة إلى عرشه تعالى، الذي هو مجرد محل تنفيذ الإرادة والأوامر الإلهية. أليس هذا اشتغالاً بالعبث؟ وإذا كان الأمر كذلك، فماذا نطلق إذن على التفكير في الإحاطة بالله، سبحانه وتعالى؟! لذا يذكر القرآن الكريم أنه ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

---

[٢٦٣] أسئلة العصر المحيّرة، فتح الله كولن، ص:١٣.

[٢٦٤] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١/٣١٠؛ تفسير الطبري، ٣/١٠.

[٢٦٥] تفسير الطبري، ٣/ ٧٧، والرواية عن يونس عن ابن وهب عن ابن زيد عن أبيه.

الْخَبِيرُ﴾(الأَنْعَام:١٠٣). أجل لا تدركه، ولا تحيط به لا الأبصار ولا البصائر، فلكي تتم الرؤية يجب توفر الإحاطة.. هو يدرك الأبصار ويحيط علمه بكل شيء.. ولكن الأنظار والأبصار لا تدركه؛ لذا يجب معرفة هذا الأمر لكي تتوضح جوانب هذه المسألة"[٢٦٦]

وهكذا يمزج شيخنا بين معطيات العلم الحديث ونصوص القرآن والسنة مزجًا بارعًا يُقرب به الفكرة ويجعلها أدنى إلى العقول وأجدر بالقبول.

ظاهرة الموت؟

ومن التساؤلات المحيرة التي تصدى الأستاذ للإجابة عنها ما يتعلق بالموت: "فما هو الموت؟ ولماذا نموت ويموت كل شيء؟!" أو بعبارة أخرى " لماذا يستند كل شيء إلى الموت؟ فحياة الأحياء مثلاً تستند إلى موت النباتات، وحياة الإنسان تستند إلى موت الحيوانات"[٢٦٧].

ويجيب الأستاذ كولن على هذا السؤال، ذاكرًا أمورًا يجب التفكر فيها بعناية هي:

- "الموت نعمة كبيرة لأنه يوصل إلى الحياة الخالدة"[٢٦٨].
- "الموت هو تفتح برعم على الوجود الأبدي"[٢٦٩].
- "الموت تسريح من مشقات الحياة الدنيا"[٢٧٠].

---

[٢٦٦] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٤.
[٢٦٧] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٠.
[٢٦٨] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٠.
[٢٦٩] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦١.
[٢٧٠] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦١.

- "الموت تغيير نوبة الوظيفة"[٢٧١].
- "الموت نصيحة صامتة بليغة للموجودات من خالقها"[٢٧٢].
- "الموت رحمة وحكمة"[٢٧٣].

وفي ذلك يقول الشيخ كولن: "أجل! إن الموت ما هو إلا تفتح برعم على الوجود الأبدي، وليس إلا ترخيصًا من مشقات الحياة الدنيوية. لذا فهو يعد نعمة كبرى وهدية إلهية ثمينة"[٢٧٤].

ويستمر قائلا: "عندما يهرع كل شيء بكل شوق إلى الموت اعتبارًا من جزئيات الهواء إلى ذرات الماء إلى جزئيات الأعشاب والأشجار إلى خلايا الأحياء، فإنما يهرع في الحقيقة إلى الكمال المقدر له. فعندما يتحد الأوكسجين مع الهيدروجين فإنهما يفقدان خصائصهما الأولية السابقة، أي يموتان ولكنهما يكونان ألزم شيء للحياة وهو الماء، أي يبعثان من حديد في مستوى أرقى. لذا فإننا نطلق على الغياب وعلى تغيير المكان وتغير الحال اسم "الموت"، ولكننا لا نقول عنه إنه انقراض وعدم. وكيف نستطيع قول هذا وكل حادثة جارية في الكون بدءًا من أصغر الجزئيات الذرية إلى أكبر الأجرام السماوية، وكل تحول وانصهار وتشتت متوجه للأحسن وللأجمل. كل ما يمكننا القول هنا هو أن الموجودات في سياحة وفي نزهة، ولا نستطيع القول أبدًا بأنها سائرة نحو العدم"[٢٧٥].

---

(٢٧١) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٢.

(٢٧٢) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٢.

(٢٧٣) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٣.

(٢٧٤) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦١.

(٢٧٥) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦١-٦٢.

"والموت -من زاوية أخرى- يتضمن نصيحة صامتة بليغة وهي: إن أي موجود لا يكون قائمًا بذاته -بل إن كل شيء- يشير (مثل المصابيح التي تتعاقب فيها الإضاءة والانطفاء إلى الشمس الأبدية التي لا تنطفئ) إلى طريق الاطمئنان والسعادة للقلوب التي تئن من خشية الزوال والفناء، أي أن تلتفت إلى ورائها. عند ذلك يتحرك في قلوبنا شعور بالبحث عن حبيب لا يزول ولا يغرب. ونبض هذا الشعور في قلوبنا هو المرحلة الأولى للوصول إلى الأبدية في عالم مشاعرنا وأحاسيسنا وعواطفنا. وهكذا فالموت بمثابة "مِصعد" سرّيّ يرفع الإنسان ويسمو به إلى هذه المرحلة الأولى"[٢٧٦].

"ماذا كان يحدث لو أن كل شيء استند إلى الحياة بدلاً من استناده إلى الموت؟!"[٢٧٧]. "فكّروا لحظة... وتصوروا أنه ما من شيء يموت... في هذه الحالة لا يستطيع الإنسان وحده -حتى في العصور الأولى- بل لا تستطيع حتى ذبابة واحدة العثور على مكان للعيش. فمن الأحياء يكفي النمل والنباتات المتسلقات أن تسيطر على العالم بأسره في ظرف عصر واحد فقط، إن لم يتعرضا للموت والتحلل، فلا يبقى شبر واحد فارغ على سطح الكرة الأرضية، ولَبَلغ ارتفاع سمك النمل والمتسلقات مئات الأمتار فوق سطح الأرض. لذا فعندما تتخيل مثل هذا المنظر المرعب تدرك آنذاك كيف أن الموت رحمة والتحلل والتعفن رحمة وحكمة"[٢٧٨].

"لذا نستطيع القول كخلاصة إن أصحاب جميع العقول السليمة

---

[٢٧٦] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٢.

[٢٧٧] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٣.

[٢٧٨] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٣.

والقلوب الشاعرة بالجمال ترى أن جميع الأشياء في مكانها الصحيح من ناحية الترتيب والتنظيم والسَّوق والإدارة إلى درجة تذهل هذه العقول وتلهمها تعابير الجمال والشعر. أي أن جميع الأشياء في تحول دائم من كيفية إلى كيفية أعلى بدءًا من حركة الذرات وتحللها إلى نمو الأعشاب والنباتات، إلى تدفق الأنهار إلى البحار وإلى تبخر المياه وتكوينها السحب والغيوم ثم نزولها مطرًا إلى الأرض... الخ. أي نشاهد أن كل شيء يتحول ويسرع بكل شوق من حال إلى حال أفضل وأسمى"(٢٧٩).

مسؤولية الإنسان إزاء دعوة الأنبياء

وسئل الأستاذ كولن عن الحكمة من أن جميع الأنبياء ظهروا في شبه جزيرة العرب، فكيف يُسأل من يعيشون في البلدان الأخرى ممن لم يبعث الله فيهم رسولاً؟

استهل كولن إجابته ببيان مرتبة النبوة ومكانة الأنبياء بقوله: "إن النبوة مرتبة سامية جدًّا، فهي الغصن المدلّى من الحق تبارك وتعالى إلى الخلق وعليه"(٢٨٠). "تستطيع الإنسانية بواسطة هؤلاء الأنبياء اكتشاف ماهية الأشياء"(٢٨١).

ويستخلص كولن من هذه المقدمة نتيجة مفادها أنه "ليس هناك أدنى احتمال أن يحرم بلد من فيض أنوارهم.. وكيف للبشرية أن تعيش خارج نطاق إرشاداتهم"(٢٨٢)، ونحن نقرأ "في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(٢٧٩) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٦٤.

(٢٨٠) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٩.

(٢٨١) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٩.

(٢٨٢) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٠.

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(النَّحل:٣٦). ولكن البشرية سرعان ما نسيت الدروس التي تلقتها من هؤلاء الأشخاص العظام، وانحرفت عن الصراط السوي عن طريق تقديس هؤلاء الأنبياء وتأليههم، فعادت إلى الوثنية مرة أخرى. وهناك مئات من الأوثان التي خلقها الخيال الإنساني ممتدة من جبل الآلهة في اليونان حتى نهر كنج في الهند، وهذه الأديان مختلفة في وضعها وشكلها الحالي عن وضعها وشكلها في بداية ظهورها اختلافًا كبيرًا"[٢٨٣]، وكثير منها ظهر في أوربا وآسيا وإفريقيا.

"إذن فإن معظم الأديان ذات المظاهر الباطلة، والتي استمرت ووصلت إلى أيامنا الحالية كانت مستندة في الماضي إلى أسس متينة وصالحة وصافية في الأكثر. والظاهر أن كل عصر كان يحمل ختم نبي من الأنبياء"[٢٨٤].

وليس لأحد أيًّا كان أن يدّعي النبوة دون وحي من الله، "فنسبة النبوة إلى شخص ليس بنبي يُعدّ كفرًا ككفر إنكار نبوة نبيّ"[٢٨٥]. "ونحن غير مكلَّفين بمعرفة جميع الأنبياء المرسلين"[٢٨٦]. "فهناك أديان كثيرة في الدنيا تعرضت إلى التحريف والتغيير"[٢٨٧]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾(يونُس:٤٧). ومن ثم "فلا بقعة في الأرض إلا وبعث فيها نبي مرسل.. إذن فالإنذار

[٢٨٣] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣١.

[٢٨٤] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٢.

[٢٨٥] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٢.

[٢٨٦] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٣.

[٢٨٧] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٢.

والتكليف ثم العذاب أو الرحمة، يقول تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإِسْرَاء:١٥)، ولقد أرسل الله الأنبياء إلى جميع أرجاء الأرض ليقيم الحجة على أهل الأرض.[٢٨٨]

عهد "الفترة"

وسئل الشيخ كولن عن عهد الفترة، ما حكمها، وهل يعيش المسلمون الآن عهد الفترة ؟[٢٨٩]

تحدث الأستاذ كولن عن عهد الفترة (وهو الزمان الذي يقع بين رسالتين وليس فيه نبيّ) وذلك من خلال محورين رئيسين:

أولاً: عهد "الفترة" قبل بعثة النبي ﷺ وفيه:

أ-موحدون على ملة إبراهيم: مثل ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهما... وهؤلاء لم يعبدوا صنمًا ولا وثنًا.. والرأي فيهم أنهم من أهل النجاة إن شاء الله تعالى.

ب-عابدو الأوثان والأصنام: وهم عامة المشركين الذين تلوثت عقائدهم بالوثنية وهم -على الأرجح- ليسوا من أهل النجاة.

ثانيًا: عهد "الفترة" الحالي في كثير من البلدان التي انطفأت فيها شعلة الإسلام حيث استبدت الأفكار الإلحادية بعقول الشعوب... ولاسيما الزمرة المثقفة منهم كالداروينية والفرويدية والماركسية والفوضوية والمادية.. وهؤلاء -أيضا- ينقسمون إلى:

أ-صنف حيل بينهم وبين شعلة الإسلام قسرًا، أو لجهالة منهم بماهية

---

[٢٨٨] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣٥.

[٢٨٩] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢١٨-٢٢٢.

الإسلام وحقيقته وهؤلاء من أهل النجاة على الأرجح -إن شاء الله-.

ب-صنف استسلم للإلحاد، ولم يبذل جهده في البحث عن الحقيقة ورضي بالظلام والجهل... وهؤلاء من أهل الضلال والهلاك والنار.

وفي ذلك يقول فضيلة الشيخ كولن: "إن قمنا بمطالعة كتب علم الكلام نرى أنه من الصعب إطلاق صفة "أهل الفترة" على الناس في هذا العهد الحالي. ولكن الاستعجال في إطلاق الأحكام القاطعة من دون روية كافية يكون مخالفًا لنظرة أهل السنة والجماعة وعدم احترام للرحمة الإلهية الشاملة والواسعة. لقد أدركنا عهدًا أطفئت فيه شمس الإسلام في كثير من البلدان الأخرى، ومُسح من القلوب اسمُ الله ورسوله، واستعمل العلم كأداة كذب لإنكار الخالق ﷻ، وبدلاً من أن تعلو كلمة الله والمعرفة الإلهية في دور العلم والعرفان بُعث الوجه الكريه للكفر. وبدلاً من استعمال العلم والحكمة كأساس للوصول إلى الله استعمل كقنابل لهدْم قلعة الإيمان وجعلها أنقاضًا متراكمة. وهكذا وفي هذا الجو العاصف للكفر والضلالة فقد نسي الشباب طريقهم إلى الجامع وإلى المسجد. أما الزمرة القليلة التي قبضت واستولت على المحافل العلمية فقد وجهت أنظارها إلى الغرب وصرفتها عن تاريخها وعن مفاخرها. فبعضهم عكّروا إيمان إنسان عصرنا بنظريّة التطور، وبعضهم لوّثوا أفكار الأمة بالشهوة الجنسية حسب نظريات فرويد وحاولوا حل جميع المشاكل من الزاوية الجنسية ومن منظور الشهوة. ومنهم من أفسد الشعب بالمذاهب الفوضوية.. وقد قامت كثير من الجرائد والمجلات والكتب برفع شعارات هذه المذاهب في طول البلاد وعرضها لسنوات عديدة. لذا لا يمكن عدّ إنسان يومنا هذا خارج عهد "الفترة" تمامًا، وإلا كنا قد

أغمضنا عيوننا عن الحقائق من حولنا"[٢٩٠].

الدين هل هو اختراع إنساني؟

وسئل الشيخ كولن عما يروّجه بعض المرجفين عن حقيقة الدين، وأنه مجرد اختراع بشري ابتداعه الإنسان حين عجز عن تفسير بعض الظواهر الطبيعية، وهل يزيل تقدم البشرية حاجة الناس إلى الدين؟[٢٩١]

وقد تكلم الأستاذ عن الدين وما يتعلق به... فهو تارة يتحدث عن الدين بوجه عام، وتارة يتكلم عن الإسلام خاصة، وتارة أخرى يتناول بعض القضايا المتعلقة بالتدين من تفكر وتوبة وعبادة واتباع للسنة المحمدية... إلخ.

والدين عند الشيخ هو "الطاعة أو الجزاء أو الطريق"[٢٩٢] حسب تعريفه في اللغة العربية، "أما تعريفه الشرعي أو الاصطلاحي فهو "وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات"[٢٩٣].

- "يهتم الدين بأمور العقيدة أولاً، وفي مقدمتها توحيد خالق الكون، ثم الإيمان بالأنبياء وبالنبي المرسل الذي يأتي مجهزًا بالأدلة القاطعة على نبوته، ثم الإيمان بالكتاب المنزل واتباع ما فيه، ثم الإيمان بالآخرة والقدر والملائكة والغيب وما إلى ذلك"[٢٩٤].
- ويأتي بعد ذلك دور العبادة التي تحفظ الدين نَضِرًا في القلوب،

---

[٢٩٠] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٣١٩-٣٢٠.

[٢٩١] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٥-١٦٢.

[٢٩٢] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٥.

[٢٩٣] التعريف هو للمناوي، ص:٣٤٤؛ أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٥.

[٢٩٤] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٦. (بتصرف)

وعلى رأسها الصلاة.[٢٩٥]

- ثم يأتي بالمعاملات، وعلى رأس المعاملات ما يتعلق بالاقتصاد والتجارة والعبادات والمعاملات هما الوسيلة -بعد العقيدة- إلى الله.[٢٩٦]
- ثم يلتزم المرء باتباع سنّة النبي الذي أرسل إليه، ويقتدي به وبمن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.. ويلزم الدعاء، فهو مخ العبادة.. ويحرص على الطاعات، ويجتنب المهلكات، ويروض نفسه على التقوى ومجاهدة النفس ومخالفة الهوى وعصيان الشيطان. ويستعين بالله في كل ذلك، ويتحلى بالفضائل ويتخلص من الرذائل.[٢٩٧]
- وعليه ألا يدخر جهدًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويظل على صلة بالله في كل وقت وحين.. ويصبر على الأذى، ويتزود للآخرة.[٢٩٨]

ومن جانب آخر، نحن في حاجة ماسّة في برمجة حياتنا إلى الدين،[٢٩٩] والله تعالى ليس بحاجة إلى عبادتنا، وإنما هي لخيرنا في الدنيا والآخرة، فمعصيتنا لا تضره، وطاعتنا لا تنفعه سبحانه وتعالى.[٣٠٠]

نعم، "إن الدين ضروري للإنسان، وهو ينبع من كونه نظامًا فطريًّا يلائم طبيعة الإنسان، وهو شعور مغروس في فطرة الإنسان منذ البداية. فقد خُلق الإنسان بطبيعة محتاجة إلى تعاليم الدين. بفضل الدين فقط

---

[٢٩٥] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٦.

[٢٩٦] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٧.

[٢٩٧] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٧-١٦١.

[٢٩٨] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٦.

[٢٩٩] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٩.

[٣٠٠] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٥٩.

يدرك الإنسانُ الحقيقة والصواب في العقيدة والمعاملات. وبفضل الدين فقط يصبح أهلاً للجنة حيث ينصهر في بوتقته وينضج شيئًا فشيئًا حتى يصل في النهاية إلى هيأة تمكّن الرسول ﷺ من معرفته وأخذه بيده وضمّه إلى أمته تحت لواء الحمد يوم القيامة"[٣٠١].

"لقد جاء الدين بأسس إيجابية تحتضن الحياة بأكملها. والنظرة التي ترى الدين شيئًا قاصرًا نظرة ضيقة. والذين يحاولون رفع الدين من الحياة ووضعه على الرف سيدركون يومًا ما الجريمة التاريخية التي يهمّون باقترافها، وسيندمون على فعلتهم هذه. إن هذا الخطأ يُرتكب في كثير من البلدان شرقًا وغربًا ويتم الاعتراف بارتكابه. غير أن الدين هو روح الحياة، ولن يستطيع أحد إنكار ذلك"[٣٠٢].

الدين والإكراه على قبوله

وعن المبدأ الإسلامي المعروف ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البَقَرَة:٢٥٦) يقول الشيخ كولن: "لا يوجد في جوهر أو في لبّ الدين إكراه"[٣٠٣].. والإسلام هو الدين الحق: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾(آلِ عِمْرَان:١٩)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(آلِ عِمْرَان:٨٥)، وهو يعني التسليم الذي يستوجب الطاعة المطلقة لله حسبما تطيق الطاقة البشرية.

طاعة ولي الأمر

وسئل شيخنا عن حكم طاعة الإمام أو ولي الأمر وعن حدود هذه

[٣٠١] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٦٠.
[٣٠٢] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:١٦٠.
[٣٠٣] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٤١.

الطاعة؟[٣٠٤] فانطلق في إجابته من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(النِّسَاء:٥٩)، واستمر قائلا: "فهذه الآية تتحدث عن إطاعة الله ورسوله وأولي الأمر، أي عن ثلاث طاعات متصلة بعضها مع البعض الآخر"[٣٠٥].

"﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي أطيعوا أولي الأمر منكم الذين يسيرون على النهج المضيء للرسول ﷺ"[٣٠٦]. "فالمؤمنون مأمورون بإطاعة أمثال هؤلاء الأمراء والانقياد لهم.. وبنسبة مخالفة أولي الأمر للرسول ﷺ فإنهم يفقدون حق طاعة الناس لهم مهما كانت خدماتهم كبيرة. لذا لا تستوجب الإمارة الطاعة بشكل مطلق"[٣٠٧].

وجدير بالذكر "أن المؤمنين الذين ارتبطت قلوبهم وعقولهم بالدعوة لا يمكن أن يتصرفوا في أي شيء يتعلق بالإسلام تصرفًا فرديًا؛ بل يتم تناول ذلك الموضوع تناولاً جماعيًا وتتم المشورة بينهم. وإذا استوجب الأمر نقل الموضوع إلى من يثقون برجاحة عقله وتجربته، ثم يتم التصرف حسبما يتم الاتفاق عليه، والطاعة والانقياد واجب هنا كامنة. والحقيقة أن طاعة المؤمنين لأولي الأمر الذين يقومون بتحقيق الشورى إنما هي طاعة لله تعالى؛ فمن أجل الحق ومكانته يجب أن نسمع ونطيع حتى لو كان الأمير عبدًا حبشيًا كأن رأسه زبيبة"[٣٠٨]. "فإن كان العكس، وتصرَّف

---

[٣٠٤] انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٤٤-٢٥٠.

[٣٠٥] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٤٤.

[٣٠٦] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٤٤.

[٣٠٧] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٤٥.

[٣٠٨] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٤٦.

كلُّ شخص حسب رأْيه، فالنتيجة النهائية هي الفوضى.. وعندما لا تتحد القلوب ولا تتفق فإن الله تعالى سيحرم هؤلاء من الفضل الذي يسبغه على الجماعة"[٣٠٩].

خلاصة القول

وبعدُ، فهذه طائفة من التساؤلات الحائرة التي تصدى شيخنا الجليل للإجابة عنها مسترشدًا بضوابط الكتاب والسنة الصحيحة، ومستفيدًا من معطيات العلم الحديث، في أسلوب يسير قريب من أفهام الناس، تجد فيه روح الشيخ، وطريقته الهادئة الوادعة في الدعوة إلى الله، عسى أن يحقق الله الفائدة المرجوة، وتنزاح الشبهة من قلوب المسلمين وعقولهم، ويحتل اليقين قلوبهم، ويسارعون إلى إعلاء راية دينهم.

---

[٣٠٩] أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص:٢٤٦.



الطريق إلى الدعوة والإرشاد في الفكر والحياة

في تحليله لقضايا "طرق الإرشاد في الفكر والحياة"[٣١٠] يتناول الداعية العالمي "فتح الله كولن" مفهوم التبليغ من خلال عدة محاور، ويمكننا أن نستعرض من خلالها الجوانب الأساسية للتبليغ كما يراها "كولن" في النقاط التالية:

يتعامل الشيخ كولن مع التبليغ من زاوية كونه غاية الوجود،[٣١١] وذلك باعتبار أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق الشهادة لله بالوجود وبالوحدانية.

ويرى "كولن" أن الإرشاد هو المخوَّل بتلك الوظيفة السامية، وظيفة التبليغ.. والأنبياء -كما يرى الأستاذ كولن- هم أقطاب العالم الذين يرشدونه إلى سواء السبيل، وهم في الأرض كالنجوم في السماء، وطلائع الحضارات الحقيقية اللائقة بإنسانية الإنسان. ولا بد للرسل من وحي يبلغون عنه، فهم سفراء الله يحملون تعليمات محددة ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(النَّجْم:٣-٤). ودائمًا بعد الصراع مع الباطل تكون النجاة للمؤمنين الصادقين، ويكون الهلاك للمنكرين الكافرين.

---

[٣١٠] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، الطبعة الخامسة، دار النيل، القاهرة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

[٣١١] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣-٢٠.

إن مهمة المبلغ الأساسي هي التعريف بالله والتذكير به، ونشر الصالحات ومحاربة المنكر؛ وبغير النبوة تهلك البشرية وتتفرق شيعًا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(الْمُؤْمِنُون:٥٣). ومنذ آدم عليه السلام والبشرية تقتفي أثر النبوة في كل مراحل التاريخ. ثم جاء نوح عليه السلام -أول أولي العزم من الرسل- ليطلقها صريحة في ربوع الكون قائلاً: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(الأَعْرَاف:٦٢). وجهر إبراهيم عليه السلام في الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أذعنت له طائفة عظيمة لبَّت النداء مكبرة مهللة. وطمس موسى بدعوته وجه المادية الصلف في قوم قست قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة. وقد نشر زكريا عليه السلام بالمناشير الحديدية، حتى شق نصفين في سبيل دعوته. كما استشهد يحيى عليه السلام في سبيل إعلاء كلمة الله بجهاد الدعوة. ونصب الصليب لعيسى عليه السلام ليثنيه عن دعوته لولا أن نجاه الله منه. ولا تزال المعاناة تترصد المرشدين من الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان لصدهم عن دعوتهم إلى الله.[٣١٢]

وينوه الشيخ كولن بعد ذلك بوسائل التبليغ والإرشاد مشيرًا في معرض كلامه إلى جملة حقائق أهمها:[٣١٣]

- إن التبليغ هدية تنبئ عن عمق المودة والاهتمام بين الأفراد وبالتالي يحتاج إلى وسائل كريمة ودودة.
- من الضروري معرفة المخاطب، وإدراك حقيقة حاله من أجل الوصول معه إلى أقصى فائدة ممكنة بالتبليغ.
- لا بد أن يقوم بالتبليغ شخص مناسب حتى لا يسيء إلى دعوته.

---

[٣١٢] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٣-١٨.

[٣١٣] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٨٩١٦٥.

- كما لا بد للتبليـغ أن يتواصل دون انقطاع في كل زمان ومكان.
- والدعوة تقتضي الحكمة والدراية الواسعة والمعرفة بالأولويات.
- كما تقتضي حرصًا على المتلقي ورغبة حقيقية في الصلاح والتجرد من المنافـع الشخصية.
- ولا بد للمبلـغ أن يدرك الهدف الأسمى لدعوته وهو إعلاء كلمة الله.
- وينبغي للمبلـغ أن يوقن يقينًا جازمًا فيما يبلغه.
- ولا ينبغي للمبلِّغ أن يُشعر المبلَّغ أو يستشعر في نفسه أنه ذو فضل عليه.

ويستمر أستاذنا الجليل فيبين "ضوابط التبليـغ" التي ينبغي الالتزام بها لتؤتي هذه العملية الجليلة أكلها.

ضوابط التبليغ

ثمة ضوابط للتبليـغ يجب الالتزام بها، وهي تتلخص من وجهة نظر العلامة فتح الله كولن في الضوابط التالية:

١-التبليـغ يقتضي الاستمرار والدوام والثبات.

٢-يجب الاستناد إلى ركائز الدين عند التبليـغ.

٣-يجب التفاعل مـع الظروف والحالات بالحكمة اللازمة.

٤-لا بد من الإيمان بأن خيرية الأمة التي ذكرها ربنا جلَّ وعلا في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آلِ عِمْرَان:١١٠) إنما هي -أي الخيرية- مرتهنة بشرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا ضاعت الخيرية من الأمة.

٥-وتقتضي الآية أيضًا -بمفهوم المخالفة- أنكم أيها الدعاة إذا تخلّيتم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنتم شرّ أمة.. وهذا يجعل الداعية ملتزمًا بالدعوة وضوابطها معًا.

٦-وبما أن السبب الأساس في هذا الذل والهوان والضياع الذي يتجرعه العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة يرجع إلى تقصيره في القيام بمهام الدعوة المنوطة به، فلهذا يجب مقاومة العجز والكسل والتقصير واستلهام بركة الوحي بالإخلاص على أساس أنه شرط أساس لإحياء الأمة.

والتبليغ يعني تعريف الناس بالدعوة الإسلامية، وأن قيمة تلك الدعوة تتمثل في أنها أساسًا تؤدى لوجه الله تعالى.. وهي مسؤولية (عينية وكفائية) على كل فرد تجاه ربه سبحانه وتعالى، وتجاه أمّته والإنسانية كلها في حدود طاقته.. وهي أجلّ مهمة في يومنا هذا.. وهي تستوجب قوة تحميها وتفرض الاحترام لها.

العمل -لاسيما في عصرنا- على إنشاء مؤسسات دعوية توحيدية.. لأن الدعوة جديرة بهذا، ولن تأخذ مكانتها إلا بهذه المؤسسات الدعوية. فعلى الداعية أن يعمل على التوحد مع الآخرين من الدعاة والمناصرين للدعوة.

وكذلك لا بد من الجهر بالدعوة الحقة في وجه الغزو الإلحادي، بأساليب البلاغ الدعوية والإعلامية المعاصرة. ومن الواجب -تقديرًا لرسالة الدعوة- أن يكون الدعاة قادرين على استعمال أحدث الوسائل وأكرمها وأكثرها تأثيرًا في محاربة الفساد والأفكار الهدامة بجهاد الكلمة.

الدعوة على المستوى الفردي والمجتمعي ومعوقاتها

ويرى الأستاذ فتح الله كولن أن ثمة علاقة بين التبليغ على مستوى الفرد والتبليغ على مستوى المجتمع، كما يرى أن صلاح الفرد مؤشر لصلاح المجتمع، وعليه فإن كولن، يتعرض لهذه العلاقة الوثيقة-موضحًا إياها-في هذه النقاط:[٣١٤]

- لا بد للفرد من مراقبة حاله فيما يدعو إليه، فيتقيد بأوامر دعوته التي يرشد الناس إليها.
- إن صلاح الأفراد قمين بإصلاح حال الأمة وإطلاقها من إسارها واحتياجها لغيرها من الأمم.
- لا بد لكي تنتقل الدعوة من طور الفرد إلى طور المجتمع من الحكمة والموعظة الحسنة.
- على المسلم أن يفر بدينه من الفتن إذا أطلت بلهيبها، وعليه أن يجد البنية الخصبة والملائمة لقبول دعوته.
- لا بد من تفهم أولويات المجتمع بعيدًا عن العصبية الفردية وضيق الأفق وعقم الأفكار.
- تحتاج الدعوة الاجتماعية إلى مؤسساتٍ تدعهما وقوةٍ تحميها.
- على الداعي أن يضحي بالمنافع الفردية لنيل منافع اجتماعية جمة.
- تحتاج الدعوة العامة إلى الصبر والنفس الطويل.
- فالمسلم إذا كان يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم كما ورد في الأثر الصحيح.

---

[٣١٤] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٥١-٦١.

شروط التبليغ

ويورد الأستاذ كولن "شروط التبليغ" كما يراها هو، وهي:

١-القلب: فلا بد للقلب أن ينسجم مع القرآن ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾(ق:٣٧)، ويقول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به».[٣١٥]

٢-الوسائل المشروعة: فلا يمكن بلوغ الأهداف الدعوية المرجوة في زمن العولمة والجات وثورة المعلومات والاتصالات إلا باستخدام التقنيات الحديثة التي تخدم الدعوة.[٣١٦]

٣-طلب الأجر والثواب من الله: والداعية المخلص لا يريد من الناس جزاء ولا شكورًا، بل يعمل حتى يفني نفسه ابتغاء مرضاة الله ﷻ، وهذا ديدن الأنبياء ومن سار على خطاهم، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(يس:٢١).[٣١٧]

٤-أسلوب التفاهم: لقد جاء رسولنا ﷺ بعقيدة التوسط واليسر، وهي عقيدة سمحة سهلة لينة واضحة صافية، قال ﷺ: «أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» (رواه البخاري).[٣١٨]

٥-لا بد للداعية من أن يعرف المخاطب ليعرف كيف يخاطبه ويصل إلى قلبه.[٣١٩]

---

[٣١٥] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠١.

[٣١٦] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠٣.

[٣١٧] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٠٤.

[٣١٨] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١١١.

[٣١٩] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١١١.

٦-ولا بد للداعية أن يلم بثقافة العصر ومستجداته.[٣٢٠]

٧-كما لا بد للداعية من أن يكون مرنًا في تعامله مـع جمهور الناس، فقد قال رسولنا ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»، وقال أيضًا ﷺ «أنزلوا الناس منازلهم» (رواه مسلم وأبو داود).[٣٢١]

٨-الشفقة: وهي طريق موصلة إلى حب الله تعالى والرحمة بمخلوقاته وأن العارف يبتسم في وجوه العصاة رأفة بحالهم.[٣٢٢]

٩-التضحية: لا مفرّ من إخفاق الداعية الذي لا يضحي من أجل دعوته، أما المستعدون للتضحية بكل نفيس لديهم فيرفعون راية دعوتهم إلى الذروة.[٣٢٣] يجب البدء بغرس روح التضحية في نفوس الدعاة، إن الهجرة والجهاد يمثلان قمة مراتب التضحية من أجل الدعوة.

١٠-الدعاء: يقول ربنا جل وعلا: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾(الفُرْقَان:٧٧). ويقر الشيخ كولن هذه الحقيقة بقوله: "لقد اهتدى أناس كثيرون بالدعاء والتضرع القلبي الخالص، بينما لم يؤثر فيهم الكلام البليغ الساحر"[٣٢٤].

١١-الواقعية: يقول كولن: "المبلغ إنسان منطقي" ويسوق الأستاذ كولن مثالاً على المحاورة المنطقية في الدعوة إلى الله من حديث رسول الله ﷺ مع جُلَيبيب ﷺ ليعفه عن نساء المؤمنين، عندما طفق يجادله بقوله:

---

[٣٢٠] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١١٨.

[٣٢١] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٢٠.

[٣٢٢] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٧١.

[٣٢٣] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٧٦.

[٣٢٤] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٧٨.

«أتحبه لأمك؟ أتحبه لابنتك ؟ أفتحبه لأختك؟! أفتحبه لعمتك؟! أفتحبه لخالتك؟» وجليبيب يرد: لا، جعلني الله فداك، فيعقب الرسول ﷺ: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم... لبناتهم. لأخواتهم.. لعماتهم.. لخالاتهم.. هكذا تباعًا».[٣٢٥]. وهكذا نجد أنفسنا أمام مناقشة نبوية هادئة أثمرت عظيم النفع.. فهي مدرسة في الإقناع بالحكمة.

١٢-التسامح: يقول الأستاذ كولن "المبلغ سمح في أطواره، وهكذا كان نبينا محمد ﷺ مع كفّار مكة يوم الفتح حين قال لهم ما قاله يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾(يوسُف:٩٢).[٣٢٦]

١٣-رهافة الحس: يقول الشيخ كولن: "المبلغ رهيف الحس، شديد الحساسية تجاه ضلال الناس عن الحق. والمثل الأعلى (القدوة) في ذلك قول الله لرسوله ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(الْكَهْف:٦).[٣٢٧]

١٤-الجانب الروحي عند الداعية: يقول الأستاذ كولن: "إن المبلغ صاحب عالم روحي عميق أيضًا، وذلك حسب إخلاصه في دعوته، ويقينه في دعوته، واليقين هو بلوغ كمال الإيمان، حيث يقول الرسول ﷺ «اليقين كله إيمان».. ويقول كولن أيضًا: "اليقين وصول إلى التوحيد".[٣٢٨]

١٥- الشوق والاشتياق: والمبلغ -كما يرى كولن- يؤدي وظيفته في

---

[٣٢٥] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٧٩.

[٣٢٦] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٨١.

[٣٢٧] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٨١.

[٣٢٨] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٨٣.

جو مفعم بالشوق إلى التبليغ ونشر الدعوة وإعلاء كلمة الله.[٣٢٩]

١٦-صفاء القلب ورقة الروح.[٣٣٠]

خلاصة القول

وبعد هذه الرحلة الممتعة الثرية المؤصلة لقضايا دعوية كثيرة نقدم خلاصة مركزة، ومن هذه الخلاصة نستوعب الحقائق التالية:[٣٣١]

١-التبليغ والإرشاد أقدس وظيفة بين وظائف المسلم.

٢-التبليغ فرض عين في ظروفنا الراهنة لشيوع الفساد.

٣-المجتمع الذي يقوم بمهمة التبليغ يقي نفسه البلايا والمصائب.

٤-يجب أن تؤدى وظيفة التبليغ على مستوى الأفراد والأمم.

٥-التبليغ علامة الإيمان.

٦-لقد تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ دينه وإتمام نوره.

٧-العلم والعمل والتبليغ وجوه ثلاثة لحقيقة واحدة.

٨-ينبغي على المبلغ أن يلم بالحقائق الإيمانية.

٩-على المبلغ أن يعيش قلبه مع القرآن.

١٠-لا بد للغايات المشروعة من وسائل مشروعة.

١١-المبلغ يحافظ على تواضعه وإنكاره لذاته.

١٢-لا يوطّد الداعية صلته بأركان الدولة أو رجال المال إلا لضرورة دعوته.

---

[٣٢٩] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٨٦.

[٣٣٠] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٨٨.

[٣٣١] انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:١٩١-١٩٤.

١٣-النصر مع الصبر.

١٤-لا يعارض الداعية نواميس الله في الكون، ولا يخالف بصيرته.

١٥-المبلغ رحيم شفوق.

١٦-التضحية والمعاناة على قدر المبلغ.

١٧-الداعية إنسان يتحرى الإخلاص في الدعاء من أجل الكمال.

١٨-الداعية منطقي وواقعي.

١٩-المبلغ يسير في وظيفته ضمن الشوق والحب لله ورسوله.

٢٠-الإيمان العميق صفة لا تنفك عن المبلغ.

٢١-لا بد للداعية أن تكون حياته نقية كنقاء دعوته.



القلب والروح في فكر علامة الأمة: فتح الله كولن

في البدء كانت الروح والكلمة.

إنهما ممتزجان امتزاج الدم بالجسد.. لا ينفصلان.

والروح فِعْل.. وجبريل عليه السلام روح ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾(الشُّعَرَاء:١٩٣-١٩٤).

والكلمة روح شاعرة تخرج من القلب لتكون سهمًا يصل إلى القلب الآخر.

والويل لكلمة لا تصل إلى القلب حتى ولو ضمت من البلاغة ما لا تضمه كلمات البسطاء المخلصين:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وما هبط المسلمون إلى القاع إلا يوم جعلوا "كلمة الله" أصواتًا وحروفًا وأنغامًا... بينما كانت "الكلمة الربّانية" عند أسلافهم روحًا تهدي للتي هي أقوم...

لقد فرح الأسلاف (تلامذة خير البشر رضي الله عنهم) الذي كانت الكلمة النازلة إليه ﴿قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزّمّل:٥).. بالفقه والتدبر والتطبيق..

أما الأخلاف، فقد فرحوا "بالاستظهار والحفظ والتجويد". أما الحياة في الكلمة القرآنية، فليست من منهجهم..

كان حامل الكلمة إلى البشر يسمع آية من "الكلمة القرآنية" بواسطة

صاحبه عبد الله بن مسعود ﷺ... فيبكي بكاءً حارًّا من الأعماق وهو يسمع طَرْق الآيات الداخلة إلى القلب والروح يُحذِّره الحساب والمسؤولية، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(النِّسَاء:٤١).

ولماذا لا ينفطر قلبه والمسؤولية كبيرة تمتد منذ اليوم الأول للبعثة النبوية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؟!

وسمع غير عربي وغير مسلم "الكلمة الروح القرآنية".. فوصلت إلى كيانه.. قلبه وروحه وعقله.. فصدع قائلا: "ما هذا بكلام بشر، وما هذه كلمات تنتجها الأرض ويحدها المكان والزمان.. إنك لتسمعها فتراها مطلقة من كل القيود.. كأن عهدها بالوجود أمس.. وستظل كذلك لمن يقرأونها من داخلها".!

وكان الابن الشاعر الفيلسوف "محمد إقبال" الذي هزَّت كلماته أوتار قلوب المسلمين.. يقرأ القرآن بعد صلاة الفجر في كل يوم.. وكان "الأب" العائد من مسجده يمر عليه وهو يقرأ بصوته العالي، فيقول له: "اقرأ القرآن!"، ويتكرر ذلك في كل صباح... حتى اهتزت أوتار الانفعال في " إقبال " فسأل أباه في عتب شديد: "وما أفعل أنا الآن.. ألست أقرأ القرآن.. أليس صوتي قويًّا مجوِّدًا..؟!". فقال الأب في حنان: "يا بنيَّ! اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك.. يعني كأنك محمد ﷺ الذي كان يتفصّد عرقًا والروح "جبريل عليه السلام" يتلوه عليه!".

* * *

في البداية الفاعلة المغَيرِة لداخل الإنسان وخارجه.. لا بُدّ من امتزاج الروح بالكلمة.

وإذا مشت الروح وحدها، قادت صاحبها إلى "جوتاما"، فأصبحت "بوذية" تنتظر الموت -بسكينة- وسط الطبيعة لا غير.

وإذا مشت الكلمة وحدها انتهت إلى الثرثارين المتفيهقين الذين يطربونك ويأسرونك ببلاغتهم.. لكنك تعرفهم وترفضهم من قلبك.. لأنك تعلم أنهم "يقولون ما لا يفعلون"... يعيشون في مقت الله.. ولا تستطيع كلماتهم -حتى ولو كانت قرآنًا- أن تصنع تغييرًا إلا تغيير أرقام حساباتهم في المصارف المالية.

أما عندما تكون البداية.. وتستمر المسيرة على نهج الامتزاج الكامل بين الروح والكلمة.. فهنا يصل التغيير إلى النفوس بهما إلى الداخل كله.. راشحًا على العقل من أنواره.. مجنبًا إياه مزالق الانحدار إلى الهوى والدمار.

* * *

يقوم "صرح الروح والكلمة"[٣٣٢] على أسس واعية تستلهم الوحي والتاريخ والعقل والسنن الكونية، لكنها لا تنسى "ترانيم الروح وأشجان القلب"[٣٣٣].

وللوصول إلى عالم "التلال الزمردية"[٣٣٤] مؤهلات تستطيع أن تلتقطها من بحر كلمات الله، ومن نبع النور الذي شقت مجاريه الصاعدة السيرة العطرة النبوية.. وسيرة آل البيت وسلمان وصحابة رسول الله وإخوانه أهل

---

[٣٣٢] للشيخ فتح الله كولن كتاب عنوانه "ونحن نقيم صرح الروح"، وكلماتنا السابقة ليست من كلماته، لكنها مستلهمه من روح كلماته.

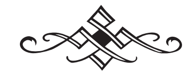
[٣٣٣] للشيخ كولن كتاب بهذا الاسم نفسه: "ترانيم روح وأشجان قلب".

[٣٣٤] للشيخ كولن كتاب بهذا الاسم نفسه: "التلال الزمرّدية نحو حياة القلب والروح".

الشهود حتى في أيامنا تلك.

وتلتقط هذه المؤهلات أيضًا من هؤلاء وأولئك التائبين العابدين الحامدين السائحين الراكعين الساجدين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والحافظين لحدود الله حين ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾(التَّوْبة:١١١)، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾(التَّوْبة:١١١).

لقد تمَّ العهد... ووجب عليهم أن يأخذوا بكل أسباب التمكين ليقيموا صرح الروح... ويصلوا -بمدد من الله- إلى "التلال الزمردية" ليعيشوا، وتعيش الإنسانية معهم الحياة الربانية الإنسانية الواقعية المثالية الفاعلة.. التي ترفع الإنسان وتزكيه.. وتبعث فيه روح الاستخلاف ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البَقَرَة:٣٠).



التربية الإسلامية (القرآنية النبوية) وصناعة الإنسان

في عام ٥٧١ م ولد خاتم المرسلين وإمام الأنبياء والمتقين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وفي عام ٦١٠ م بعث الله محمدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا للناس مختتمًا به حلقات النبوة.

وبقي الرسول ﷺ بعد أن تلقى كلمات الوحي من الروح الأمين جبريل عليه السلام سفير الله إلى الأنبياء... بقي ثلاث سنوات يدعو الناس سرًّا ويعيش مرحلة التوجيه الرباني ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الشُّعَرَاء: ٢١٤-٢١٥).

ثم صدر الأمر الإلهي بالجهر بالدعوة، والدخول في مرحلة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(الْحِجْر: ٩٤-٩٦)، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾(الْحِجْر: ٩٧-٩٨).

وكما نرى، فقد صدر -مع الأمر الإلهي بالجهر بالدعوة- منهج التعامل مع الكافرين وضمانات الرعاية الإلهية للرسول، وطريقة الاتصال بالله عندما يضيق صدره فما عليه إلا أن يسبح لله ويسجد له، كي يُيسِّر له طريق الدعوة.

وخلال ١٣ سنة عاشها الرسول في مكة، و ١٠ سنوات قضاها في المدينة بعد الهجرة ملتزمًا فيها بالمنهج الإسلامي "القرآن والسنة". ألّف

الرسول ﷺ -بالإسلام- بين قلوب الذين آمنوا تأليفا يسمو على كل روابط الأرض الفكرية والاجتماعية والثقافية والاجتماعية، بحيث لو أنفق أحدهم ما في الأرض جميعًا ما ألّف بين قلوبهم على هذا النحو.

وبعد الهجرة وقيام دولة الإسلام أقام المؤاخاة بين جناحي الأمة وهما المهاجرون والأنصار؛ فكانت أخوتهم أزكى من أخوة الأشقاء والأخلاء، ونجحت أن تصير نواة للأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية.

* * *

وخلال هذه المدة الممتدة (ثلاثة وعشرين عامًا) عاشها الرسول بين أصحابه غَرَس المنهج التربوي الإسلامي في أصحابه. ففي شعاب مكة، وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم، وفي المسجد النبوي في المدينة كان الرسول يغرس منهج التربية الإسلامية المستمرة فيتخول الصحابة يوميًّا بالموعظة وبأساليب التربية الإيمانية والعملية الدقيقة والعميقة... تلك التي تزيدهم في كل يوم رسوخًا في الدين، وعزوفًا عن الشهوات، وتفانيًا في سبيل مرضاة الله، وحنينًا إلى الجنة، وحرصًا على العلم، وفقهًا في الدين، ومحاسبةً للنفس... يطيعون الرسول في المنشط والمكره، وينفرون في سبيل الله خفافًا وثقالاً.

لقد خرجوا مع الرسول للقتال سبعًا وعشرين مرة في عشر سنين، وخرجوا بأمره لقتال العدو المعتدي أكثر من مائة مرة؛ فهان عليهم التخلي عن الدنيا وهانت عليهم المصيبة في أولادهم ونسائهم وفي نفوسهم.

لقد أخرجت التربية الإسلامية حظ الشيطان من نفوسهم، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم. وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم. وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد.. لا تجْزَعُهم مصيبة، ولا

تبطرهم نعمة، ولا يشغلهم فقر، ولا يطغيهم غني، ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة، ولا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم.. ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾(النِّساء:١٣٥)؛ فوطأ الله لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم.[٣٣٥]

لقد نجحوا في امتلاك شروط الوراثة للأرض والتمكين والاستخلاف فيها... وقد أمكن... لهذه الشروط والمؤهلات أن تتألق فيهم، فأصبحت ذاتهم المسلمة ذاتًا لا تعرف الهزيمة الداخلية أو اليأس، بل تؤمن بالمبدأ الرباني"والعاقبة للمتقين" وبالمبدأ النبوي "الحق يعلو ولا يعلو عليه" وأصبح هذا المبدأ مناخهم وهواءهم الذي يتنفسونه شهيقًا وزفيرًا حتى في أحلك الظروف المظلمة... وذلك بفضل إيمانهم بأنهم على الحق المطلق وبأن "الله أكبر" هو قائدهم وحاميهم... وكذلك بفضل توافق روح الإسلام مع طبع الإنسان وفطرته... هذا التوافق الذي يعينه على الارتقاء المادي والمعنوي، وعلي السمو الإسلامي النفسي إلى الذروة التي لا تطال في الموازنة بين الدنيا الفانية والعقبى الباقية.[٣٣٦]

وفي منهج التربية الإسلامية مبدأ أساسي يجب أن يعْلَمه ويعمل به كل مؤمن بهذا المنهج... إنه تلميذ لرسول الله ﷺ، وهو بالنسبة لله سبحانه وتعالى عبد مربوب، لا نجاة له إلا بتقوى الله، وعليه أن يسأل نفسه متذكرًا

---

[٣٣٥] مـاذا خسـر العالم بانحطاط المسـلمين، أبو الحسـن الندوي، دار القلـم، ط:١٣، الكويت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص:٩٨-٩٩.

[٣٣٦] ونحـن نقيـم صروح الـروح، فتح الله كولـن، دار النيل، ط:٤، القاهـرة ١٤٣١هـ- ٢٠٠٩م، ص:١١.

ومتفكرًا قائلاً لوجدانه كله:

لأي شيء خُلقْتِ يا نفسي؟

ولِمَ وُضعت في هذه الدار الفانية؟

ألا إنك لم تُخلقي عبثًا ولم تُترَكي سُدى، وإنما خلقت ووُضعت في هذه الدار للبلوى والاختبار، لتطيعي الله ﷻ فتفوزي بنعيم الأبد أو تعصيه فتنقلبين من هذه الدار إلى جحيم الأبد.

ومع ذلك الإيمان القائم على المعرفة عَليكِ -يا نفسي- العمل بأمر الله ونهيه، في مواضعه وعلله وأسبابه، ولن يوجد ذلك إلا في كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ.

* * *

لقد كان من الضروري لمنهاج التربية الإسلامية النبوية إدراك معالم التربية الأساسية الواجبة في حقوق الله ﷻ بأسبابها وأوقاتها وعللها ووجوبها وفيم هي، وأيها أوجب أن يبدأ به أوّلا فأولا.. فلا يقدم ما أخر الله ﷻ منها، ولا يؤخر ما قدم الله ﷻ منها، كما قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما في وصيته له: "اعلم أن لله ﷻ حقًّا بالنهار لا يقبله بالليل، وحقًّا بالليل لا يقبله بالنهار".

وفي ضوء هذا فعلى المسلم المنتمي إلى المدرسة التربوية الإسلامية أن يبدأ بما بدأ به الله ﷻ، فيبدأ برعاية حقوق الله ﷻ في قلبه، فإنه أوَّل عمل منه، وعنه تكون أعمال الجوارح.. فيوقفه حيث أوقفه الله ﷻ من الرعاية لحقوقه، ويوقفه على حمل رعاية حقوق الله ﷻ في ضميره حتى يقوم بها لله ﷻ كما أمره وتعبّده وهي ثلاث خلال:

- اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر

- واعتقاد السنة ومجانبة البدعة.
- واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على كل ما يكره الله ﷻ من عمل قلبي وبدني.

وكل هذه الأسس التربوية إنما هي معالم ثابتة صالحة وضرورة للتربية في كل العصور.. تستمدّ خلودها وضرورتها من خلود حقائق الإسلام ومن ضرورته للوجود.(٣٣٧)

إن على المؤمنين أن يعلموا -عن يقين وثقة- أن شمس الإسلام قد بزغت، وأن التسارع مطّرد في التوجه إلى الإسلام في الناس عبر العالم من كل فئة، وفي دائرة تتسع من أمريكا إلى آسيا، ومن الدول الإسكندينافية إلى استراليا حتى صار الإسلام الشغل الشاغل.

فمع المساعي التي تذهل العقل لمذاهب النصارى المتنوعة ومنظماتهم الكثيرة، لم تحظ الكنيسة بعُشْر ما حظي به الإسلام من الداخلين إلى نور القرآن في القارات كلها وعلى وعي وعن علم بأنهم سيحاربون بالجوع والفقر.

إن التربية الإسلامية التي مكَّنت للمسلمين في الأرض قد أزالت في عقود قليلة أكبر الإمبراطوريات، وأصبح المسلمون أساتذة العالم لعشرة قرون، كما يقول ول ديورانت.(٣٣٨)

هذه التربية هي الأساس الذي يجب أن يقف فوقه الذين يسعون للتمكين في الأرض ووراثتها في كل العصور.

---

(٣٣٧) الرعاية لحقوق الله، الحارث المحاسبي، دار المعارف، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، مصر بدون تاريخ، ص:٤٧، ٨٢، ٨٣.

(٣٣٨) قصة الحضارة، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبع مصر.

ولن يتحقق ذلك -لاسيما في عصرنا هذا- إلا عندما ينجح الساعون إلى التمكين ووراثة الأرض في توجيه العالم الإسلامي إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان وتعليمات الإسلام، وفي رؤيته للإنسان والكون والحياة والإحسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب الإفادة عن نفسه، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال.

وبهذا التلقي حافظ المسلمون ورثة الأرض على وجودهم حتى اليوم، وكانت وثباتهم منطلقة من التلقّي عن الله ﷻ. فإن جردوا أنفسهم منه، فسوف يجدون أنفسهم متخلّفين مئات السنين إلى الوراء.[٣٣٩]

* * *

إن الدين الذي يهدف إلى غايات مثل إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، والانفتاح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدنيا، وإشباع الوجدان.. لا يمكن أن يكون منحصرًا في العبادات.. إنما هو دين يحرص على ترقية وجدان الإنسان كله. إنه يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية جميعًا... ويتدخل في كل شيء: عقلي وروحي وقلبي... ويصْبغ بصبغته "العبودية والعبادّية" كل تصرف لنا حسب ميزان النيّة والإخلاص، ويسربل بلونه كل شيء.

---

[٣٣٩] ونحن نقيم صروح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٤-٢٥.



حديث حول القدر في فكر العلامة فتح الله كولن

لا تحاول أن تدخل إلى عالم الدعوة للإسلام في هذا العصر بقلبك وروحك وحدهما؛ إنك لا بد أن تتذكر أن عالمنا هو عالم العلم. ومن هنا فإن أستاذنا الكبير فتح الله كولن أخذ نفسه منذ كان واعظًا بالوعي بالجوانب العلمية، ولهذا نجح في أن تكون دعوته عصرية قادرة على مواجهة تحديات المادية المعاصرة. ولقد نجح الواعظ والداعية المعاصر كولن، لأنه مسلّح بالوعي العلمي في التوافق بين معطيات القرآن والمعطيات الكونية.

كذلك وأنت تدخل عالم قضية (ولتكن قضية القدر) تتذكّر أن هذه القضية في أصولها جزء من القسمات العامة تخضع له كل القضايا من مفاتيح ومناخات وخصوصيات نبوية قرآنية حيّة، مما ألمعنا إلى بعضه، ونلمع إلى بعض آخر ما يوفقنا الله إليه مما يشكل القسمات الجامعة في "العالِم كولن".

ولا نحاول أن نسأل عن الموقع الخاص لأية قضية عالجها الشيخ، -وهو يعالجها في الشكل والضرورات وكأنها قضية مستقلة- والإطار في المنهج وروائع المنهج ومذاقاته وعطاءاته كلها واحد.

بين التأصيل ودحض الشبهات

في منهجه -بعد أن أَصَّلَ للقدر برؤية إسلامية- ذهب العالم الجليل والداعية الكبير "فتح الله كولن" إلى دحض الهجمات والشبهات حول مسألة القدر في الإسلام، وتوعية الناس من خلال مواعظه ودروسه بأسلوب المحاورة "سؤال وجواب" لعلاج هذه القضية في عقولهم.

ومن هذه الدروس جمع الشيخ كتابه القدر في إطار الرؤيتين العلمية والإسلامية. ويجيب الشيخ في الشوط الأول على الأسئلة التي وجهت إليه في مواضع شتى، وفي الشوط التالي عرّف الشيخ بالقدر وأبعاده المختلفة:

"القدر هو تقدير الله العليم -ذي العلم المطلق- بالماضي والحاضر والمستقبل، وهو يرى الزمن بأبعاده الثلاثة كزَمَن واحد؛ بل ليس هناك ما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة إليه ﷻ، فالقدر هو هذا العلم والرؤية ثم التسجيل الكامل لكل ما كان ويكون، بل قبل أن يكون، في كتاب مبين، إذ هو المحيط بعلمه وتقديره بوجود كل شيء في الوجود، وبكل ما يكون، سواء من أصغر الذرات إلى أَكبر المجرات وإلى الإنسان، ومن ثم تنظيمه ﷻ كل شيء وفق وجوداته العلمية وتنسيقه له وتعيينه إياه وتصنيفه وتسجيله وتقديره. آخذًا كل ذلك من دائرة علمه إلى دائرة قدرته وإرادته ومشيئته، مظهرًا ذلك الشيء إلى العالم الخارجي، أي عالم الوجود"[٣٤٠].

وفي الشوط التالي يقدم لنا الشيخ فهمه الاصطلاحي لمعاني القدر،

[٣٤٠] القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، الطبعة الخامسة، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م، ص:٩.

ثم يتحدث عن القدر الجبري المهيمن على الكون فيقول: "إن ما ذكرناه -حتى الآن- هو حول القدر الجبري، أي القدر الذي لا يد للإنسان فيه، ولا دخل له فيه. فهذا القدر كوني، لا تؤخذ فيه إرادة الإنسان بنظر الاعتبار. فالله ﷻ يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ولا يُسأل عما يفعل؛ فهو القاهر الجبار. ورغم ما ينطوي عليه كل مخلوق من حكمة إلاّ أن هذه الحكمة ليست مقيدة، لأنه سبحانه وتعالى ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(البروج: ١٦). فالكرة الأرضية منذ الخلق تدور حول نفسها وحول الشمس بسَوق من هذا القدر الجبري. فليس لأحد أن يقول لها: "قفي..". وكذا الشمس والقمر يتسابقان، وليس لأحد أن يمنعهما من هذا التسابق؛ لأن القدر الجبري هو المهيمن في هذا الجريان والتسابق.. فكل شيء خاضع اضطرارًا لهذا القدر"[٣٤١].

والحقيقة أن كل ما يخص الخلق هو مخلوق مسير مجبر من الله قطعًا.[٣٤٢] وقد يحاول الإنسان إبراز إرادته وحريته وهي محاولات من حق الإنسان أن يفعلها ويجد فيها فهو لا يعلم حدود القدر ولاسيما إذا كان لا يعلم أنها من تفاصيل القدر. لكن عليه أن يرضى بالنتيجة وأن يتفاعل معها قائلاً لنفسه: إن حدود طاقتك النسبية قد انتهت، وأنت لست الفاعل المختار، وإمكاناتك نسبية وجزئية، وعليك بأن ترضى بإرادة الفاعل المختار الذي يقول لكل شيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وهنا يبلغ الإنسان مستوى التوازن الكامل وتنظيم حياته بالحفاظ على هذا التوازن. "أما السيئات والذنوب فإن إرادتك الجزئية "شرط عادي" في

---

[٣٤١] القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:١٨.

[٣٤٢] انظر: القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:١٨.

خلقها؛ لذا تقع مسؤوليتها على النفس. ذلك لأنه تعالى خلق ما رغبت عمله ومالت إليه نفسك أو فكرت في القيام به، أو أي تصرف آخر في ميلك ورغبتك. فهذه الأمور لا يمكن أن نفهمها إلاّ بالوجدان والحال. أي أن هناك شاهدًا واحدًا فقط على ما دار في خلدك من ميل أو أي تصرف في ذلك الميل، وهو الوجدان. فالله ﷻ اتخذ وجدانك شاهدًا على علمه"(٣٤٣)، وشاهدًا على عملك: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾(البَقَرَة: ٢٨٤).

وفي أحد أشواط البحث في القدر يبين كاتبنا العملاق أنه "لا تناقض بين القدر وإرادة الإنسان، بل هما "متكاتفتان". فلئن كان دخول الإنسان بحسَناته الجنة وبسيئاته جهنم قضية، فهي قضية تعني بلسان القدر تصديق رب العالمين لها، ومن جانب آخر تأييده لإرادة الإنسان. بمعنى أن في الإنسان قوة تدفعه إلى الخيرات والحسنات ودخول الجنة، أو بالعكس".(٣٤٤) والحقيقة أننا نستطيع أن نقتديَ بهذا المنهاج في جميع أفعالنا، ونتمكن من ذلك إن لم يكن هناك عارض، ويمكننا كذلك أن نتكلم أيضًا عندما نريد قيامنا بأفعالنا، وذلك يثبت وجود إرادة لدينا (الجزء الاختياري أو المشيئة)، فالنتيجة لا تتغير بتغير الأسماء، إذ وجود الإرادة -التي لا نستطيع معرفة ماهيتها- واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.(٣٤٥)

ويتحدث في شوط آخر عن مشيئة الله وإرادة الإنسان أي أنه يثبتها ولا

---

(٣٤٣) انظر: القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٢١.

(٣٤٤) القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٢٢.

(٣٤٥) انظر: القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٢٢.

ينفيها، فـ"على الرغم من كون الإنسان صاحب اختيار وإرادة، فلله الخلقُ والأمرُ، فلا يحدث شيء قطعًا ولا يرد شيء إلى الوجود أصلاً ما لم يصدر الأمر منه تعالى. فلولا قدرته ومشيئته، ما كان زمان ولا مكان [ولا أعمال وأفكار تعين في المكان والزمان وخارجهما]، ولو لم يُرِد دوام ما أوجده، لأصبح كل شيء هباءً منثورًا"(٣٤٦). إن الخالق المريد المختار الفعال لما يريد ﷻ، "هو الذي قلّد جواهر الوجود على جيد العدم، وهو الذي فتح أبواب السماء على ظلمات العدم، وهو الذي جعل الأكوان كلها كالكتاب وكالمعرض، ونوّرها [ثم بث نوره في كل شيء] ليُقرأ الكتاب ويُشاهد المعرض. فالعيون تتفجر بأمره، والسيول تجري بأمره، والجبال تتصدع وتسقط بأمره أحجارًا تتحول إلى تراب، فاتحة صدرها للبذور والنوى"(٣٤٧).

وفي شوط من الأشواط تحدث عن علاقة القضاء بالقدر من حيث العلم الإلهي والتسجيل الإلهي لكل شيء، والقضاء والقدر من حيث المشيئة الإلهية، والقضاء والقدر من حيث الخلق؛ وعلينا أن نرضى بقضائه وأوامره في كتابه المسطور (القرآن)، كما نرضى بها تمامًا في كتابه المنظور (الكون)، فكلاهما شريعة ربّانية منسجمة متكاملة لا تناقض بينهما في الواقع. "إن كل ما يحدث ويجري وكل ما في حياتنا من أحداث إنما يُسجل ويُكتب آنًا بآن"(٣٤٨) ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨)، ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾(الْكَهْف:٤٩)،

---

(٣٤٦) انظر: القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٣٠.

(٣٤٧) انظر: القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٣٠.

(٣٤٨) انظر: القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٦١.

إنه التقدير اليومي من خلال كاتبِين ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(الانْفِطَار:١٢)، كتابة تعيين وتقدير، كتابة استنساخ لوحات قدرية من إمام مبين في كتاب مبين "﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾(الإِسْرَاء:١٣)، بمعنى أن هناك كتابة علمية ليست لها وجود خارجي والتي نُطلق عليها اسم "اللوح المحفوظ"، وكتاب آخر يكتبه الملائكة الكرام والذي له وجود خارجي يُسجَّل فيه كل ما يعمله الإنسان. وفي الحقيقة أن الكتابين متطابقان تمامًا حرفًا بحرف دون فرق مهما كان ضئيلاً"[٣٤٩]. أي أن الإنسان لا يعمل إلا ما قدر له مسبقًا.

يقول الأستاذ كولن: "إن الله سبحانه يعلم بعلمه المحيط بكل شيء كل ما سنفعله في الآتي، ويعيّن ما يعْلمه ويقدّره ويسجله في اللوح المحفوظ على شكل خطة. ثم يسجل الملائكة الكرام أعمالنا في كتب. ويكون الكتابان مطابقين تمامًا. ولا شك أن مشيئة الله هي النافذة في كل ذلك. فنحن أهل السنة والجماعة نعتقد بأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن"[٣٥٠].

وفي شوط آخر من الأشواط أو محطة أخرى من المحطات يعالج علامة العصر الإمام فتح الله كولن علاقة القدر بإرادة الهداية، فيرى أن الهداية على مرتبتين:

يقول كولن: "نرى أن الهداية على مرتبتين أو نوعين حسب بحثنا: الأولى: الهداية الجبرية الجارية وفق متطلبات الشريعة الفطرية. الثانية: الهداية التي تؤخذ فيها إرادة الإنسان بنظر الاعتبار. إن كل موجود عند

---

[٣٤٩] انظر: القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٦١.

[٣٥٠] القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٨٦.

توجهه نحو الهدف أو الغاية المقدرة له وفق قوانين الخلق والفطرة يسلك سلوكًا إجباريًا. والأصح أن نسمى هذا السلوك: "السَّوْق الإلهي". فأول خلق الإنسان ونموه علَقةً في رحم الأم وتحوله من مرحلة جنينية إلى أخرى، كل ذلك يجري حسب هذا السوْق الإلهي. والأمر نفسه جار في المخلوقات جميعها، إذ كلها تجري وفق مصالحها، وهذا معلوم لدى الجميع في أيامنا هذه. ورغم أن الطبيعيين والماديين يطلقون على هذا السَّوْق الإلهي "الغريزة" أو "السَّوق الطبيعي" فإن عالم الوجدان يرى أنه سَوْق إلهي"[٣٥١].

وفي الهداية تأخذ إرادة الإنسان مكانتها، فـ"إن الله يهدي الناس بإرساله وسائل شتى للهداية، فكما أن الأنبياء أسباب ووسائل لهداية الناس فالكتب المنزلة أيضًا أسباب ووسائل للهداية. والذين يسعون في سبيل التبليغ والإرشاد هم وسائل أيضًا بهذا المعنى للهداية. علمًا أنه سبحانه رغم إرساله وسائل شتى للهداية لا يُخضع الناس كرهًا إلى قبول هذه الوسائل، أي لا يضطرهم إلى الإيمان بها اضطرارًا. وحيث إن الأمر هكذا فقد يكون شخص ما وهو في بيت النبوة [مثل نوح وابنه] إلا أنه لا يهتدي. أو يكون معارضًا له، وربما في قصر فرعون يتربى مؤمن آل فرعون وآسيا [و"موسى"، ثم يخرجون من هناك أئمة للمتقين].. وذلك لأن هذا النوع من الهداية يتضح في إرادة الإنسان، فالله سبحانه يخلق جميع الوسائل المؤدية إلى الهداية، ولكن خلقه للهداية فمرتبط بإرادة الإنسان، [واختياره وحريته]. وفي القرآن ثمة الكثير من آيات الهداية

---

[٣٥١] القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٩٢.

منها ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(فُصِّلَتْ:١٧)، بمعنى أن وسيلة الهداية قد بلغت قوم ثمود بواسطة النبي صالح ؈، ولكنهم استحبّوا -بإرادتهم السيئة- الضلالة، وتمرّدوا على الهداية غرورًا وعتوًّا منهم، [وعتوا عن أمر ربهم ومراده الحكيم] حتى أرداهم الله في النار والعذاب الأليم"[٣٥٢].

وفي آخر محطة من محطات القضية يعالج العلامة "كولن" ماهية الإرادة الكلية فيقول: "هي الإرادة الإلهية، أما الإرادة الجزئية: فهي إرادة الإنسان، وقد دل الوحي على أن الإرادة الكلية هي الإرادة الإلهية المحيطة التي تضم بين جناحيها جميع الإرادات، وما تنتجه الإرادة الإنسانية من أفعال وأفكار حضارية معنوية ومادية؛ إنها الإرادة المعبرة عن اسم المريد (والفعّال لما يريد)، والإرادة الإنسانية المقيدة وغير المطلقة والجزئية تنضوي تحت الإرادة المطلقة... دون أن تفقد المساحة المعطاة لها والتي تدخل هي أيضًا في نطاق الإرادة والعلم وليس الأمر والنهي. يقول الأستاذ كولن: "قد قُصد من "الإرادة الكلية" التي أطلقت على الإرادة الإلهية هذه المعاني، وهي أن جميع الإرادة تخص الله ﷻ. فالإرادة هي اسم لإرادته ﷻ. فمتى ما أراد هو ﷻ يخلق ما أراد مِن دون النظر إلى إرادة غيره. وهنا نريد أن نلفت نظركم إلى ما ذكرناه سابقًا وهو: أن البعض يقولون: "يخلق ما يريد ولا يخلق ما لا يريد" وهذا الكلام خطأ. والصحيح: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن"[٣٥٣].

نعم، "فالجبر هو الحاكم في الكون. فعندما خلق سبحانه الكون

---

[٣٥٢] انظر: القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:٩٧-٩٨.

[٣٥٣] القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:١٣٤.

لم يسأل أحدًا ولم يتخذ أية إرادة أساسًا، فهو ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(البروج: ١٦)، ولكنه منَح الإنسان إرادة. هذه الإرادة وسيلة ترقٍّ وتدنٍ للإنسان. فمنْح هذه الإرادة يتعلق باسم الله "الرحمن الرحيم". أي أنه لطْف إلهي بتجلي هذين الاسمين. وإلاّ لو نظرنا إلى الأشياء من زاوية الاسم الأعظم ولفظ الجلالة (الله) فالكون برمته في جبر مطلق. نعم، إن "مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء"... هذه القاعدة سارية المفعول على جميع الموجودات، سوى الإنسان الذي أُعطي له إرادة مجهولة الماهية. فمتى ما صرف إرادته هذه إلى الخير، فالله يخلق الخير، وإذا ما صرفها للشر، فالله سبحانه يخلق الشر إذا شاء. وما ساقَنا إلى الجُرأة في هذا الحكم إلاّ اعتمادنا على رحْمانية ربنا ورحِيميَّته"[٣٥٤].

---

[٣٥٤] القدر في ضوء الكتاب والسنة، فتح الله كولن، ص:١٣٤، ١٣٥.



حقيقة الخلق ونظرية التطور
في فكر الأستاذ كولن[٣٥٥]

يرجع تاريخ نظرية التطور -أو بتعبير أدق "أسطورة التطور" - إلى اليونانيين القدماء. وفي القرن التاسع عشر طرحت بشكل موسع وعرفت طريقها إلى الأوساط العلمية بفضل تشارلز دارون الذي نشر في سنة ١٨٥٩م كتابه الشهير "أصل الأنواع"، وذهب فيه إلى أن الكائنات الحية الموجودة على الأرض لم يخلقها الله، ولم يوجد أحدها مستقلاً عن الآخر، بل إن المخلوقات جميعًا تشترك في أصل واحد، انبثقت منه، وبمرور الزمن حصلت لها تغيرات حتى أصبحت على ما هي عليه الآن.[٣٥٦]

ولم يكن لمزاعم هذه النظرية أي سند علمي يمكن أن تحتج به وتقوم عليه ومن ثم فقد رأينا هذه الأسطورة تتهاوى أركانها وتسقط مزاعمها يومًا بعد يوم، ويجمل عالم الأحياء المشهور "ميشيل دانتون" في كتابه "نظرية في أزمة " أسباب انهيار هذه النظرية فيما يلي: ١-عجزت النظرية عن تفسير كيف بدأت الحياة على وجه الأرض. ٢-إن ما عرضته النظرية

---

[٣٥٥] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، ط:١، القاهرة ٢٠٠٤م.

[٣٥٦] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، مقدمة المترجم، ص:٥-٦.

أمامنا من آليات للتطور والنشوء والارتقاء لم تكن في الحقيقة مولدة لأي تطور. ٣-أثبتت المتحجرات عكس ما زعمته نظرية التطور.[٣٥٧]

وليس يخفى ما تنطوي عليه هذه النظرية المتهافتة من تناقض سافر مع الشرائع والأديان، ولعلها النظرية العلمية الوحيدة التي تؤدي إلى الإلحاد، لأنها تدعي القيام بتفسير الكون والحياة دون الحاجة إلى الخالق، وتقف حائلاً بين الناس وبين الإيمان بالله. ومن هنا رأى فضيلة الشيخ العلامة محمد فتح الله كولن أن واجبه كداعية يحتم عليه فضح هذه النظرية التي فتنت كثيرين عن دينهم وردتهم من بعد إسلامهم كفارًا وملاحدة، فتناولها بالشرح والتفنيد، وأظهر عوارها العلمي بالحجة والدليل.[٣٥٨]

وقد عالج العلاّمة فتح الله كولن بفقهه في العلوم الشرعية والنظريات العلمية "حقيقة الخلق ونظرية التطور"، ونوَّه بتقدم الحركة العلمية في الغرب وأثرها في إماطة الحجاب عن كثير من القضايا المتعلقة بالإنسان والكون، ونعى على المراكز العلمية في العالم الإسلامي تقصيرها وركونها إلى الكسل وتقليد الغرب، والتسليم بما يروجه من أفكار ونظريات، دون بحث أو تمحيص. ومن الأمثلة الدالة على هذا التقليد الأعمى، إذعان طائفة من علماء المسلمين لمقولات نظرية "النشوء والارتقاء" أو "الانتخاب الطبيعي" والتي جهر بها دارون ومن سلك سبيله في منتصف القرن التاسع عشر، على ما فيها من إزراء بقيمة الإنسان ومكانته في الكون.

إن الأشياء وفقًا لهذه النظرية "لعبة بيد الصدف العمياء تتطوح ذات اليمين وذات الشمال، وكأن الأحياء لقمة بسيطة وسائغة بين الأسنان

---

[٣٥٧] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧-٨.

[٣٥٨] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧.

الوحشية لـ "الانتخاب الطبيعي"، أما الإنسان فقد هوى بمكانته، وجُعل في مقعد متفرج نكد الحظ يتفرج على حلبة الموت"[٣٥٩].

ويشير كولن إلى أن نظرية التطور "نظرية خيالية" لا يؤيدها دليل صادق أو برهان منير، وإذ تهاون العلماء المسلمون في دراسة هذه النظرية وتفنيد أسسها، غدا من حق الدعاة ورجال الدين مناقشتها وبيان عوارها لتحذير الناس من الوقوع في أسر مقولاتها ولا سيما بعد أن أصبحت حائلاً أمام الإيمان.[٣٦٠]

ويتعجب كولن من مسلك نفرٍ من علماء الدين حاولوا التوفيق بين نظرية التطور ومعاني الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة الواردة في موضوع الخلق، مثل العلامة حسين الجسر[٣٦١] حول هذا الموضوع فأجاب قائلاً: "إن هذه المسألة لا تزال في طور النظرية، ولكن إن تمّت البرهنة عليها في المستقبل، فإننا سنقوم آنذاك بتوفيقها مع الآيات القرآنية"![٣٦٢]"[٣٦٣]

أما الأستاذ فتح الله كولن فيرى أنه "من المستحيل التوفيق بين أفكار دارون ونظرية التطور مع الآيات القرآنية أبدًا، لأن دارون يقول بأن الحياة

---

[٣٥٩] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٠-٢١.

[٣٦٠] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٢.

[٣٦١] العلامة حسين الجسر: هو جد المفتي الأسبق في لبنان المرحوم نديم الجسر صاحب الكتاب المشهور "قصة الإيمان". وقد تناول العلامة حسين الجسر موضوع نظرية التطور في كتابه المشهور "الرسالة الحميدية". وسمي كذلك لأنه ألفه وأهداه إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وتناول الرد على شبهات الملحدين، وهو كتاب نفيس وحاز على اعجاب السلطان والعلماء.

[٣٦٢] قصة الإيمان لنديم الجسر، ص:٢٠٤-٢١٥.

[٣٦٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٢-٢٣.

نشأت بالمصادفات العشوائية نتيجة عدة عوامل، في حين أن الإحياء والإماتة فعلان خاصان بالله تعالى"[٣٦٤].

وأشار الأستاذ في سياق تعريفه بنظرية "النشوء والارتقاء" إلى آراء مشابهة لما طرحه دارون، نجدها لدى "كانط" و "باكون" و "هيجل"[٣٦٥].

وكذلك طرح العالم الفرنسي لامارك فكرة التطور البيولوجي قبل دارون في كتابه فلسفة علم الحيوان، وقد نشر هذا الكتاب سنة ١٨٠٩م وهي السنة التي ولد فيها دارون.[٣٦٦]

ويبين "كولن" العوامل الفكرية التي ساقت دارون إلى طرح نظريته، ويجملها في ثلاثة عوامل؛ هي:

١- كتاب القس الإنجليزي "مالتوس" تجربة حول السكان"، الذي نشر عام ١٧٩٨م، وقد بين فيه أن زيادة السكان تعد عاملاً من عوامل الفقر (نظرية مالتوس) الكاذبة.[٣٦٧]

٢- كتاب "حول القانون الذي ينظم ظهور الأنواع الجديدة" لمؤلفه "ألفريد رسل والاس"؛ ويعرض لفكرة الصراع بين الأحياء في الطبيعة.[٣٦٨]

٣- كتاب العالم الفرنسي "لا مارك"[٣٦٩].

وقد شرح شيخنا العلامة "كولن" الأسس الأربعة الرئيسية التي تستند إليها نظرية دارون وهي:

---

[٣٦٤] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٣.

[٣٦٥] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٦.

[٣٦٦] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٨.

[٣٦٧] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٨.

[٣٦٨] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٩.

[٣٦٩] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٢٩.

١-دعوى التطور والتشابه الموجود بين الأحياء.[٣٧٠]

٢-الزعم بأن الأعضاء غير المستعملة ستضمر بمرور الزمن، وأن الصفات المكتسبة فيما بعد عند الأحياء تنتقل إلى ذرياتها وأنسالها حسب نظرية "لامارك".[٣٧١]

٣-الزعم بأن الجنين في رحم الأم يمر بمراحل تطور شبيهة بمراحل النمو التي تمر بها الأجنة للحيوانات الفقرية الأخرى.[٣٧٢]

٤-الاستعانة بالمتحجرات من أجل البرهنة على صحة نظرية التطور.[٣٧٣]

يقول كولن: "فلكي تتم البرهنة على أن الإنسان قد أتى من سلف قردي، وأن الأنواع تتحول من نوع إلى نوع آخر، فقد ظهرت الحاجة للاستعانة بالمتحجرات للعثور على الحلقات الوسطى وعلى المراحل الانتقالية الموجودة بين الأنواع"[٣٧٤].

ويشير "كولن" إلى أنه لم يُعثر حتى الآن على متحجرة واحدة كأنموذج على أي مرحلة انتقالية أو حلقة وسطى بين الأنواع، فعلى سبيل المثال فإن المتحجرة التي سماها التطوريون "آركيوباتركس" وزعموا أنها الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور، ليس لها أي قيمة علمية، باعتراف التطوريين أنفسهم.[٣٧٥]

---

[٣٧٠] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٣١.

[٣٧١] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٣٥.

[٣٧٢] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٣٩.

[٣٧٣] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٤٥.

[٣٧٤] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٤٦.

[٣٧٥] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٤٧.

ومع ذلك فإن الفتنة بنظرية التطور والانشغال الكبير بها في المحافل العلمية ما زال مستمرًا، وما ذاك إلا لأنها سلاح من الأسلحة التي شهرها المادّيون الملحدون في وجه الإيمان بالله. لقد خرجت نظرية التطور من كونها مسألة علمية وتحولت إلى مسألة أيديولوجية وإلى عقيدة.[٣٧٦]

وقد بلغ خداع التطوريين مداه في تلك الأشكال المضحكة التي أقحموها على الكتب الدراسية لشرح نظرية التطور، فترى في هذه الأشكال "شكل قرد ثم شكل ربع قرد، ثم نصف قرد ونصف إنسان، ثم ثلاثة أرباع الإنسان، وأخيرًا صورة شخص أوروبي في منتصف العمر. وكل هذا خداع في خداع. فلماذا تطوَّر ذلك القرد يا ترى ولم تتطور بقية القردة؟ ولماذا ظهر في الأخير رجل في منتصف العمر، ولم تظهر امرأة؟ وكيف تم تطور المرأة؟ وهل تطور قرد واحد، أم تطورت قرود عديدة في الوقت نفسه؟ ولماذا لم تتطور القرود مرة أخرى في الأماكن التي احتشدت فيها القرود بمحض المصادفة وتطورت؟ وأي قسطاس علمي يرضي بأن تتم الإجابة على كل هذه الأسئلة -التي تبين الثغرات العديدة الموجودة في هذه النظرية- بالمصادفات وبالفرضيات؟"[٣٧٧]. نعم، "إن جميع الدلائل تشير إلى وجود قدرة وعلم وإرادة لا نهائية هي التي خلقت سلسلة الحياة هذه. أليس هذا أفضل وأليق وأكثر علمية؟"[٣٧٨].

وتعرض الأستاذ فتح الله كولن لقضية "الطفرات"[٣٧٩] بوصفها مرتكزًا

---

[٣٧٦] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧٢.

[٣٧٧] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٥٣.

[٣٧٨] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٥٣.

[٣٧٩] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٥٣-٦٣.

أساسيًا من مرتكزات نظرية التطور، وهي مجرد "فرضية تزعم أن التغيرات الحاصلة في شفرات جينات الكائن الحي عن طريق المصادفات أو عن طريق ظروف البيئة تكون إحدى عوامل التغيير عند الانتقال من نوع إلى آخر"[٣٨٠]. "ويزعم التطوريون الجدد أن هذه التغيرات تتلاحق وتتجمع مما يؤدي في النهاية إلى ظهور كائن جديد". ويفنّد الشيخ كولن هذه الفكرة تفنيدًا علميًّا رصينًا، ويظهر بطلان الأساس الذي قامت عليه سواء في عالم الإنسان أم الحيوان والنبات.

ومن الأسس التي استند إليها أصحاب نظرية التطور فكرة "الانتخاب الطبيعي"[٣٨١]، وخلاصة هذه الفكرة "أن الأحياء التي لا تستطيع مقاومة المصائب الطبيعية المختلفة وكوارثها تنقرض وتزول من مسرح الحياة، ولا يبقى هناك إلا الأحياء القوية المقاومة للظروف الطبيعية المختلفة"[٣٨٢].

ويرى كولن -بحق- أنه ليست هناك علاقة بين هذا الأمر والتطور؛ إذ "ليس ثمة دليل على أن أي نوع من الأحياء التي بقيت بعد الكوارث قد غير نوعه. ومع أنه يشار إلى أن أنواعاً معينة من الأحياء قد انقرضت، إلا أن متحجرات هذه الحيوانات المنقرضة لم تظهر للوجود كأنواع جديدة"[٣٨٣].

إن الأصل في الحياة هو التعاون، أما الصراع الذي ينتهي ببقاء الأقوى وزوال الأضعف فشيء ثانوي ليس من صميم الحياة.[٣٨٤]

---

[٣٨٠] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٥٤.

[٣٨١] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٦٦-٧١.

[٣٨٢] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٦٦.

[٣٨٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٦٦.

[٣٨٤] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٦٧.

وكما يقرر كولن "ليس من الغريب أن يكون الشيوعيون من أكثر المادّيين ارتباطًا بنظرية التطور وإيمانًا بها ودفاعًا عنها، لأن نظرية التطور هي أساس من الأسس التي يستند إليها الإلحاد"[٣٨٥].

نعم، "وعلى الرغم من زعم التطوريين حول الانتخاب الطبيعي، فإن الكوارث الطبيعية التي لا قبل لأحد في مواجهتها كالسيول والزلازل وما يتبعها من خراب وانهدام لا تقضي على الأفراد الضعفاء من الأحياء فقط، بل تقضي حتى على أقوى الأقوياء منها. فمثلاً نرى أن موجة بحرية عاتية تضرب الآلاف من الأحياء الضعيفة منها والقوية بالصخور وتقضي عليها، أو تسحبها إلى البحر وتغرقها"[٣٨٦].

وأخيرًا: "فإن علم المتحجرات (البالانتولوجيا) يقرر -بنقيض نظرية التطور- أن الأحياء البدائية كالأحياء وحيدة الخلية عاشت مع الأحياء المعقدة التركيب كالضفادع والزواحف والثدييات"[٣٨٧] ولم تنقرض وفقًا لفكرة الانتخاب الطبيعي كما زعم التطوريون.

ومن أسس نظرية التطور التي فندها العلامة كولن فكرة "الظهور التلقائي للوجود نتيجة المصادفات"[٣٨٨]، "فقد أسند دارون أساس الوجود إلى المادة وإلى الذرات وإلى الروح الخلاقة الموجودة فيها. لذا يعد دارون -بوجه من الوجوه- من أنصار "وحدة الوجود"[٣٨٩].

---

[٣٨٥] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٦٧.

[٣٨٦] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٦٩.

[٣٨٧] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧٠.

[٣٨٨] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧٢-٧٧.

[٣٨٩] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧٢.

"إن المادة عند التطوريين أزلية وخالقة"[٣٩٠]، وهي تحتل في نظريتهم الإلحادية موقع الخالق ﷻ. وقد فنّد كولن هذا "الزعم القائل بأن الوجود بأكمله يستند إلى المادة"[٣٩١]، ويصفه بأنه "أجهل زعم على مر التاريخ"[٣٩٢]. وحديث كولن في هذه النقطة ينبئ عن ثقافة علمية وفلسفية رصينة ليس من المعهود أن نصادفها في رجل من رجال الدعوة.

وبعد أن يفند كولن فكرة "المصادفة التلقائية"[٣٩٣] يقول: "والخلاصة: أن الكرة الأرضية والحياة الموجودة عليها تتطلب آلية مذهلة وعلمًا وإرادة وشعورًا وقدرة بحيث يستحيل هذا على المصادفات العشوائية، وعلى المادة الصماء والعمياء والخالية من الحياة ومن الشعور ومن العلم. إن إسناد هذا الأمر إلى المصادفة أو إلى المادة أو إلى أي كائنات أخرى يعد إنكارًا للعقل وللإنصاف وابتعادًا عنهما"[٣٩٤].

ويورد كولن في هذا السياق مثالاً بالغ الدلالة، فيذكر أن المؤمنين بنظرية التطور، مثلهم كمثل من دخل مصنعًا للأدوية، فأخبروه أن جميع الأدوية الموجودة، نشأت بفعل ريح هبت فأسالت المواد الأولية وكونت الأدوية المطلوبة بالمقادير الدقيقة لكل دواء. فهل يؤمن بذلك عاقلٌ؟[٣٩٥]

إننا -في رأي كولن- لا نستطيع أن نصف أصحاب نظرية التطور بأنهم من أهل العلم؛ لأن "العلم الحقيقي هو الذي يفتح لصاحبه أبواب

---

[٣٩٠] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧٢.

[٣٩١] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧٣.

[٣٩٢] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧٣.

[٣٩٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٧٨-٨٥.

[٣٩٤] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٨٠.

[٣٩٥] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٨٠.

الإيمان والحق ويبصره بالطريق إلى الله، أما العلم المطبوع بطابع الغرور والمكابرة والإصرار على الخطأ، فينتهي بصاحبه إلى الكفر والإلحاد"[٣٩٦].

ولعل السبب الحقيقي الذي حمل التطوريين على التمسك بفكرة المصادفة والظهور التلقائي إنما هو العجز عن تفسير كيفية ظهور الحياة.[٣٩٧] "ولقد وقع التطوريون في ورطة كبيرة حين ادّعوا أن مثل هذا النظام الدقيق المحكم للحياة قد ظهر فجأة إلى الوجود عند بداية ظهور الحياة على وجه الأرض"[٣٩٨]. "إن هذا الادعاء يناقض فكرة التطور نفسها التي هي أساس نظريتهم"[٣٩٩].

ومن تناقضات التطوريين -كما يذكر كولن- "أنهم رغم قولهم بالمصادفة العمياء والظهور التلقائي يؤمنون بالقوانين الصارمة التي تحكم حركة الوجود"[٤٠٠].

ولا ريب أن وجود هذه القوانين يقتضي وجود واضع لهذه القوانين؛ يقول كولن: "إن عدّ القوانين -دون أخذ واضع هذه القوانين بنظر الاعتبار- أساسًا للوجود يشبه المثال الآتي الذي ضربه أحد المفكرين المرموقين: دخل رجل أحمق إلى قصر كبير، فرأى أن هذا القصر المنيف قد زين وأثث بأفخم أثاث وأجمله، فهناك الطنف والمناضد والكراسي والفرش والمزهريات والورود واللوحات الفنية والمدافئ، وما يحتاجه

[٣٩٦] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٨٥.

[٣٩٧] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٣٧.

[٣٩٨] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٨٨.

[٣٩٩] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٨٨.

[٤٠٠] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٩٠. (بتصرف)

المطبخ من أشياء وأغراض ... والخلاصة وجد كل شيء في مكانه الصحيح. وبينما كان هذا الرجل الأحمق يتجول في أرجاء القصر ويفكر بمن قام بكل هذا التأثيث والتزيين، ولكنه لم يجد أحدًا، وإذا به يرى كتابًا فوق منضدة. كان الكتاب يحتوي على برنامج تأثيث القصر. قال الأحمق: لقد وجدت ما كنت أبحث عنه ... هذا الكتاب هو الذي قام بتأثيث هذا القصر"(٤٠١).

ويشير "كولن" إلى سبب آخر من الأسباب التي أضلت الدارونيين وهو: "نظرهم إلى مسألة ما من زوايا عدة علوم مختلفة مع أن الواجب ألا يقع أي علم من العلوم في تناقض مع علم آخر، أي إنه يجب ألا تتناقض علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان والجيولوجيا وعلم المتحجرات فيما بينهما عند القيام بتفسير الوجود"(٤٠٢).

إن التناسق الرائع والتلاؤم البديع والدقة المتناهية التي نجد آثارها وشواهدها في نظام الكون والحياة تدحض مزاعم أصحاب نظرية التطور التي تعزو نشأة الكون وظهور الحياة إلى المصادفة العشوائية والظهور التلقائي.(٤٠٣)

إن الفكر المادي المجرد ارتضى أصحابه والمبشرون به الإلحاد دينًا وعقيدة، وكانت قضية إنكار الله تمثل الحيز الأكبر من تفكيرهم المريض. أما أصحاب العلم الحقيقي القائم على الموازنة السليمة بين الروح والمادة، بين الغيب المحجوب والواقع المشهود فيؤمنون بأن

(٤٠١) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٩٠

(٤٠٢) حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:٩٧

(٤٠٣) انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٠٣

"الوجود كله مرتبط بقوانين معينة من صنع قدرة لا نهائية سامية فوق كل شيء"[٤٠٤]. "والحقيقة أن جميع الاكتشافات الحديثة للعلم تبين أن المادة ليست رقيبة ومسيطرة على كل شيء مثلما يدعي الماديون، وليست جميع الأشياء عبارة عن دورات للمادة والطاقة؛ ولكن خلق الوجود واستمراره أمر معقد بدرجة كبيرة بحيث يستحيل تفسيره بالمصادفات أو عزوه إليها"[٤٠٥]. "إن القدرة اللانهائية هي التي تدفع الموجودات من ظلام العدم إلى الوجود.. وهي التي تدفع الموجودات بعد خلقها نحو الغايات التي خلقت من أجلها"[٤٠٦].

وفي المقابل فإن القرآن الكريم يحفل بكثير من الآيات التي اتخذت من مظاهر الحياة وعناصرها أدلة على وجود الله وعلى طلاقة القدرة الإلهية؛ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾(النَّحل:٦٦). وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾(الْحِجْر:٢٢). وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾(النُّور:٤٣). وهذه الآيات وما ورد على شاكلتها في القرآن الكريم لا تفهم حق الفهم إلا في ضوء الحقائق العلمية التي ألم

---

[٤٠٤] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٠٩

[٤٠٥] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٠٩

[٤٠٦] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٠٩

بها الإنسان في المجتمع الحديث.[٤٠٧]

وبعد أن أشار كولن إلى الجوانب الإعجازية في مثل هذه الآيات انتقل إلى التصور القرآني للخلق[٤٠٨] من خلال أربع آيات فقط تدور حول نشأة الإنسان، ومهّد لذلك بإيراد تقييم عام للآيات المتعلقة بالخلق في القرآن، فشرح كيفية خلق الله لآدم عليه السلام أبي البشر.. كما عرض للمراحل المتعاقبة التي يمر بها الجنين في بطن أمه، وبين أن الغاية من استمرار الحياة في الأرض إنما هي معرفة الله عز وجل والعبودية له؛ "لذا كان على الإنسان أن يعلم -تجاه هذه المشيئة الإلهية- أن عليه القيام بوظيفة معرفة خالقه وتعريفه للآخرين وحبه وتحبيبه، لكي يوفي بجزء من الشكر الواجب عليه حيال من جعله في أحسن تقويم"[٤٠٩].

أما بعض الآيات التي شرحها كولن فهي قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(البَقَرَة:٣٥). ومدار تفسير كولن هذه الآية أنه "لو كان التطور صحيحًا ومتحققًا لما بدأ القرآن بتناول الظهور الأول للإنسان بالحديث عن آدم وحواء عليهما السلام"[٤١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آلِ عِمْرَان:٥٩). وفي ضوء هذه الآية الكريمة، "فلم يكن هذا الخلق -كما يدعي التطوريون- مرتبطًا بمرحلة معينة أو بقانون أو تكيف

[٤٠٧] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١١١-١١٥.

[٤٠٨] انظر: حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١١٦-١٢٢.

[٤٠٩] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١١٨.

[٤١٠] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١١٨.

أو بطفرات معينة"[٤١١]. "وهذه الآية تذكر بشكل واضح لا لبس فيه أن آدم هو أب للبشرية وأنه خُلق من قبل الله تعالى بشكل إعجازي"[٤١٢].

"وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الْحِجْر:٢٩). عندما نتأمل هذه الآية والآيات السابقة التي أوردناها، نرى أن آدم عليه السلام لم يُسند إلى أي منشأ آخر خارج التراب والماء، أي خارج عناصر الأرض، وأنه لم يمر بمراحل تطورية من دود إلى ضفدع وطائر وحصان وقرد. وكما أن الوجود المادي للإنسان يستند إلى العناصر الآتية من الهواء والماء والتراب، فالله تعالى خلق آدم عليه السلام على نفس النمط من العناصر المترشحة من هواء وماء وتراب الأرض؛ لكي يشكل هيكله المادي، ويعين ماهيته المستقلة، ثم نفخ فيه من روحه في إحدى هذه المراحل، ولكن دون أب ولا أم"[٤١٣].

"وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النِّسَاء:١). إن الناس جميعًا يرجعون إلى "نفس واحدة" ويرفض القرآن أن يكون مرجعهم إلى سلسلة من الآباء"[٤١٤]، مرت بمراحل متعاقبة من التطور، كما يزعم الملاحدة من أصحاب نظرية التطور.

---

[٤١١] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٢٠.

[٤١٢] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٢٠.

[٤١٣] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٢١.

[٤١٤] حقيقة الخلق ونظرية التطور، فتح الله كولن، ص:١٢٢.



روح الجهاد وحقيقته في الإسلام في فكر الأستاذ كولن[٤١٥]

ليست القضية اليوم أن تكتب كتبًا، أو تنشر مقالات ودراسات أكاديمية ميتة -لا روح فيها- تبدو كما لو كانت مجرد إظهار لمعلومات قديمة، أو لجمع معلومات متفرقة، أو لتحقيق بعض نصوص لم يحققها الآخرون دون نظر إلى النتائج المرجوة، والأهداف التي يحتاج إليها الظرف الحضاري، والتحديات والأوليات التي تفرض نفسها على عقل الأمة ووعيها ومسيرة مستقبلها. ولربما عجز صاحب هذا المنهاج عن أن يجيب على سؤال خطير مثل هذا السؤال: "ماذا كسب من وراء جهوده لآخرته؟ وماذا كسبت أمته -وثوابته الحضارية- من وراء جهوده؟".

إنه سيعجز -بيقين- عن الإجابة على سؤال من هذا النوع، لأنه لم يضع هذه "الموازين" في حسابه، بل اندفع لتحقيق أهداف أخرى، وقد حققها فعلاً في رأيه الشخصي، وفي رأي قوانين المنفعة البرجماتية.

لكن كتابات أخرى يضع أصحابها في أذهانهم وفي وعيهم أهدافًا كبيرة وهم يكتبونها على رأسها: رضا الله، والفوز في الآخرة، وخدمة الأمّة المسلمة، ودفع قطار نهضتها خطوات إلى الأمام. ومؤلفنا الكبير

---

[٤١٥] مجلة حصاد الفكر، العدد:١٢٩ (نوفمبر ٢٠٠٣)، ص: ٥٩-٧٠.

"فتح الله كولن" أطال الله عمره على رأس هؤلاء.

ويمثل كتاب "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام"[٤١٦] مجموعة من الدروس الدعوية ألقاها المؤلف "فتح الله كولن" في مدينة "إزمير" التركية قبل عام ١٩٨٠م. وذلك في وقت حافل بالاضطراب والفوضى في تركيا وفيما حولها من بلاد المسلمين.

تعريف بالمؤلف

وفي البداية ثمة تعريف وجيز بالكاتب الكبير، ومنه نعرف أن الداعية الكبير "فتح الله كولن" ولد عام ١٩٣٨م في قرية "كُورُوجُكْ" التابعة لمحافظة أرضروم التركية، وقد نشأ في عائلة متديّنة، ودرس على أبيه اللغة العربية والفارسية، وحفظ القرآن الكريم في صباه.

وقد درس على علماء بارزين علوم النحو والبلاغة والفقه والعلوم الوضعية والفلسفة الغربية والشرقية، ومن ثم عمل واعظًا متجولاً، يمتدّ نشاطه عبر محافظات تركيا كلها.

ولم يكتف الشيخ كولن بالاتصال المباشر بينه وبين الجماهير في أحاديثه الوعظية، بل قام تلامذته بتسجيل دروسه على شرائط كاسيت، وفيديو، أذاعوها في أنحاء تركيا وخارجها، فكان لها تأثير كبير في غرس البذور الإيمانية.

وقد اقتحم بقوة وجدارة عالم تأليف الكتب والرسائل، فأصدر أكثر من ٨٠ كتاب في العلوم الإسلامية ترجم بعضها إلى الإنجليزية والروسية

---

[٤١٦] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل، القاهرة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

والألمانية واليابانية والعربية، وقد طبع من كل كتاب من هذه الكتب ملايين النسخ داخل تركيا وحدها، وما زال الكثير منها يحتاج إلى الترجمة للعربية بخاصة واللغات الحية الأخرى بعامة.

بين يدي الكتاب

في مقدمة الكتاب يُنبّه المؤلف إلى حقيقة هامة وهي: أن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(الفتح:٢٨)، لأن هذا النبي الخاتم وحده هو الذي جاء بنظام شامل يرفع الإنسان إلى ذروة الإنسانية، ويرتقي بالإنسان إلى أعلى مراتب الكمال التي لا تساويه فيها حتى ملائكة السماء إن هو استطاع القيام بالتكاليف، وحمل الأمانة على النحو الإسلامي الرشيد. ولهذا كان من الواجب على المسلمين أن يبذلوا الجهد لنشر هذا الدين، ولن يتم القيام بهذا "البلاغ الحق" إلا إذا تشبّعت نفوس المسلمين بحب الجهاد بمعناه الشامل، حتى يفيض النور إلى غيرهم، كما تنتقل أشعة الشمس -هادئة مضيئة- إلى الإنسانية كلها.

والجهاد يتحقق ببذل الجهد والمال والنفس، وهو ليس فرضًا على الرجال وحدهم، بل هو مسؤولية كل مسلم ومسلمة حاز على شروط التكليف.

ولقد قُسّم الجهاد في بعض الآثار الواردة إلى قسمين: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر، وهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة، تهدف إلى إعلاء كلمة الله تعالى، كما يوضح المؤلف.. وعلى المسلم الصادق أن يجاهد نفسه أولاً، ويحملها على طاعة الله، حتى ترتفع إلى مستوى الإنسانية الحقة بالالتزام بأوامر الله، والانتهاء عن نواهيه، وهذا هو ما

يسميه بعضهم اعتمادًا على أثر وارد "الجهاد الأكبر".[٤١٧]

أما "الجهاد الأصغر" فهو -من جانب- جهاد الإنسان بماله ونفسه في سبيل الله حفاظًا على مقدساته، وذلك إذا اقتضى الأمر قتال الأعداء وجهًا لوجه دفاعًا عن الدين والعرض والوطن والمال.[٤١٨]

إن على المسلم أن يبدأ الجهاد بنفسه أولاً، ومن ثم يظل مع نفسه في جهاد مستمر حتى يحب ما عند الله، ويسعى إلى السياحة في منازل الآخرة وهو لا يزال في الدنيا، ثم بعد ذلك يسعى لإسعاف القلوب الظمأى إلى الحق والحقيقة، فبجهاده لنفسه أولاً ولغيره ثانيًا، وهذا جانب آخر من جوانب الجهاد الأصغر.[٤١٩]

ولأن الله تعالى أرسل محمدًا ﷺ إلى الناس كافة، فإن المسلم مكلف بأداء فريضة الجهاد عن طريق الإرشاد والتبليغ والدعوة المستمرة -بكل الأساليب المتاحة- إلى الإسلام. ومن الجدير بالذكر أن كل إنسان مكلّف بأداء هذه الفريضة ضمن إطار موضعه، وموقعه، وأحواله، وحسب إمكانه، وإلا كان مقصِّرًا في حق الإسلام.[٤٢٠]

وعلى المسلم أن يسعى لفكّ الحصار المضروب عليه من أجل أن يجد فرصة للتعبير عن حقائق دينه، ولرفع راية هذا الدين.[٤٢١]

والتاريخ يشهد أن المسلمين، سواء من خير القرون أم من القرون التي

---

[٤١٧] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٤.

[٤١٨] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٤.

[٤١٩] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٥.

[٤٢٠] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٥.

[٤٢١] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، مقدمة الكتاب، ص:٦.

تلتها لم يظلموا أحدًا قط في جهادهم مع أعدائهم، ولم يعتدوا على أحد، ويكفى أن عدد القتلى من المسلمين -بل من الطرفين- كما يذكر الأستاذ محمد حميد الله في كتابه "غزوات الرسول ﷺ" لم يتجاوز عددها أربعمائة شخص طوال ثلاث وعشرين سنة من حياة الرسول الجهادية عليه الصلاة والسلام.[٤٢٢]

الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، وأسباب الموجبة للحرب هي الدفاع، لقد أذن الله تعالى للمسلمين بالجهاد المسلح (القتال) للدفاع عن أنفسهم، وللدفاع عن من هم في ذمتهم، وللحد من الظلم، ولفتح باب حرية التبليغ الصحيح بحقائق الإسلام.[٤٢٣]

وقد قسم المؤلف الكبير الكتاب إلى ستة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الجهاد

بيّن الأستاذ فتح الله أن "الجهاد الأصغر" (بمعناه القتالي) ليس إلا تنفيذا عمليًّا لأوامر الدين بشروط وقيود، وهو مجرد جزء من الجهاد. وأما الجهاد الأكبر فهو: "إعلان الحرب على جميع العوائق الكامنة في النفس الإنسانية، والتي تعيق المسلم عن الكمالات من حقد وغلّ وحسد وأنانية وغرور وكبر وفخر وأمثالها من الأمور التي جبلت عليها النفس الأمارة بالسوء"[٤٢٤].

فهذا الجهاد عسير وشاق، ولهذا سُمّي بـ"الجهاد الأكبر"، ولأنه يستمر

---

[٤٢٢] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، مقدمة الكتاب، ص:٧.

[٤٢٣] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٧.

[٤٢٤] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، مقدمة الكتاب، ص:٢٨.

العمر كله. وقد كان السلف الصالح (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) يجمعون بين الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر تطبيقًا لقول رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله»[٤٢٥].

لقد كانوا فرسانًا بالنهار ورهبانًا بالليل، فلم ينسحبوا إلى الزوايا أو ينشغلوا بالذكر وحده بمعناه المحدود، بل كانت حياتهم كلها ذكرا، وقد اندمجوا في المجتمع، وساروا بين الناس، فكان الجهاد الأكبر طريقًا لتيسير الجهاد الأصغر على النفس. فالنفس المجاهدة العمر كله يسهل عليها الجهاد لأيام أو شهور معدودة.[٤٢٦]

ومن الرؤى الجديدة المتصلة بمفهوم الجهاد ما يراه المؤلف الكبير من "أن مفهوم الجهاد قد كسب ميزة أخرى بظهور الإسلام، إذ صار علَمًا على تحقيق إيصال الإنسان إلى الله (سبحانه وتعالى) بإزالة العوائق بينه وبين الله تعالى، وحيثما يذكر الجهاد في الوقت الحاضر يرِد هذا المعنى على البال"[٤٢٧] أو يجب أن يرد هذا المعنى على البال بالتعبير الصحيح.

"ونتيجة لهذا يجب أن يتجه الجهاد -في مستوييه- إلى جهتين اثنتين: الأولى موجهة إلى الداخل، والأخرى موجهة إلى الخارج. ويمكننا أن نعرّف كلاً من الجهادين بالآتي: إنّ بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية إيصال الإنسان إلى ذاته وإلى ربه، أما الجهاد الآخر الموجّه إلى

---

[٤٢٥] الترمذي، فضائل الجهاد ١٢؛ كنز العمال للهندي، ١٤١/٣.

[٤٢٦] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٣٦.

[٤٢٧] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢١.

الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلى ربهم"[٤٢٨].

"والجهاد من زاوية أخرى هو غاية الإنسان، فلا مهمة على الأرض أفضل منه، إذ لو كان الأمر بتلك الوظيفة فجميع الأنبياء والأصفياء منذ آدم (عليهم السلام) قد بلغوا -بصورة عامة- مرتبة الأصفياء والاختيار، إما تحت ظلال السيوف أو بمحاسبة النفس. ومن هنا فالبون شاسع بين القاعدين عن الجهاد بغير عذر، وبين المجاهين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، لا يصدّهم أي عمل كان عن الجهاد[٤٢٩].

ونحن نفهم من كلام المؤلف الكبير أن المسلمين في مكة لثلاثة عشر عامًا، من بقي منهم فيها ومن هاجر إلى الحبشة كانوا في "جهاد أكبر"؛ لأن مكة تعدّ أصعب مراحل الجهاد الإسلامي بالنسبة لجيل الصحابة (رضوان الله عليهم)، وقد كانت أكثر وطأة على نفوسهم من مرحلة المدينة، وهذا يعني أن الجهاد الأكبر أصعب من الجهاد الأصغر، وأنه أيضًا يضم بين جوانحه صورًا من الجهاد الأصغر، قد تكون أقسى على النفس من لحظات القتال المباشر التي اصطلح على أنها "الجهاد الأصغر"؛ لأنها جهاد الساعات الأخيرة من مراحل جهادية إيمانية طويلة وصعبة.

يقول المؤلف الفاضل: "إن الأحداث تبين أن الظروف المحيطة بالمسلمين في مكة بلغت حدًّا لا يطاق، حتى نفدت طاقة بعضهم فأمروا بالهجرة،[٤٣٠] بمعنى أن جهاد هؤلاء -في هذا الظرف- هو الهجرة، وفي الحقيقة أنه بعد مدة ستكون الهجرة هي الجهاد بعينه، وسيؤمر كل من

---

[٤٢٨] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢١.

[٤٢٩] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢٢.

[٤٣٠] البداية والنهاية لابن كثير، ٦٤/٢.

أراد البيعة كشرط أولى. ولقد هاجر المسلمون جميعهم إلى المدينة بعد هجرتي الحبشة،[٤٣١] وبهذا أخذ الجهاد نمطًا آخر في العهد المدني، إذ أرسيت أسس الدولة الإسلامية"[٤٣٢].

ويستمر المؤلف قائلا: "وقبل الإذن بالجهاد لم يحرك المسلمون ساكنًا، ولم يردّوا بالمثْل قطّ على الاعتداءات والتجاوزات على حقوقهم، أي إنهم قاوموا مقاومة سلبية، [وهي في رأينا من أقوى أنواع الجهاد]، بل لم يفكروا بالمقابلة المادية [وهذا أصعب على النفس جدًّا]، وكان الباغي دائمًا جبهة الكفر، والمسلمون في وضع المظلومين والمهضومي الحقوق. واستمر الوضع على هذا المنوال مدة بعد الهجرة، وأخيرًا أذن للجناح الآخر بالجهاد، ونزلت الآية الكريمة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠). فالذين منعوا من استعمال السيف يؤذن لهم الآن بالتسلح، فاندفعوا بحماس إلى إنفاذ الأمر، إذ كانوا يترقبون بنفاد صبر الموضع الملائم لاستعمال هذا الإذن"[٤٣٣]، وهذا يعني أن الوضع الأول في مكة -كما يفهم من كلام المؤلف- كان أقسى من الوضع الثاني.

"وبعد مدة أصبح الجهاد ليس إذنًا فحسب، بل أمرًا إلهيًا. وأصبح المسلمون بعد ذلك مضطرّين إلى الجهاد المادي بسيوفهم، حتى إنهم

---

[٤٣١] البداية والنهاية لابن كثير، ١٦٧/٢.

[٤٣٢] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢٣.

[٤٣٣] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢٣-٢٤.

عندما خرجوا إلى بدر كانوا يترفلون بالفرح والسرور، وكأنهم نودوا من الجنة"[٤٣٤].

"الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يؤدَّى في جبهة القتال فحسب، فهذا النمط من الفهم يقلّص أُفق الجهاد"[٤٣٥]. وحتى مفهوم الجهاد الأصغر كان رائعًا، وقد انتهى المؤلف إلى أن الجهاد ليس محصورًا في هذه الساعات القتالية تحت ظلال السيوف، بل يضم بين جناحيه أشكالاً أخرى متعددة، "حيث إن ميدان الجهاد واسع جدًّا يمتد من الشرق إلى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة أو سكوتًا وصمتًا، أو تبسمًا وطلاقة وجه، أو امتعاضًا ونفورًا، أو ترْكًا لمجلس، أو مشاركة فيه.. وباختصار هو القيام بأي عمل من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل"[٤٣٦].

"إن الجهاد الموجه إلى الخارج مهما بلغت فيه التضحية والفداء، فإنه بمجموعه يعد ضمن الجهاد الأصغر، وكونه جهادًا أصغر إنما هو بالنسبة للجهاد الأكبر، وإلا فليس فيه جهة صغيرة قط، بل العكس هو الصحيح؛ لأن ما يكسبه من نتيجة، هي عظيمة للغاية، وكيف لا تكون عظيمة وهي ترشح المجاهد للدخول إلى الجنة؟! فالجهاد الأصغر إذن -بإجمال- هو تنفيذ أوامر الدين عمليًّا، وأداء ما كلّف به الإنسان. أما الجهاد الأكبر فهو إعلان الحرب على جميع العقبات والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية التي تعيقه عن الكمالات من حقد وحسد وأنانية وغرور وكبر وفخر

---

[٤٣٤] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢٤.

[٤٣٥] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢٦.

[٤٣٦] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢٦.

وأمثالها من الأمور التي جبلت عليها النفس الأمارة بالسوء، فهذا الجهاد عسير وشاق، ولهذا سمي بالجهاد الأكبر"[٤٣٧].

والعلاقة بين الجهادين تكاملية، إذا ما رتبناهما ترتيبهما الطبيعي المنطقي... فـ"الذي يظفر في الجهاد الأكبر يمكن أن ينظر إلى أن جهاده الأصغر -على الأغلب- محقق ظفره فيه، بينما لم يشاهد أحد خسر في الجهاد الأكبر وظفر في الجهاد الأصغر إلا نادرًا جدًّا، فهولاء لا يبلغون النتيجة، وإن أمكنهم قَطع بعض المسافة إليها"[٤٣٨].

وبهذا المفهوم المنطقي الواضح يقدم الأستاذ فتح الله كولن لنا صورة إسلامية عصرية رائدة في فقه المصطلحات الإسلامية الأصيلة، وضبطها بالضوابط الشرعية التي غابت -وما زالت تغيب- عن بعض العاجزين في الفقه التحليلي.

الفصل الثاني: وظائف الجهاد

وفي هذا الفصل يخاطب المؤلف الكبير المسلمين المأمورين بالجهاد مبينًا أن الجهاد تجارة مع الله تنجي من عذابه، وهو "مهمة الأنبياء والرسل"[٤٣٩]، وهو "شهادة للحق"[٤٤٠]، وهو "شعور سام"[٤٤١]، وهو "مرتع خصب للبركة والعطاء"[٤٤٢]، وهو "منبع حياة لا موت فيه"[٤٤٣].. كما

---

[٤٣٧] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٢٧-٢٨.

[٤٣٨] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٣١.

[٤٣٩] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٤٣-٤٤.

[٤٤٠] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٤٥-٤٧.

[٤٤١] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٥٠-٥٥.

[٤٤٢] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٥٦-٥٩.

[٤٤٣] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦٠-٦٣.

يبين أن ترْك الجهاد من أهم أسباب ظهور الفرَق والأحزاب[٤٤٤] التي تناحرت -وأفسدت- كثيرًا في حضارتنا الإسلامية.. فكأن المؤلف الكبير يقول للمسلمين حكامًا ومحكومين: "إما أن تبعثوا في الأمّة روح الجهاد بمفهومه الشامل، وإما فستخسرون في كل يوم تمزيقًا للبلاد، وتحريكًا للصراعات، وفتنًا كقطع الليل الأسود، لا أول لها، ولا آخر لها، كما هو الواقع اليوم".

يقول المؤلف: "الجهاد منبع يتدفق بالحياة، فيجعل المسلمين في حيوية مستديمة، فما من أمة حُرمت أفرادها من الجهاد المادي والمعنوي، إلا ظهرت فيهم المشاحنات والمخاصمات الداخلية، ففسدت الأمة من داخلها وتعفّنت. ولا جرم أن لهذا الأمر أسبابه الخاصة به، إذ لو انغمس حكام في حياة الشهوات والرذائل في القصور، وأهملوا إعلاء الله، ودبّت رخاوتهم وإهمالهم هذا في صفوف الجيش، فإن الدولة تفقد موقعها المرموق بين الدول، فضلاً عن البؤس والشقاء الأبدي الذي يلحق بالأمة، مع المخاصمات والمشاحنات الداخلية التي لا نهاية لها"[٤٤٥].

"ونحن منذ تركنا الجهاد نمت فينا الفرق والتخريب.. وما نشاهده في الوقت الحاضر من التكتلات والتخريبات والفرق ليست إلا ثمارًا من حنظل وزقوم نمت من تلك البذور الجهنّمية التي نُثرت في تلك الفترة،

---

[٤٤٤] يقول الأستاذ فتح الله كولن: " ونحن مذ تركنا الجهاد نمت فينا الفرق والتخريب، وما نشاهده في الوقت الحاضر من التكتّلات والتخريبات والفرق ليست إلاّ ثماراً من حنظل وزقوم نمت من تلك البذور الجهنّمية التي نثرت في تلك الفترة. ولا خلاص من هذه الحالة المميتة إلا بالجهاد" (روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٤٨).

[٤٤٥] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٨٤.

ولا خلاص من هذه الحالة المميتة إلا بالجهاد"[٤٤٦].

ونحن نفهم من كلام المؤلف الفاضل أن أول وظيفة للجهاد -بعد رضا الله، والاستجابة لأمره- هي خلق الحيوية المستديمة في الكيان الإسلامي أفرادًا وجماعات، فالجهاد الدائم -بشقّيه الأصغر والأكبر- يعطي للحياة هدفًا ومذاقًا، ويصلها بالعالم العلوي.

أما الهدف الثاني فهو أنه -أي الجهاد- يحول دون التآكل الداخلي للأمة، ولعل كلامه هذا مستوحى من حديث الرسول ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا ذلّوا»، فبدون الجهاد تكثر التمزقات والصراعات وأنواع الخراب الداخلي، ثم الخارجي في الأمة.

ولهذا كان الجهاد "مهمة الأنبياء والرسل"[٤٤٧] بمعناه الشامل، وتُعد كل لحظة في حياة الأنبياء جهادًا، وهذا داخل في معنى "الشهودية"، قال تعالى ﴿يَا اَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا اَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(الأحزاب:٤٥)، أي شاهدًا لتبليغ الإنسانية كافة بأن الله موجود حتى يقدّروه حق قدره، ويعبدوه حق عبادته، وعلى خطى الأنبياء يأتي تابعوهم ليلغوا الشهادة أيضًا في سلسلة جهادية موصولة إلى يوم القيامة.[٤٤٨] وهذه هي الوظيفة "الثالثة" للجهاد، التبليغ على هُدَى الأنبياء، والشهادة على الناس لإقرار موازين الحق وإبطال الباطل. أما الوظيفة "الرابعة" للجهاد فهي إيجاده الشعور بالعزة والفروسية.

---

[٤٤٦] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٨٤.

[٤٤٧] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٤٣-٤٤.

[٤٤٨] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٤٧.

الفصل الثالث: علاقة الجهاد - المؤمن - الكون

أما الفصل الثالث فقد عالج المؤلف الكبير علاقة الجهاد بالمؤمن وبالكون، حيث إن المؤمن مكلف بالجهاد الشامل لتحكيم منهج الله تعالى في الأرض، ليسود الحق والعدل، ولتكون الكلمة النافذة لعباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأَنْبِيَاء:١٠٥). وبما أنه مما "لا شك أن لكل فرد من الأفراد وظيفة تناط به في هذه الحياة الدنيا التي لا قرار فيها لشيء.. فالأموال تنفد والعمارات تخرب، ولا ينفع الإنسان إلا ما أرسله من هاهنا إلى هناك - أي من الدنيا إلى الآخرة- فما عليه إلا العمل الدائب والسعي الجاد ليتمكن من إرسال شيء إلى هناك قبل الرحيل إليه"[٤٤٩].

والجهاد بمعناه الشامل هو الذي يوفر أكبر ادخارات تصل إلى حسابنا في بنك الآخرة.

ولهذا "فإن الذي يقول: إن محمدًا ﷺ والخلفاء الراشدين والصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين قد ماتوا وانتهوا، فهو الميت حقًّا، ذلك لأنهم قد سنّوا سننًا حسنة عظيمة"[٤٥٠]، "ولهذا تتضاعف حسناتهم وفضائلهم ومزاياهم وترتفع حتى تبلغ العرش الأعظم، فهؤلاء -بلا شك- آمنون من عذاب القبر؛ لأن هذا العذاب يخص الأموات"[٤٥١].

ولكي تدركوا قيمة الجهاد -أيها المؤمنون- "فعليكم إذن أن تصوموا ألف يوم، وتقيموا ألف ليلة كي تبلغوا ثواب المرابط ليلة واحدة في سبيل

---

[٤٤٩] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦٥.

[٤٥٠] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦٦.

[٤٥١] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦٦.

الله تجاه العدوّ الذي يريد الحلول في بلدكم وتخريب أمّتكم، بل هذا أرضى لله، وأكثر قبولاً عنده"[٤٥٢].

أجل، "من المؤمنين من يوفي بمهمة الجهاد حق الوفاء، فينال الفضائل التي ذكرناها آنفًا، ومنهم من يعجز عن القيام الفعلي بالجهاد، ولكن ينال جزاء عمله مثل أولئك، فضلاً منه ﷻ. بمعنى أن مَن يعمل في سبيل الإيمان والقرآن -ولو حمل حجرًا للبناء- لا يضيع عمله هباء أبدًا"[٤٥٣]. "ولهذا ينبغي على كل مسلم أن يشترك في هذه المأدبة العظيمة بما منحه سبحانه من إمكانات وقابليات، ليغنم النتيجة الحاصلة من عمل الجميع"[٤٥٤]. وفي ضوء هذا تتجلى العلاقة الحميمة بين الجهاد والإيمان، وهي علاقة توجب "على المؤمنين أن يكونوا على استعداد كامل لما قد يُداهمهم من أخطار حقيقية في قابل الزمان، ولا يدّخروا شيئًا من صحتهم وشبابهم إلا وبذلوه في هذا السبيل، وعليهم أن ينسّقوا حياتهم وفق ذلك لئلا يقعوا في ورطة وحرج أمام ما يستجد من أحداث فيقلقوا ويضطربوا ويحاروا تجاهها"[٤٥٥].

وبالإضافة إلى هذا "فإن الجهاد -المادي والمعنوي- أعظم دافع ودستور للحياة الإسلامية، وعندما تخبو روح الجهاد في نفس المؤمن وتذبل، وينطفئ عشق الإيمان والإسلام رويدًا رويدًا، تحيط به شرارات الفتن من كل جانب، حتى تمسّه ألسنة لهيبها. وذلك لأن الفتن تولّد فتنًا

---

[٤٥٢] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦٦.

[٤٥٣] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦٦.

[٤٥٤] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦٦.

[٤٥٥] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦٩.

أخرى، فتغدو بيوت هؤلاء ومحالهم وأزقّتهم وأسواقهم في النهاية أوكار لعنة وفساد، حتى تخور قواهم أمام الأحداث الرهيبة، فلا ينبض لهم عرق تجاه حادث أو فعل"(٤٥٦).

نعم، "إن تكامل الفرد والأسرة والمجتمع، مرهون بالجهود التي تبذل في سبيل إعلاء كلمة الله في الحياة والمجتمع. فإن قدّم المؤمنون شيئًا من الهمّة والجهد بتجوالهم في القرى والأرياف، قرية تلو الأخرى، قصبة إثر قصبة، يبلغون الناس دعوة الله الحقة؛ فهذا يعني أن الله سيحيي ذلك المجتمع من نواحيه كافة. أما إن كان المجتمع محرومًا من هذه الروح وهذا العشق، فإنه يتهاوى على رؤوس أفراده إما اليوم أو غدًا أو بعد غد، وإن غدًا لناظره قريب"(٤٥٧). وهكذا، فبالجهاد الشامل يكتمل المؤمن كل آن، وبدونه ينقص في كل يحين، ولو عميت بصيرته عن إدراك سلّم الانحدار. ولهذا أحب صحابة رسول ﷺ الشهادة في سبيل الله، إدراكًا منهم بقيمتها في حياتهم، وأيضًا لإعلاء كلمة الله، ولعل هذا يتألق فيما كان من أنس ابن النضر، والبراء بن مالك (رضي الله عنهما) وفي غيرهما أيضًا من هؤلاء الآلاف الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله.

فأما أنس بن النضر رضي الله عنه فهو من "الربانيين ممثلي الحاكمية"(٤٥٨)، فأنس لم يشترك في معركة بدر، ولكنه عاهد الله تعالى أن يريه من نفسه خيرًا، ولما جاءت موقعة أحد، دخلها شاحذًا كل طاقته وهمته حتى أوشكت الحرب أن تضع أوزارها، فتألم لأنه لم يفز بالشهادة، وفجأة حدث

(٤٥٦) روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٧١.

(٤٥٧) روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٧١.

(٤٥٨) انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٧٧ وما بعده.

الاضطراب والتشتت في صفوف المسلمين، وأشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل... فقال أنس رضي الله عنه: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء" يعني الكفار، صبيان الظلام والجهل الذين لا يعرفون الله ورسوله؛ "وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء" يعني المسلمين بعدم امتثالهم لأمر النبي.. ثم اندفع نحو صفوف الأعداء يقاتل بكل قوته.. وبعد أن ترك العدو الساحة وولّى بعدده وعُدده، فوُجد شهيدًا وفيه بضع وثمانون ضربة ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم.. حتى قالت أخته: "فما عرفت أخي إلا ببنانه"[٤٥٩]. وهكذا كان أنس بن النضر من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حتى نال الشهادة.[٤٦٠]

وأما البراء بن مالك رضي الله عنه فقد كان شجاعًا جسورًا لدرجة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفض أن يوليه قيادة جيش المسلمين –مع حبه الشديد له، وثقته فيه– خشية أن تؤدي جسارته الفائقة إلى عدم الحذر. وكان البراء مستجاب الدعوة، وقد وصفه رسول الله ﷺ بقوله: «كم من أشْعث أغبر ذي طمرَين، لا يُؤْبه له، لو أقْسم على الله لأبرّه، منهم البراءُ بن مالك»[٤٦١]. ولما كانت معركة الأهواز بين المسلمين والفرْس تشتّت صفوف المسلمين، فذهب المسلمون إلى البراء أبن مالك يسألونه الدعاء، فرفع يديه قائلاً: "اللهم اهزم العدو، وانصرنا، وأبلغني نبيّك"، ثم نظر إلى أخيه أنس بن مالك رضي الله عنه نظرة وداع، ودخل بسيفه على صفوف الأعداء، فانتصر المسلمون، وسقط البراء شهيدًا، ليتحقق له أن يكون رفيق النبي

---

[٤٥٩] البخاري، تفسير سورة الأحزاب (٣٣) ١٤٦؛ مسلم، الإمارة ١٤٨.

[٤٦٠] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٧٨-٨٠.

[٤٦١] الترمذي، المناقب ٥٤؛ ابن ماجة، الزهد ٤.

ﷺ في الجنة.[٤٦٢]

وعلى يد هذا الجيل العظيم الذي ربّاه الرسول ﷺ، وعلى يد أتباعه وتلامذته عبر القرون بقيت راية الإسلام الجهادي مرفوعة، وقد بقي ذوو الأخلاق الفاضلة من بعدهم هم الذين يحكمون الأرض.

"فذوو الأخلاق الفاضلة في عصرهم أو مَن لهم نصيب وافر منها هم الذين يكونون حكّامًا في الأرض. وجدير بالملاحظة أن المقصود بالأخلاق الفاضلة لا يعني التردد على المساجد أو ما شابه ذلك فحسب، بل هو الاتصاف بأخلاق النبي ﷺ في كافة مرافق الحياة؛ لأنه بهذه الأخلاق يدرك الإنسان معنى الأشياء والحوادث وعلاقة الإنسان بالكائنات، وفيها أيضًا المحافظة على التوازن التام من سبر غور الأنفس والتفكر في سعة الآفاق.. وبمعنى أوسع من قدر على إدراك الخلود فهو الذي حقق الصلاح بمعناه الحقيقي"[٤٦٣].

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام -حتى لا تلتبس المفاهيم- أن هؤلاء الصغار، "الذين يثيرون الإرهاب والفوضى في أنحاء العالم، ويرتكبون الجرائم تلو الجرائم، ويستغفلون الناس -ولاسيما الشباب- بمشاكل سياسية، ويختلقون شعارات سياسية لجذب الرأي العام، ويتعدون بعقولهم تاركين الشورى فيما بينهم... هؤلاء لا يمكنهم قطعًا أن يؤسسوا لمنهاج تحكيم شرع الله في الحياة بمعناه الحقيقي، وسيفيقون من غفلتهم يومًا من الأيام عند شروق شمس الإسلام، وعندها يندمون،

---

[٤٦٢] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٨٠-٨١.

[٤٦٣] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٨٣.

حيث يدركون تخبطهم في ظلمات دامسة، فيعترفون بخطئهم"[٤٦٤].

بقي أن نشير هنا إلى أن المؤلف الكبير يذكر "أنه لم تمض خمس سنوات على خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى خضعت بلاد شمالي أفريقيا كلها لحكم الإسلام.. ومن جهة أخرى، اجتاز جيش المسلمين بحر الخزر، وفتحوا طبَرستان، وعقب ذلك فتح ما وراء النهر، أي أن الإسلام بلـغ سد الصين"[٤٦٥].

الفصل الرابع: مكتسبات الجهاد

وقد تعرض المؤلف الكبير في هذا الفصل لنتائج الجهاد، أو حسب تعبيره "مكتسبات الجهاد"، مشيرا إلى المخاطر الناجمة عن عدم قيام المؤمنين بهذا الواجب، وهو ما يترتب عليه أن تصول الفوضى في البلاد الإسلامية، فتتأجج نار الفتنة، وتزول عن الناس الطمأنينة. فالجهاد -بالدرجة الأولى- ضمان للاستقرار الداخلي والخارجي، وضمان لعزة المسلم.[٤٦٦]

"إن أي نوع من أنواع الإرهاب والفوضى حاليًّا هو أجنبي المنشأ بلا شك، إنه يهدف إلى زعزعة استقرار الأوطان الإسلامية، حتى تخور قواها فتخضـع للأعداء، كما يهدف الإرهاب إلى شغل المسلمين عن هدفهم الأسمى، وهو الجهاد. وما يهدف الإرهابيون -مهما كانت أسماؤهم إسلامية- إلا إلى أن يحوّلوا هذا الوطن، الشبيه بالجنة إلى جحيم لا يطاق،

---

[٤٦٤] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٨٣-٨٤.

[٤٦٥] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٨٨.

[٤٦٦] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٩٣.

ولا أسهل من إرغام دولة خارت قواها نتيجة الإرهاب والفوضى، وهذا ما يصبو إليه الأجانب، فهم يريدون أن تتحول هذه البلاد إلى مستعمرة يستغلونها. والإرهابيون والفوضويون جميعهم ما هم إلا عملاء أولئك المستعمرين، ولكن لن يصلوا إلى مبتغاهم -بإذن الله- وسيحيق المكر السيء بأهله، وهنا أمر مهم، وهو أن الانشغال بالإرهابيين والفوضويين سيؤخّرنا عن بلوغ ما نصبو إليه من هدف، أليس هذا ما يريده أعداؤنا بالدرجة الثانية؟!"[٤٦٧].

وفي لمحة ذكية يكشف المؤلف عن دور الدول الكبرى في صناعة الإرهاب... يقول: "أحيانًا تقوم القوى العالمية بإحداث الفوضى والإرهاب.. فالوظيفة التي تقع على عاتق المؤمن حينذاك أن يستعمل كل طاقاته وإمكاناته إلى أقصى حد ممكن، ويجابه الفوضى والإرهاب المفتعل. وعندما يبلغ الأمر إلى هذا الحد.. فمعنى ذلك أن الدولة قد أصبحت تحت رحمة الأعداء، وعندئذ فالواجب قد ألقي إذن على كاهل كل فرد"[٤٦٨].

وما يقال في هذه الحالة يقال في حالة مشابهة وهي استئجار الدول الكبرى لقطاع من الجيش الوطني للقيام بهذا الإرهاب لتشويه الإسلام، وإشعال الفتن.. وعلى المسلم مواجهة الموقف بالأسلوب نفسه.

وأخيرًا... بالنسبة لهذا المكتسب الأساس من إحياء فريضة الجهاد الشامل، يؤكد المؤلف أنه "سواء أكانت القلاقل والاضطرابات ناشئة من الفساد الداخلي، أم من الأزمات الناجمة من الإرهاب والفوضى، أو من الضيق والقلق الذي يولده الاعتداء من الخارج، أم من أي من الآلام

---

[٤٦٧] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٩٦.

[٤٦٨] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٩٦.

التي تصيب المسلمين، سواء هذا أم ذلك فكل هذه البلايا وغيرها لا حل لها إلا بالجهاد المادي والمعنوي. فالخلاصة أن الجهاد هو ضمان استقرارنا الداخلي والخارجي؛ فالدنيا التي لا جهاد فيها، بلا ضمان ولا أمان يحققان الحياة المطمئنة اللائقة بالإنسان"[٤٦٩].

أما المكتسب الثاني من مكتسبات إحياء الجهاد بمعناه الشمولي، فيتمثل في "أن الجهاد يحول دون الذل والهوان، وذلك لأن المؤمن إنما يعز بما يقدمه من جهاد داخلي وخارجي، وحينما يترك ما يترتب عليه من واجب، وتستهويه لذائذ الحياة، وينحصر همّه في أذواقه الشخصية، يفقد المهابة والعزة، ويذل ويهان.. فالرسول الكريم ﷺ يقول في حديث طويل: «...وتَركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذُلاًّ لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٤٧٠]. وهذا يعني أن الحياة العزيزة إنما هي في تحمل بعض المشقات باسم الجهاد، والأمة عمومًا تستحق هذه الحياة العزيزة عندما تقاوم وتثبت تجاه تلك المشقات، فلو ترك كل فرد منها الجهاد منغمسًا في لذائذ حياته الشخصية، عندئذ يحل العذاب الإلهي العام عليها، فيصيب الظالم والمظلوم، والبرئ والمذنب.. ولهذا لا بد للأمة من التمسك بالجهاد ككل، كي تحول دون نزول البلاء عليها جميعًا"[٤٧١].

الفصل الخامس: عوائق الجهاد

أما في الفصل الخامس فقد عالج الأستاذ كولن عوائق الجهاد، موضحًا

---

[٤٦٩] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٩٨.

[٤٧٠] أبو داود، البيوع ٥٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤٢/٢.

[٤٧١] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٩٩.

أنه لا يمكن أن يتحقق الانسجام بين الجهاد وحياة الدعة والافتتان بلذائذ الحياة والحظوظ الشخصية، والذي لا يضحى بهذه المتع لا ينتظر منه القيام بمهمة جليلة كالجهاد. وعلى العكس من ذلك، فإن عشاق الجهاد يتجاوزون كل عوائق الجهاد، من مظاهر الدعة، وحب الدنيا، كالزوجة والأولاد والمناصب، وعندهم أن "الجنة ورضا الله" أفضل من كل ذلك.[٤٧٢]

وقد قدم المؤلف الكبير غزوة تبوك كصورة نموذجية لمشكلة العوائق، وكيف يتجاوزها المؤمنون ويفتعلها المنافقون، فمن المعروف "أن المسلمين قد رجعوا توًّا من سفرٍ، وكانوا بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة للتأهب لسفر جديد، وقد حان وقت حصاد الثمار، والجو شديد الحر، وفي هذا الوقت بالذات دعا الرسول ﷺ المؤمنين إلى السفر للجهاد. وفورًا استجاب المؤمنون بما لديهم من غال ونفيس لهذه الدعوة، فأتى سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بكل ماله إلى الرسول ﷺ وخصص سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه نصف ماله لهذا الغرض، وما بذله سيدنا عثمان رضي الله عنه لا حدّ له، أما سيدنا علي رضي الله عنه فقد أعطى قسمًا من ماله سرًّا وآخر علانية وفق إدراكه الخاص للإخلاص، ودفع سائر المؤمنين ما يملكون كل حسب استطاعته، فدخل الجميع في سباق للبذل والإنفاق والمنافسة في الخير بآخر ما يملكونه، والنساء اشتركن أيضًا في هذه المسابقة للخير، حتى امتلأت حجرة أمنا عائشة رض الله عنها بحاجات نسائية، إذ قدّمن ما يملكن من حلى، فمنهن من نزعن قلائدهن وأسوارهن وأقراطهن، وقدمنها لهذا الخير العظيم. وهكذا كانت إجابة المؤمنين لدعوة الرسول الكريم ﷺ متجاوزين

---

[٤٧٢] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١١١.

بإيمان عميق كل العقبات، أما المنافقون فكانوا يشترطون لإجابة دعوة الرسول ﷺ بألاّ يكون السفر طويلاً، ولا الجو حارًّا، ولا يكون في موسم الحصاد"[٤٧٣]، أي أنهم يفتعلون العوائق.

"ومنهم من يأتي باقتراح آخر فيستأذن الرسول ﷺ، وكان "الجدُّ بن قيس" من هؤلاء، مع أنه كان يسرع إلى الصلاة بمجرد سماعه الأذان، ولكنه لم يتمكن من غرس الإيمان في أعماق قلبه، بحيث يتحول إلى إذعان، ولم يترفع عن أهواء نفسه.. فعجز عن أن يعزم أمره في الانخراط مع المضحين... ولهذا فإنه جاء إلى الرسول الكريم ﷺ، وكان الرسول ﷺ يعالج فرسه بيده الشريفة ليضرب نموذجا للمصحابة، وعندما شاهد الجدّ بن قيس، قال: «حتى أنت لا تأتي معنا؟!» إذ لم يكن ممن ينتظر منه التخلّف، ولكن الله لم يمحنه هذا الشرف العظيم.. فتقدم إلى الرسول الكريم ليستأذنه قائلا: "يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن"، والقرآن الكريم يوضّح أمره هذا بالآية الكريمة الآتية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(التوبة:٤٩). وجاء آخرون ﴿وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، فكان جواب الرسول ﷺ هو جواب القرآن: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾(التوبة:٨١)"[٤٧٤].

"نعم، القرآن الكريم يستنفر المؤمنين جميعًا للجهاد، وسنكون من الفائزين أو الخاسرين حسب استجابتنا لهذه الدعوة، فإما نقول: عسير

---

[٤٧٣] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١١٣-١١٤.

[٤٧٤] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١١٤.

علينا ترك لذائذ هذه الحياة كما قاله المنافقون.. أو نعمل بمثل عمل الصحابة الكرام، الغرّ الميامين، فنأتي بما لدينا ونتأهّب للجهاد"[٤٧٥]، رافضين عيش الدعة والترف وعبودية الأشياء!.

ولئن كانت حياة الدعة والترف هي العائق الأكبر ضد الجهاد، فكذلك إعطاء الحياة نفسها أكبر من حجمها يُعدُّ عائقًا من أكبر العوائق في سبيل الجهاد أيضًا.. ولو أننا عرفنا أن ما نعيشه حقيقة -بعد النوم والكدح والمرض- لا يزيد عن عشرين سنة في المتوسط لعرفنا قيمة الدنيا... ولكم من أناس يمضون حياتهم في كدح وغم وسجون، فلا يتذوقون من الحياة إلا أقل القليل.

كما أننا نعلم بيقين "أن الأجل الذي قدَّره الرب الجليل لا يستقدم دقيقة ولا يستأخر.. وأننا نموت في الوقت الذي عيّنه الرب الجليل؛ فلا يمكن أن يحدث شيء دون إذنه وأمره، فلا نجاة من الموت إذا أقبل، ولا اللقاء به قبل أوانه، فالذين تعقبوا الموت لم يظفروا، كما لم ينجوا منه بالفرار منه، ولما كان الموت لا يحل بأحد إلا في وقته المعين، فالأفضل أن يموت المرء عزيزًا"[٤٧٦].

وهكذا، فإن معرفة قيمة هذه الدنيا الفانية، الحافلة بالمنغصات، مقارنة بالآخرة العامرة بكل نعيم والخالية من كل الشوائب، والخالدة. هذه المعرفة تزيل كل العقبات الأصلية أو الفرعية التي يضعها الشيطان أمامنا لنتخلى عن فريضة الجهاد الشامل.[٤٧٧]

---

[٤٧٥] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١١٥.

[٤٧٦] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٢٤.

[٤٧٧] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٣٠.

الفصل السادس: من عشاق الجهاد

وفي الفصل السادس والأخير يركز المؤلف الكبير على بيان أبرز النماذج الرائعة التي عشقت الجهاد، وبذلت في سبيله ما يبذله العاشق للمعشوق.[٤٧٨]

فكان طبيعيًا أن يكون أول نموذج يختاره المؤلف هو سيدنا وسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ.. ثم اختار المؤلف بعد رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. ثم عمرو بن الجموح رضي الله عنه وهو يدخل بعرجته الجنة.. ثم سعد بن خيثمة رضي الله عنه، وكان شيخًا كبيرًا مريضًا، حاول أولاده منعه من الجهاد، فحكم له رسول الله ﷺ بما يريد، فوجده هو وصاحبه عمرو بن الجموح رضي الله عنهما شهداء في سبيل الله، ثم جعفر الطيار، شهيد مؤتة.

ثم عرض المؤلف لأبي عقيل رضي الله عنه شهيد يوم اليمامة.. ثم عبد الله بن حرام رضي الله عنه والد جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وقد مات شهيدًا في أحد فكلمة ربه تبارك وتعالى.. ثم تحدث عن حرام بن ملحان رضي الله عنه وقصة القرّاء السبعين في بئر معونة، وكان رسول الله ﷺ قد أرسلهم إلى قبيلة عمرو بن طفيل للدعوة والإرشاد، وكان من بينهم حرام بن ملحا رضي الله عنه -خال أنس بن مالك- فأراق المشركون دماء القراء، وأصبحوا القراء أحياء عند ربهم يرزقون.. ولم ينس المؤلف سيد الشهداء وأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.. ثم ختم بعبد الله بن جحش رضي الله عنه شهيد أحد.

خلاصة القول

يختتم المؤلف الكريم الأستاذ فتح الله كولن كتابه الرائع بهذه

---

[٤٧٨] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٢٧-١٣٧.

الكلمات التي يجب أن تكتب بالذهب، وأن يستظهرها كل مسلم:[٤٧٩]

- إن المؤمن الحق ليفضل الموت الشريف على العيش الذليل.
- إن أفضل ما يقدمه المؤمن الذي أمضى حياته في طاعة الله أن يختمها بالشهادة، لأن الشهيد يمضي إلى ربه دون حساب، حتى في المواضع التي يحاسب فيها الأنبياء.
- إن لباسه الملطّخ بالدم يمنحه هذا الامتياز.
- وما دام المؤمن يسعى لإنقاذ الإنسانية فسوف يقابله كفار مصرّون على الكفر، وهذ يعني أن الجهاد مستمر، بل إنه ماض إلى يوم القيامة.
- نحن مكلَّفون بتعريف الناس بربنا ﷻ، وبإنارة كل زاوية مظلمة في بقاع الأرض بنور القرآن الكريم.

وفي نهاية هذا الشوط فإننا نقتبس من كلام الأستاذ "فتح الله كولن" هذه الكلمات الرائعة:

"إننا نبكي وراء الشهداء ونرقّ على أيتامهم الذين تركوهم، بينما هم يبكون:

- على الوضع الأليم لأهل الدنيا وعلى الدنيا التي أصبحت صنمًا يعبد من دون الله،
- وعلى الحياة التي غدت تمضي في رخاء وراحة ملفعة بالذل والبؤس،
- وعلى القعود عن الجهاد في سبيل الله،
- وعلى التكاسل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
- وعلى الليالي التي تمضي سوداء مظلمة،

---

[٤٧٩] انظر: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:١٣٩-١٤٠.

- وعلى السجاجيد التي لم تبتل بالدموع الغزيرة،
- وعلى الانكسار لوضع المسلمين الأليم..

وفي الحقيقة إن الشهداء في عيش رغيد وحياة ملؤها السعادة والطمأنينة. أليسوا في كل لحظة مع الله ﷻ؟! أليست حياتنا المعيشة كالجحيم قياسًا بحياتهم الخالدة؟! إن هذه الحياة التي أصبحت وسيلة لدخول الشيطان لإبعادنا عن الله جل وعلا، هي حياة يرثى لها، وصعب تحمّلها.. ولكن كم هو مؤلم أننا نعيشها بلهفة ومحبة ورغبة!"[٤٨٠].

وأخيرًا جزى الله المجاهد الكبير العلاّمة فتح الله كولن خير الجزاء، فلقد قدم -بحق- فكرًا إسلاميًّا نابضًا بالحياة، قادرًا -لو وجد الرجال- على صياغة حياة تليق بالمسلم في عصور المادية والتنكر للدين... في القرن الخامس عشر للهجرة (الحادي والعشرين الميلادي) وفيما بعد من القرون.

إنه لم يكتب كلامًا يعبر الزمان، بل كتب كلامًا قادرًا على التواصل الحقيقي والتفاعل الرشيد مع كل الأزمان، ومع كل إنسان!..

---

[٤٨٠] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص:٦١-٦٢.



القلب: إرادة وفعل

لم يستوعب كثير من المسلمين أن القلب هو بيت الحقيقة.. إنه وحده الذي يستوعب الأشواق الربّانية والآفاق الكلية ذات الصلة التي تربط بين الخالق والمخلوق!.. يفقه بالقلب أكثر من العقل، ويخفق قلبه فيشعر بحقائق الأشياء، وبه سعة لطيفة تُشعر بمعني الزمان والمكان الماضي والحاضر والمستقبل.

إن القلب هو الذي يُشعرك بعمق السعادة وبحرقة الشوق والجمال ورائحة الزهور والورود.

إنه وحده الذي يدرك معنى "ترانيم الروح وأشجان القلب"، ويجعلك مع أصحاب القلوب تشعر بأعماق الحياة في الإسلام كما أنزله الله، وبالتالي يحيا المؤمنون بقلوبهم في هذه الدنيا وكأنهم يعبّون من كؤوس اللذة في جنة الفردوس... وكل منهم يستطيع أن يتخلص من قلق العدم والفناء ومن ظلام الوعود الكاذبة، ويأخذ نَفَسَ راحةٍ ولو لمدة مؤقتة، وإذا كان هناك أيّ فكر فتحه الإسلام أمام المؤمنين به، وأي حياة أخرى موعودة خارج هذه الحياة، فهي حياة الجنة للمؤمنين.

والقدرة الإلهية الخالقة مهّدت للمؤمنين الحياة الوجدانية والشعور الروحي في الدنيا، وأعطت القلب خاتم سليمان.[٤٨١]

---

[٤٨١] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٤م، ص:٩-١٠.

إن القلب السليم -مثل قلب خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام- يصبح أمّة قانتا لله حنيفًا... ويطيع الله.. ويدخل إلى قلوب الآخرين.. فيحوّل الناس إلى الحق، بعيدًا عن الجدال العقلي والبلاغة التي تُزخرف الباطل وتُزيّنه.

* * *

وفي يوم من أيام شهر أيلول سنة ١٩٢٦ م كان هناك يهودي اسمه "ليوبولد فايس" يركب المترو في ألمانيا.. فيقع نظره على الناس فيجدهم مترفين في المظهر، لكنهم تعساء يخيمّ على وجوههم معنى البؤس.

وبالتأكيد عرف أنهم لا يدركون أنهم تعساء، وإلا لما كان باستطاعتهم أن يستمروا في إضاعة حياتهم وتبديدها كما كانوا يفعلون، دون أيّما إيمان بالحقائق الرابطة ودون أيّما هدف أبعد من الرغبة في رفع "مستوي معيشتهم"، ودون أيّما أمل غير حيازة المزيد من الملذات المادية والمزيد من الممتلكات ولربما المزيد من القوة.

ويقول "ليوبولد فايس": "لقد اتفق أنه عندما عدت إلى البيت، أن ألقيت نظرة على مكتبي وكان عليه نسخة مفتوحة من ترجمة معاني القرآن كنت أقرأ فيها من قبل من باب الثقافة.. وبصورة آلية، رفعت المصحف لأضعه جانبا، ولكن ما أن هممت بإغلاقه حتى وقعت عيني على الصفحة المفتوحة أمامي وقرأت فيها معاني سورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾(التَّكَاثُر:١-٨).

واعْتراني الصمت لحظة وآمنت فورًا أنّ صاحب هذا الكتاب لا يمكن أن يكون إلا نبيًّا مرسلاً من الله، وإني لأعتقد أن الكتاب كان يهتز في يدي.

أجل لقد كان ما جاء في هذا القرآن جوابًا قاطعًا إلى درجة أن كل شك زال فجأة.

لقد عرفت الآن بصورة لا تقبل الجدل أن الكتاب الذي كنت ممسكًا به في يدي كان كتابًا موحى به من الله، وتفسيرًا لواقعنا الأوربي في القرن العشرين الميلادي. فعلى الرغم من أنه وُضع بين يدي الإنسان بواسطة الوحي منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، فإنه عَرَّف بوضوح أشياء لم يكن بالإمكان أن تصبح معروفة إلا في عصرنا هذا المعقّد الآلي.[٤٨٢]

* * *

لقد عَرَفَ الناسُ التكاثر في جميع العصور والأزمنة، ولكن هذا التكاثر لم ينته قط من قبل إلى أن يكون مجرد اشتياق إلى امتلاك الأشياء وإلى أن يُصبح ملهاة تحجب رؤية أي شيء آخر من خلال حنينٍ لا يقاوم إلى التملك والعمل.. إنه عفريت راكب على أعناق الناس يسوق قلوبهم بسوط إلى الأمام نحو أهداف تتلألأ عن بُعد، ولكنها تنحل إلى لا مادية شيئية زرية خسيسة...

ويا له من واقع أليم يشعر الإنسان معه بالجوع النهم إلى أهداف جديدة لا تنتهي، بل ينمو في قلب الإنسان باطراد حتى الوصول إلى محطة ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.

وقد أسلم "ليوبولد فايس" اليهودي الصحفي النمساوي، وأصبح اسمه "محمد أسد" وصار من كبار المفكرين المسلمين، وكانت أشعة القلب وحدها -بعيدةً عن الجدليات العقلية- هي التي هدته للإسلام.

---

[٤٨٢] الطريق إلى الله، ليوبولد فايس (محمد أسد)، مكتبة العبيكان، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م الرياض، ص:٢٥٠-٢٥١.

ماهيّة القلب التقي

القلب المقصود هنا ليس هو العضو الحيوي المُودَع في الجانب الأيسر من الصدر. وإنما القلبُ هنا هو مركز الإدراك الحسي والعقلي ومحلّ الشعور والإرادة... وهو -كذلك- اللطيفة الروحانية التي يسمّيها المتصوفون: "الحقيقة الإنسانية"... ويسمّيها الفلاسفة "النفس الناطقة". وحقيقة الإنسان هي هذا القلب، ويطلق على الإنسان بهذا البعد المعنوي والروحي اسم "العالِم"، و"العارِف"، و"المدرِك"... والروح أساس لهذه اللطيفة ولباطنها.[٤٨٣]

إن القلب جوهر نوراني عجيب ذو جهتين: ينظر بالجهة الأولى إلى عالم الأرواح دائمًا، وينظر بالثانية إلى عالم الأجساد.[٤٨٤] وهو موضع نظر الله الذي يُجري على أساس شعوره وعواطفه ونوازعه معاملته مع أخيه الإنسان ومعه سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام مسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم». ذلك بأن القلب هو القلعة الحصينة لكثير من المزايا الحياتية للإنسان مثل العقل والمعرفة والنية والإيمان والحكمة.[٤٨٥]

فإن كان القلب حيًّا قائمًا لهذه المشاعر والمزايا تكون حياته فيه، وإن خَرب بالمعاصي وبالمهلكات المعنوية ضاعت منه هذه المزايا الإنسانية واللطائف الروحية. وقد لفت الصادق المصدوق نبيُّنا محمد ﷺ الأنظار إلى مكانة القلب في جسم الإنسان وإلى أهمّيته بقوله:«ألا وإن في الجسد

---

[٤٨٣] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٦٢/١.

[٤٨٤] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٦٣/١.

[٤٨٥] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٦٤/١.

مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (متفق عليه).[٤٨٦]

والجانب الأهمّ من هذا كله هو دلالة القلب إلى الحق سبحانه وتعالى بما في ماهيته من نقطتي الاستناد والاستمداد بلسان الحاجة والاستجابة. ويَلْفتُ أحدهم الأنظار لهذا البُعد الروحي الشفاف للقلب بكلامه الجميل الذي يقول فيه «إن الله لا تَسعُه أرضه ولا سماؤه، ولكن يسعه قلب العبد المؤمن في حبه له».[٤٨٧]

ولما كان للقلب هذا اللسان الفصيح الصادق الذي لا يكذب، عُدَّ ملكوتًا لملك الإنسان، وأصبح الميزان الدقيق في بيان الحقيقة الإلهية السامية التي تُعبرّ عنها الأكوان قاطبة.[٤٨٨]

ولهذا كان صمام الأمان للإنسان ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(آلِ عِمْرَان:٨).

القلب التقي ومرحلة الخوف

أما "التقوى" فهي لازمة لقلب العبد المؤمن، وهي تعني الصيانة والوقاية للقلب، وتعني شرعًا النجاح في الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه "خوفًا" من غضبه وعذابه.. فهي "الخوف" الذي يوجب الحذر والوقاية والامتثال.[٤٨٩]

وهذا الامتثال ينمو -مع الخوف والتقوى- حتى يكون سلوكا للإنسان

---

[٤٨٦] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٦٤.

[٤٨٧] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٦٤.

[٤٨٨] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٦٦.

[٤٨٩] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٩٢.

فطريًّا بلا تكلف ولا معاناة ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(السَّجْدَة:١٦).

وتوجب التقوى الالتزام بالشريعة ظاهرًا وباطنًا وسلامة الفطرة والحذّر من الشرك الظاهر والخفي، والسعي بطريقة طبيعية إلى الخير والجنة ورضوان الله.(٤٩٠)

ولهذا المعني الواسع تُصبح التقوى هي المصدر الوحيد لقيمة الإنسان وكرامته.. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الْحُجُرَات:١٣). وجعلها الله من الغايات الكريمة... قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البَقَرَة:٢١).(٤٩١)

والإخلاص لا ينفكّ عن "التقوى" فهما شيء واحد، وهما يوجبان ترك الحَلال الكثير من أجل حرام قليل الْتبس به، وترْك كل المشتبهات التي تسمي فقهيًا "درء المفسدة". فلا تمش أول خُطوة في طريق يؤدّي إلى النار بعد ألف خطوة...(٤٩٢)

وللتقوى أبعاد ذكر الإمام الشيخ فتح الله كولن أهمّها:(٤٩٣)

- أن يتجنّب العبد ما سوى الله ﷻ قلبيًا وشعوريًّا وتوكلاً.
- وأن يوفّي أحكام الدين حقّها، ظاهرها وباطنها.
- وأن يتحرز من كل سلوك يوقعه في المعصية.
- وأن يحذر من كل ما يبعده عن الله سبحانه.

---

(٤٩٠) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٩٢/١.

(٤٩١) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٩٢/١.

(٤٩٢) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٩٥/١.

(٤٩٣) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٩٦/١-٩٧.

- وأن يكون يقظًا تجاه الأهواء النفسانية التي تقوده للمنهيات.
- أن يعلم أن كل شيء من الله وحده ماديًّا كان أو معنويًّا، فهو لا يملك شيئًا.. والله هو "الصمد" الذي لا تُقضَى الحوائج إلا به..
- وألا يجد في نفسه أنه أفضل من أيّ أحد.
- وأن يجعل رضاه سبحانه غاية مناه.
- وأن ينقاد انقيادًا تامًّا للقدوة الأعظم ﷺ.
- وأن يجدد حياته الروحية والقلبية بالتدبّر في آيات القرآن المسطور والكون المنظور.

الرجاء والدعاء في مرحلة الخوف

بالتقوى يتّجه الإنسان إلى الأعلى.. فيكون بجسده في الأرض، وبروحه وقلبه في السماء... إنه يرنو إلى الله ببصيرته وفؤاده ملحًّا متذلّلا يرجو الرضا والرضوان من ربه.. متوسلا بأسماء الله الحسني.. وبحب الله لنبيّه محمد ﷺ... وبين عينيه خوف تضطرب به جوانحه.. وأمل في عبور ذلك اليوم الرهيب ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(الشُّعَرَاء:٨٨-٨٩).. إنه يعيش في خوف، لكن ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأَعْرَاف:١٥٦) تفتح له باب الرجاء والأمل في العبور.

والرجاء، استشراف ألطاف الله وآلائه.. والامتلاء بالأمل لأجل المستقبل والعيش به لنيل المأمول. وقد عرّفه الصوفية بأنه "تعلّق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل القريب جدًّا"[٤٩٤]، لكنه البعيد بالمقاييس البشرية، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ *

---

[٤٩٤] الرسالة القشيرية، الإمام القشيري، ص:٢٢٢.

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾(الْمَعَارِج:٦-١٠).[٤٩٥]

إن انتظار العناية من الله تعالى، هروبًا من الآثام -كما يقول إمامنا فتح الله كولن- وكذلك السعي المتواصل في طريق الحسنات والخيرات كالمتسابق فيها، ثم التوجه إلى ذلك الباب السامي، وترقّبُ عظيم رحمته تعالى، لهو رجاء صادق، وهو أُفق أمل الصادقين. وبخلافه فإن توقّع الثواب والمغفرة من دون عمل، أو التخبط طوال العمر في وديان الضلالة التي تسع أمثاله، ثم التحدث عن بُحْبوحة الجنة.[٤٩٦]

إن الرجاء ليس "تمنّيًا"، إذْ التمني هو تصوّر غير مقطوع فيه، بل توقُّع خائب لا أمل فيه. بينما الرجاء هو بذل الجهد من خلال جميع الوسائل التي يمكن أن توصل إلى المطلوب ببصيرة وشعور متوهج بنور النبوة لاستمطار الرحمة الإلهية.[٤٩٧]

وفي تضرع حافل بالنور مشحون بالرجاء والأمل في قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٦).. يقول يحيى بن معاذ مخاطبًا مولاه: "يكاد رجائي لك مع الذنوب، يغلبُ رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفّيّها وأحرزُها، وأنا بالآفات معروف. وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف"[٤٩٨].[٤٩٩]

---

[٤٩٥] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٨٢/١.

[٤٩٦] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٨٢/١.

[٤٩٧] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٨٣/١.

[٤٩٨] الرسالة القشيرية، الإمام القشيري، ص:٢٢٤؛ إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، ١٥٣/٤؛ مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٦/٢-٣٧.

[٤٩٩] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٨٥/١.

والرجاء في حقيقته بُعدٌ آخر لحُسن الظن بالله. والحديث القدسي «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[٥٠٠] يُعبّر عن الملاطفة الخاصة.. وقد رأى أحدهم أبا سهل في المنام على هيئة حسنة جدًّا، وسُئل: يا أستاذ بماذا نلت هذا؟ فقال: "بحُسن ظنّي بربّي"[٥٠١].[٥٠٢]

* * *

إن هذا المناخ "الزمرّدي" العلوي السامق فوق قمم "التلال" الذي يجعلنا نعيش ونتنفّس هواءه النقيّ الروحي السماويّ -إمام عصرنا العلامة فتح الله كولن-، يدخل كله في باب الوقوف بين يدي الله بذلٍّ وإلحاح وفقر ومسكنة وسكينة وإخبات.. راجيًا أن يكون كل ما يقوله من باب "الدعاء"... لأن "الدعاء" هو العبادة... وهو "جوهر العبادة" وهو "مخّ العبادة" وهو "خلاصتها وذروة سنامها"...

وفي فكر الشيخ كولن -وما أوسع مساحة فكره وأبدع عباراته وأروعَ معانيه وأسمي مراميه!- في فكره ينساب "الدعاء" كأنه الروح والدم والهواء بالنسبة لحياة الإنسان...

وإن محاولتك أن تأتي بنموذج من أدعيته وهو جامع "القلوب الضارعة"[٥٠٣] إنما هو تكرار لا معنى له.. وجهد ضائع لا يضيف جديدًا.. بل إنني أرى -ببصيرتي وبصري- حياة الشيخ العلامة "فتح الله" نفسها ومن جميع جوانبها وألسنتها المقالية والحالية إنما هي دعاء..

---

[٥٠٠] البخاري، التوحيد ١٥؛ مسلم، التوبة ١؛ الترمذي، الدعوات ١٣٢.

[٥٠١] الرسالة القشيرية، الإمام القشيري، ص:٢٢٥؛ إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، ٤/ ١٥٣.

[٥٠٢] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٨٥.

[٥٠٣] القلوب الضارعة، إشراف: فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٧.

إن عبراته ودموعه الغزيرة تنسابُ مع كلمات دروسه.. فيجلس التلامذة بين يديه وكأن عيونهم تصبّ فيها قنوات من الأنهار.. فتذرف دائمًا..

فيا لها من مجالس تعيش على النور وتمضي في أضواء "إمام المتقين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام" الذي يقول بعبرات مسكوبة في حديثه الشريف، حين كان يتهجد ويتأوّه خاشعًا فتخرج كلماته كأنها نور يخرج من النور، ويتّجه إلى النور الأعلى والأعظم: «اللهم لك الحمد، أنت قيّم السماوات والأرض ومَن فيهن؛ ولك الحمد، لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن؛ ولك الحمد، أنت مَلكُ السماوات والأرض؛ ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيّون حق، ومحمّد حق، والساعة حق.. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أَنَبْتُ، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت.!» (متفق عليه).

ومن هنا يبدأ الصعود.. فعن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي» (رواه البخاري).

والمقْتدون بإمام المتّقين هم وحدهم الذين ينجحون في اقتلاع جذور ما سواه تعالى من قلوبهم، ويكون الإيمان والاقتداء بالنبيّ الخاتم حجابًا في قلوبهم وفي سرّهم وفي أخفى خفاياهم.. فيجتثون الشرك الخفيّ من أعماق ذواتهم، ويرمونه، وكل ما يتصل بظلاله في وديان العدم، فيعاودون استشعار علاقتهم بنور الأنوار، مظهرين حقيقة قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ

أَوَّابٌ﴾(ص:٣٠)، سائرين في مدار الأوب والإنابة والتوبة.[٥٠٤]

وهؤلاء هم الأوّابون التوابون الذين يملكون إرادة تجديد الإنسان لنفسه باستمرار، ورجوعه إلى صفائه الأصلي وانسجامه مع فطرته الذاتية، بعد عبوره التشوهات الطبعية والداخلية.[٥٠٥]

ومن خلال الأضلاع الأساسية للنقاء والتوبة -كما يقول الإمام الروحي كولن- وهي:[٥٠٦]

- الندم من أعماق القلب.
- تذّكر الأخطاء السابقة بارتعاش ورِعدة.
- إزالة المظالم ونصرة الحق.
- إيفاء الواجبات والتكاليف حقّها، وإمعان النظر باستمرار وديمومة في المسؤوليات.
- ملء الثقوب "الخواء" الذي أحدثته الأخطاء والزلاّت في الروح، بالعبادة والطاعات واغتنام التضرعات في جوف الليل.
- التحسّر والبكاء على الحياة التي تمضي دون ذكْر وفكْر وشكر، والتأوّه والأنين خوفًا وَوَجَلاً مما يمكن أن يكون تعلقًا بما سواه تعالى في الشعور والفكر.

والذي لايئنّ ولا يتوجع من الخطأ -مهما يكن مستواه في أثناء التوبة- ولا يرتعش نادمًا من عثرات يمكن أن تحدث، ولا يشعر باشمئزاز، ولا يتملكه الازدراء نتيجة بُعده عن الله سبحانه، ولا يحاول التخلص مما وقع

---

(٥٠٤) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٣٤.

(٥٠٥) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٣٤.

(٥٠٦) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٣٤.

فيه من أخطاء وزلات في عبوديته لله وتخلّفه بالعبودية... يكون كاذبًا في توبته.(٥٠٧)

صعود السالكين في مدارج النور

وهكذا مَضَينْا بقيادة إمامنا الشيخ فتح الله كولن في "مدارج السالكين"، وها هو يصل بنا بعد رحلة نفسية وروحية جميلة شاقة إلى المدْرج الأخير. وها هو لا يتركنا عند "التلال" نلتفت يمينًا ويسارًا نبحث في النور عن النور، وفي الروح عن الروح... بل يأخذ بيده اليسري أيدينا، بينما يده اليمني تعانق يد "إمام المتّقين وخاتم المرسلين ﷺ" الذي فاز وحده من بين مليارات البشرية الأرضية بالوصول إلى قمّة القمم ﴿سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾(النَّجم:١٤) و ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(النَّجْم:٩)، حيث لم يستطع "الروح جبريل عليه السلام" أن يخطو خطوة واحدة مع أنه ﴿الرُّوحُ الأَمِينُ﴾(الشُّعَرَاء:١٩٣)...

لكن نبي الروح الحقة، والإنسانية والربّانية الحقة، صعد وحده، ليغشاه من ربه ما يغشي ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(النَّجْم:١٧-١٨)، بما لا يمكن أن تُحددّه اللغة ولا الطاقة الإنسانية.

ثم عاد إلينا يحمل بشرى "سيادة الإسلام على العالم"، سيادة الحب والروح إلى أن يرِث الله الأرض وما عليها، حتى ولو كانت أمّته قليلة العدّة والعمل، لكنها تنام وتقوم وتهبط بعض المدارج لتصعد مدارج أكثر.

لقد عاد بمفتاح صعود أتباعه وأحبابه إلى الله، وأقدامُهُم في الأرض وأرواحهم في السماء... فالصلاة (خمس مرات في اليوم) ترسل أشعّتها

(٥٠٧) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٣٤.

إلى السماء، فتستقبلها العناية الإلهية...

وعلى طول الزمن الإسلامي تبقى الصلة يومية بين الخالق والمخلوق، والسيد والعبد، والله والإنسان، بفضل الصلاة.

عتاب السالكين

عاش الشيخ "فتح الله كولن" يجاهد، ويشدّ بأيدينا عند المدرج الأخير من مدارج السالكين، لنصل ببركة اليد "النبوية الشريفة" إلى أن نجح أخيرا، وأصعدنا إلى قمة التلال... "التلال الزمردية".

فيا له من قائد روحي مبارك أعطاه الله الروح والعقل والقلب وملكة الإبداع.

ومع ذلك لم يَحدْ عن الطريق، بينما هو يمشي بين أشواك التصوف والتجارب الروحية... فكان نموذجًا رائعًا للإمام "أبي القاسم الجنيد" في عصرنا.

إن هذا النوع من التصوف السنّي و"الجانب العاطفي في الإسلام"[٥٠٨] (حسب تعبير أستاذنا الشيخ محمد الغزالي رحمه الله) هو الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة في سياق واحد، ولا يرى فصلاً بينهما، بل إن الحقيقة يجب أن تستمد نورها من نور الشريعة.

وكما كان الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت:٧٢٨هـ) محبًّا للمتصوف الكبير "أبي القاسم الجنيد" لالتزامه بالكتاب والسنة والشريعة والحقيقة.. لأن الجنيد كان يركّز على دقائق التوحيد وأسراره، ولا ننس هنا عبارة الجنيد الشهيرة: "إن التوحيد إفراد القديم عن الحديث".. وهذا

---

[٥٠٨] اسم كتاب للشيخ محمد الغزالي، مصر.

التعريف يرسم لنا معالم مذهب الجنيد، فليس توحيده حلولاً، ولا اتحادًا، ولا مشوبًا بظلال توحي بذوبان المسافة بين الخالق والمخلوق، ولكنه تمييز واضح بين الله الفرد والإنسان العبد، وكان رسول الله محمد ﷺ أعبد العابدين.

وقد نصّ الجنيد في كثير من أقواله على أن الخالق مُبَاينُ ومخالف لخلقه، وتصوفُه يمثّل تصوف الفقهاء في عصره، لأنه يعتمد في منهجه -كما يرى ذلك كثيرون- على الكتاب والسنّة، وكان يقول لمريديه: "من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقْتدَى به في هذا الأمر، لأنَّ علْمنا هذا "التصوف" مقيد بالكتاب والسنة". وكان يقول: "كل الطرق مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنّته، ولزم طريقته.. فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه".

* * *

جزى الله إمامنا الكبير الشيخ "فتح الله كولن" الذي نراه "أبا القاسم الجنيد" لهذا العصر عنّا خيرًا.. وجزاه عن الإسلام -روحًا وشريعة وأخلاقًا وبعثًا للأمة وحضارتها- خيرْ ما يجزي عباده المجاهدين الصادقين الصالحين. ولا حرمنا الله أنفاسه العبقة الدائمة، أطول ما تبقى أنفاس البشر.. وحفظه الله أستاذًا لمحبيه ولكل المؤمنين.



بين حِكم ابن حزم الأندلسي وحِكم الأستاذ فتح الله كولن

حِكم ابن حزم الأندلسي(٥٠٩)

من المعروف لدى المؤرخين أن التاريخ لا يعيد نفسه، فحركة التاريخ لا تعود إلى الوراء، ولكن التاريخ يعيد تطبيق شروطه، وربما تكون النهاية واحدة لأقوام تفصلهم قرون عن بعضهم، مهما اختلفت أشكال النهاية. فمهما تعددت الأسباب أو العذاب، فالموت واحد.. وبين عصرى ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦ هـ) وعصر الأستاذ الداعية محمد فتح الله كولن (مواليد ١٩٣٨م - ونسأل الله أن يطيل عمره)، نحو عشرة قرون.. وكلاهما -مع ذلك- عاش الهم الإسلامي، وحاول بعث الأمة. وكانت النتيجة (الظرفية) مؤلمة لابن حزم في زمانه الذي عاشه، ثم كانت آثاره عظيمة مؤثرة في العالم الإسلامي بعد موته؛ أما الشيخ كولن فكانت النتيجة ممزوجة بالألم في بدايتها، ثم كانت طيبة في بقية حياته الممدودة، وفي القرون الثالثة بإذن الله.

---

(٥٠٩) راجع في ترجمة ابن حزم كتابنا: ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ط: دار الصحوة، القاهرة، ٢٠١٠م. وراجع في حكم ابن حزم رسالته الصغيرة التي كتبها في لبلة في غرب الأندلس عندما يئس من إصلاح الأحوال في عصر الطوائف (٤٢٢-٤٧٨هـ) فذهب إلى قريته وكتب رسالته "رسالة في مداوة النفوس" وتسمي باسم "رسالة في الأخلاق والسير"، حققها كثير منهم الدكتور الطاهر مكي، ط: القاهرة، وقد اقتبسنا منها هذه الحكم.

وُلد علي بن سعيد بن أحمد أبي محمد المعروف بـ"ابن حزم" ليلة عيد الفطر سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بقرطبة وكان مولده بقرطبة (جوهرة مدائن الأندلس - إسبانيا) في الجانب الشرقي بربض منية المغيرة، بقصر أبيه القريب من مدينة المنصور بن أبي عامر الزاهرة التي خص بها نفسه ومساعديه في الحكم، وجعلها إمارة تجمع بين مظهر قوة السلاح ومظاهر العظمة والجاه.

وفي صحبة أخيه أبي بكر -الذى يسبقه بخمس سنوات- عاش ابن حزم سنوات طفولته، ولا شك في أنها كانت طفولة سعيدة طيبة؛ إذ كان أبوه وزير دولة بني عامر منذ ثلاث سنوات، وبعد ذلك توالت سنوات ابن حزم وتتابعت مراحل تكوينه العلمي وتثقيفه، كما تنوعت مصادر التعليم بين مشايخ وكتب وحلقات حوار ومناظرات حتى صار مجتهدا في عِلْمَي أصول الفقه والفقه، ومع ذلك فقد أبحر في معظم العلوم وأبدع في مقارنة الأديان وفي الأدب وفي نظرية المعرفة، وفي الفقه المقارن من خلال رؤيته الاجتهادية التي ألزم بها نفسه، وهو المنهج الظاهري سواء في الفقه أم في بقية شؤون الحياة وهو القائل:

وَذِي عَذلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنُهُ يُطِيلُ مَلاَمِي فِي الهَوَى وَيَقُولُ
أَمِنْ حُسْنِ وَجْهٍ لاحَ لَمْ تَرَ غَيرَهُ وَلَمْ تَدرِ كَيْفَ الجِسْمُ، أَنْتَ قَتِيلُ؟
فَقُلتُ لَهُ: أَسْرَفْتَ فِي اللَّوْمِ فَاتَّئِدْ فَعِنـدِيَ رَدٌّ لَوْ أَشَاءُ طَوِيلُ
أَلَمْ تَرَ أَنِّي ظَاهِرِيٌّ وَأَنَّنِي عَلَى مَا بَدَا حَتَّى يَقومَ دَلِيلُ

وفي هذا المعنى (أى الأخذ بالظاهر) فقد في فقهه للدين أصولا وفروعا. يقول ابن حزم:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت أقـوالـهـم، وأقـاويـل الـورى محن
فقلت: هل عيبهم لي غير أني لا أقـول بـالـرأي، إذ فـي رأيـهـم فتن
وأنني مولـع بالنص، لست إلى سـواه أنـحـو ولا فـي نـصـره أهـن

لذةُ العقل بتمييزه، ولذةُ العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذةُ المجتهد باجتهاده أعظم من لذة الآكل بأكله، والشارب بشربه، وبرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل، واجدون لسائر اللذات التي سميناها كما يجدها المنهمك فيها، ويحسونها كما يحسّها المقبلُ عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر.

إذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك وانتهت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا، إلا أن الحقيقة في العمل للآخرة فقط، لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن، إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه ولا بد من أحد هذين الشيئين إلا العمل لله ﷻ، فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل؛ أما العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس، وأنك به معظم من الصديق والعدو، وأما الآجل فالجنة. وإذن فطرد الهمِّ مذهب قد اتفقت الأمم كلها، مُذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء ويعقبه عالم الحساب.

وكل غرض غيره ففي الناس من لا يستحسنه؛ إذ في الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة..

وفي الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق. وفي الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بُعد الصيت. وفي الناس من

لا يريد المال ويؤثر عدمه على وجوده، ككثير من الأنبياء عليهم السلام ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة. وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه، ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين فَقْدَ المال على اقتنائه. وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم، كأكثر من ترى من العامة... وهذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها.

وليس في العالم -مُذ كان إلى أن يتناهى- أحد يستحسن الهمَّ ولا يريد طرده عن نفسه.

وحدُّ العقل، استعمال الطاعات والفضائل، وهذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي والرذائل. وحدُّ الحمق، استعمال المعاصي والرذائل والتعدي، وقذف الحجارة والتخليط في القول.

من امتُحن بالعُجب (الكبْر) فليفكّر في عيوبه، فإن أُعجب بفضائله فليفتّش ما فيه من الأخلاق الدنيئة، فإن خفيت عليه عيوبه جملة -حتى يظن أنه لا عيب فيه- فليعلم أن مصيبته إلى الأبد، وأنه أتم الناس نقصًا، وأعظمهم عيوبًا، وأضعفهم تمييزًا... وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل، ولا عيب أشد من هذين، لأن العاقل هو من ميَّز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها، والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه.

فإن أعجبت بعقلك ففكر في كل فكرة سوء تحل بخاطرك، وفي أضاليل الأماني الطائفة بك، فإنك تعلم نقص عقلك حينئذ. وإن أُعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها، ولا تنسها. في كل رأى قدرته صوابا، تخرج بخلاف تقديرك، أصاب غيرك، وأخطأت أنت.

لا تفكر فيمن يؤذيك، فإنك إن كنت مقبلا فهو هالك وسعدك يكفيك، وإن كنت مدبرا فكل أحد يؤذيك.. طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر

مما يعلم الناس منها.

الصبر على الجفاء ينقسم ثلاث أقسام:

١-فصبر عمن يقدر عليك ولا تقدر عليه.

٢-وصبر عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك.

٣-وصبر عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك.

فالأول ذل ومهانة، وليس من الفضائل.

والثاني هو الصبر الذي يوصف به الفضلاء.

والثالث ينقسم قسمين، إمّا أن يكون الجفاء لا يقع منه إلا على سبيل الغلط، ويعلم قبح ما أتى ويندم عليه، فالصبر عليه فضّل وفرض، وهو صبر على الحقيقة؛ وأما من كان لا يدرى مقدار نفسه ويظن أن لها حقًّا يستطيل به ولا يندم على ما بدر منه، فالصبر عليه ذل للصابر، وإفساد لمن صبر عليه، لأنه يزيد استشراء، والصواب إعلامه بأنه كان ممكنا أن ينتصر منه، وأنه إنما تُرك ذلك استذالاً له فقط، وصيانة عن مراجعته، ولا يزاد على ذلك.

وأما جفاء السّفلة فليس جزاؤه إلاّ النَّكال وحده.

لا تبذل نفسك إلا فيما هو أولى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله ﷻ.. ويقول: "باذِلُ نفسه في عَرَضِ الدنيا، كبائع الياقوت بالحصى". ويقول أيضا: "لا آفة على العلوم وأهلها أضرّ من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويظنون أنهم يصلحون"..

حِكم فتح اللّه كولن[٥١٠]

"النفس آية من آيات الله تعالى، أقسم بها بنص القرآن، ففهْمُها وإدراك ما تنطوي عليه من لطائف وأبعاد غيبية وشهودية دليلٌ على أن السالك قد خطا الخطوة الأولى في طريق السلوك.. وتأتى الخطى بعدها متتاليات من تخلية وتحلية وتزكية، أو إن شئت قلت من إسلام وإيمان وإحسان، وإن شئت قلت هو علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وإن شئت قلت هو استغراق بالكلية في حب الله وهيام به، وعشق قد يبلغ بصاحبه أحيانا حد الشَّدَه"[٥١١].

التوبة

"ليست التوبة ترك ما يعافه الوجدان والشعور بالتقزز منه فحسب؛ بل هي الرجوع إلى الله سبحانه عما لا يحبه ولا يرضاه تعالى، حتى ولو كان الشيء جميلا ونافعا بظاهر العقل"[٥١٢].

"التوبة النصوح هي أخلص توبة وأصفاها، وإنها صادرة من أعماق القلب، وبمعنى آخر إنها رأب الصدع، ورتق الفتق، وإصلاح الفاسد دون ترك ثلمة مهما كانت"[٥١٣]، والتوبة الذاتية النابعة من الأعماق (خالصة جادة) تحقق-بإذن الله- عفو الله.

---

[٥١٠] اقتبسنا حكم الشيخ فتح الله كولن من مجموعته الوجدانية الروحية "التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح"، و"ونحن نقيم صرح الروح"، و"ترانيم روح وأشجان قلب"، و"الموازين أو أضواء على الطريق".

[٥١١] التلال الزمرّدية، فتح الله كولن، مقدمة الكتاب، ٦/١.

[٥١٢] التلال الزمرّدية، فتح الله كولن، ٣٢/١.

[٥١٣] التلال الزمرّدية، فتح الله كولن، ٣٢/١.

ولكي تكون التوبة صادقة يلزم: "١-الندم من أعماق القلب، ٢-تذكّر الأخطاء السابقة بارتعاش ورعدة، ٣-إزالة المظالم ونصرة الحق، ٤-إيفاء الواجبات والتكاليف الفائتة حقَّها وإمعان النظر مجددًا في المسؤوليات، ٥-ملء الخواء الذي أحدثته الأخطاء والزلات في الروح بالعبادة والطاعات واغتنام التضرعات في جوف الليالى، ٦-وبالنسبة للخواص وأخص الخواص: التحسُّر والبكاءُ على الحياة التي تمضي دون ذكرٍ وفكر وشكر، والتأوُّه والأنين وجِلاً مما يمكن أن يتسرّب بقصدٍ شيءٌ مما سواه تعالى في الشعور والفكر. إن الذى لا يئنّ، ولا يتوجع من خطأ، ولا يرتعش نادما من عثرات يمكن أن تحدث، ولا يشعر باشمئزاز (...) يكون كاذبا في توبته"[٥١٤].

المحاسبة

حاسب نفسك..

"المحاسبة كالقنديل في عالم المؤمن الداخلى، وكالناصح الأمين في وجدانه، يميز بها الخير عن الشر، والحسن عن القبح، وما يحبه الله عما لا يحبه"[٥١٥].

ومن تجربتي أقول: "إن محاسبة النفس باستمرار ومعاتبتها هي من كمال الإيمان، وكلّ روح تستهدف أفق الإنسان الكامل ووضعت خطتها وَفْقَه، هي في شعور تام بحياتها المعيشة، فيقضي صاحبُها دقائق عمره في مجاهدة مع نفسه، حتى أنه يسأل الشفرة (أو كلمة السر) عن كل خاطر

---

[٥١٤] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٣٤.

[٥١٥] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٤٠.

يمر على قلبه، ويطالب تأشيرة الدخول لكل فكر يرد إلى عقله، ويراقب مراقبة دائمة نفسانيته -أي التي تداخلت فيه النفس- وأعماله المفتوحة للشيطان ولتوتر الأعصاب ولحدة الحساسية. بل كثيرًا ما يحاسب نفسه على أجلّ حالاته وأفضل أطواره.. ويحرّك كل صباح ومساء ما في يده من مكوك لحياكة المحاسبة بين لحُمة اللوم وسَداه ساعيًا بهذه الحالة الروحية حياكة نسيج حياته الرقيقة.. فيعيد كل مساء استعراض نواقصه وأخطائه ويدققها، ويستقبل كل صباح سادًّا أبوابه للآثام ويفتح صفحة جديدة بعزم جديد"[٥١٦].

التفكير فريضة إسلامية

التفكر هو نور في القلب يميز به الإنسان بين الخير والشر، وتكتسب به كل آيه جليلة عمقا خاصا بها.[٥١٧]

"التفكر مصباح يضيء الحوادث، للاعتبار واستنباط النتائج المتنوعة منها.. وهو مفتاح ذهبي للتجارب.. ومشتل لأشجار الحقيقة.. وبؤبؤ نور القلب. ولأجل هذا فالإنسان الأُفق ﷺ الذي تسنّم الذرى في كل شيء حسن جميل، استولى في التفكر على الذروة بقوله: «تَفكَّروا في آلاء الله

---

[٥١٦] التلال الزمرّدية، فتح الله كولن، ١/٤١.

[٥١٧] يقـول فتـح الله كولن: "التفكر هو نورٌ في القلب، وأيّ نور، به يميّز الخير عن الشـر والنفـع عـن الضر والحسـن عـن القبح، وبه تتحـول الكائنات إلى كتاب يُقرأ، وبه تكسـب كل آية جليلة عمقًا خاصًّا بها". (التلال الزمرّدية، فتح الله كولن، ١/٤٢).

ولا تَفكَّروا في ذاتِه، فإنّكُم لَن تَقْدروا»(٥١٨)"(٥١٩). إن التفكر في "النعم" هو من شروط النجاة في طريق الحياة الإسلامية، ولكن التفكر في ذات الله تعالى ضلال وإثم مبين.

يقول الأستاذ كولن: "التفكر مفتوح على جميع العلوم حيث إنها ميدان بحثه وتنقيبه، إلاّ أن العلوم العقلية والتقريرات الوضعية ما هي إلاّ مقدمات لهذه النتيجة العظيمة وواسطة لها وطريق إليها.. وهذه جميعها متوجهة بمحتواها الحقيقي وبوجهها الصائب إلى العلم الإلهي الواحد، إن لم يُسقم دماغ الإنسان بمعالجات خاطئة"(٥٢٠).

القلب بيت الله.. فاحفظه بالخلوة والتفكر

كانت العزلة سنة في الأنبياء، وكان فخر الإنسانية محمد ﷺ يمارس العزلة. يقول كولن: "والخلوة قديمة، بل ضاربة في القدم، وذلك بمعناها العزلة عن الخلق وأخذ النفس بالرياضات؛ إذ هي موجودة في جميع الطرق الصوفية تقريبًا، حتى يمكن سحبها إلى عهود الأنبياء العظام عليهم السلام. ففي المقدمة فخر الإنسانية ﷺ وكثير من الأنبياء والأولياء قد زاولوا الخلوة والعزلة"(٥٢١).

فالعزلة انتظار القلب لتجليات الله بشعور يتجاوز الزمان والمكان،

---

(٥١٨) المعجم الأوسط للطبراني، ٢٥٠/٦؛ شعب الإيمان للبيهقي، ١٣٦/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٨١/١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٦٦/٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٣٧٠/١-٣٧١.

(٥١٩) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٤٢/١.

(٥٢٠) التلال الزمرّدية، فتح الله كولن، ٤٤/١.

(٥٢١) التلال الزمرّدية، فتح الله كولن، ٥٤/١.

يقول الأستاذ كولن: "إن الأصل في الخلوة هو الانتظار متهيئًا لتوجه منه سبحانه، ليل نهار، دون أن ترتد عين القلب نحو الأغيار قطعًا"(٥٢٢). "ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن الزمان والمكان، ولكن معاملاته مع الإنسان تجري دائما على سفوح القلب. وعليه، لا بد أن تكون تلال القلب الزمردية مستعدة دائما لاستقبال أمواج التجليات الآتية منه تعالى"(٥٢٣). وقد عبر عن ذلك إبراهيم حقّي الذى عبر عما يدور في النفس في أعظم زمان ومكان:

القلب بيت الله طهّرْه مما سواه،

لينزل الرحمن في الليالي على قصره"(٥٢٤).

"وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: "يا داود؛ إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي وحب غيري معًا"(٥٢٥)، أي أفرغ لي ذلك البيت كي أكون هناك. وقد فهم البعض أن الإفراغ هو تطهير القلب وتصفيته من التفكير في الأغيار وإبعاده عن الملاحظات الغريبة، ومن العلائق التي لا تذكّر بالله ولا طائل من ورائها"(٥٢٦). وجاء في حديث متشابه «ما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»(٥٢٧).

---

(٥٢٢) التلال الزمرّدية، فتح الله كولن، ٥٥/١.

(٥٢٣) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٥٦/١.

(٥٢٤) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٥٦/١.

(٥٢٥) الرسالة القشيرية، الإمام القشيري، ص: ٤٨٩.

(٥٢٦) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٥٦/١.

(٥٢٧) انظر: الزهد للامام أحمد ٨١؛ إحياء علوم الدين للغزالي ١٥/٣؛ المسند للديلمي ١٧٤/٣. كشف الخفاء للعجلوني ٢٥٥/٢، ٤٣١. (التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٢٢٣/١).

الرجاء

الرجاء انتظار مدد العناية من الله تعالى هروبًا من الآثام، وترقب عظيم رحمته تعالى، يقول الأستاذ كولن: " إن انتظار العناية من الله تعالى، هروبًا من الآثام، والسعي المتواصل في طريق الحسنات والخيرات كالمتسابق فيها، ثم التوجه إلى ذلك الباب السامي، وترقّب عظيم رحمته تعالى، لهو رجاء صادق، وهو أُفق أمل الصادقين"(٥٢٨).

والرجاء هو بذل الجهد لدى جميع أبواب الالتجاء بالانتفاع من جميع الوسائل التي يمكن أن توصل إلى المطلوب ببصيرة وشعور منور بنور النبوة لاستحضار الرحمة الإلهية. والرجاء أمل في دخول أبواب الرحمة. يقول الأستاذ كولن: " والرجاء بتعبير آخر، هو ترقّبٌ لقسم من توجهات سبحانية أحدية الطابع، إيمانًا بشمولية الرحمة والمغفرة وإحاطتهما بكل شيء كما هي في الصفات الجليلة: العلم والقدرة والإرادة"(٥٢٩). قال تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأَعْرَاف:١٥٦). وفي الحديث القدسى: «إن رحمتى سبقت غضبى» (متفق عليه).

وفي الرجاء -أيضا- يحلق قلب محمد لطفى أفندي حول جود الكريم الودود سبحانه، بحثا عن طرق الالتجاء إليه تعالى فيقول:(٥٣٠)

جدْ بكرَمك يا سيدى الكريم ولا تحجبه عن المحرومين
فهل يليق بمن هو واسع الجود والكرم، حجبه عن المفتقرين؟

---

(٥٢٨) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٨١/١.
(٥٢٩) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٨٢/١.
(٥٣٠) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٨٢/١.

وفي أبيات من الشعر ذى المغزى العميق، يقول الإمام الشافعى ﷺ وهو يرجو الله في أيامه الأخيرة التى قضاها في غزة:[٥٣١]

ولمّا قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي   جعلتُ الرجا لعفوك سُلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنْتُه   بعفوِك ربّي كان عفوك أعظما

ويشير الشيخ كولن إلى أعماق أخرى في الرجاء فيقول "إن استنشاق الخوف من الله باستمرار، فيما يجنّب الإنسان الذنوبَ والمعاصي، ويوجّهه إليه تعالى، ويقرّبه منه، ومع الاستمساك بالرجاء لدى الوقوع في حفر اليأس وظهور أمارات الموت؛ يُعدّ مقياسًا لحالة التوازن بين الخوف والرجاء"[٥٣٢].

ويا له من ملمح رائع يصور الحالة الشعورية للرجاء بينما المسلم يتأرجح بين صور من الطاعة وصور من المعصية ويسعى إلى الإقلاع والنجاة متشبثا بالرجاء...

إن الشيخ كولن ينقل هذا المشهد الوجدانى إلى نفوسنا بقلمه البليغ، مقدما فيما يقدم نكتة لطيفة عن يحيى بن معاذ: "يكاد رجائي لك مع الذّنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأنّي أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أصفيها وأحرزها، وأنا بالآفات معروف؛ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟!"[٥٣٣].

---

[٥٣١] ديوان الشافعي للشافعي، ص:١٠٠؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/١٥٠.

[٥٣٢] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٨٤.

[٥٣٣] الرسالة للقشيري ٢٢٤؛ إحياء علوم الدين للغزالي ٤/١٥٣؛ مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٦-٣٧؛ وانظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٨٤.

الشكر

الشكر كما يقول الشيخ كولن نوعان؛ أولهما: "الشكر بالقلب، وهو معرفة جميع النعم الظاهرة والباطنة المنْتفَع بها، من الله تعالى، ومن ثم توجه الحياة وإقامتها وفق هذا المفهوم"[٥٣٤]. والنوع الثاني "الشكر بالجوارح، وهو استعمال كل عضو وكل لطيفة وفق الغاية التي خُلقتْ لأجلها، وأداء ما يخصّ كلا منها من العبودية والطاعة. وهناك من يرى أن شكر اللسان هو بالأوراد والأذكار. وشكر القلب هو باليقين والاستقامة، وشكر الجوارح [ومنها اللسان] هو بالعبادات والطاعة"[٥٣٥].

الصبر

الصبر هو "احتمال الأذى والألَم أمام الحوادث والوقائع التي يصعب تحملها ويتعسر تجنّبها. والقرآن الكريم يأمر بآياته الجليلة بالصبر؛ صراحةً كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾(البَقَرَة:٤٥)، ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾(آلِ عِمْرَان:٢٠٠)؛ أو ينهى عن ضدّه كقوله ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَهُمْ﴾(الأحقاف:٣٥)؛ أو يثني على أهله كقوله ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾(آل عمران:١٧)"[٥٣٦].

وللصبر أنواع:

- الصبر على أداء الطاعات، بمعنى تحمل مشاق العبودية لله.

---

[٥٣٤] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٥٩.

[٥٣٥] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٥٩.

[٥٣٦] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٦٤.

• الصبر على اجتناب المعاصى، أي تجاه ما تهشّ له النفس من وسائل الإثم.

• الصبر على البلايا الأرضية والسماوية، والذي يتضمن الرضا بقضاء الله وقدَره.

• الصبر على نهج الاستقامة، والحفاظ عليه دون تغيير وتبديل، تجاه مفاتن الدنيا.

• الصبر على الزمان فيما يحتاج إلى زمان ووقت.

• الصبر على لواعج شوق الوصال، لحين بلوغ أمرِ ﴿ارْجِعِي﴾ (الفجر:٢٨)"[٥٣٧].

ويستمر الأستاذ قائلا: "ولقد بُحث الصبر ضمن ستة أقسام من حيث كيفيته وتحققه:

١. الصبر لله، أي لأجله تعالى، وهو أُولى مراتب الصبر.

٢. الصبر بالله، أي العلم بأنه تعالى هو المصبِّر، وهو أسبق بخطوة من الأولى.

٣. الصبر على الله، بعدم الاستعجال تجاه التجليات الجمالية والجلالية للحق تعالى، قائلاً: (لله في كل شيء أسرار وحكم).

٤. الصبر في الله، أي استواء القهر واللطف في الطريق إلى الله (لا يفرّق بين حال النعمة والمحنة). لهذا الصبر ميزة خاصة، ويسبق الأقسام الأخرى.

٥. الصبر مع الله، أي البقاء معه تعالى مع مراعاة أسرار المقام الذي

---

[٥٣٧] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٦٥.

هو فيه من حيث خصوصية المعية والقرب.

٦. الصبر عن الله، وهو صبر عشاق الحقيقة، الذين عزموا على التحمل عن الوصال وهم بين الخلق"[٥٣٨].

[٥٣٨] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٦٦.



القضايا الوجدانية والروحية
في فكر الأستاذ فتح الله كولن

تحتل قضايا الروح ومسائل الوجدان مساحة كبيرة من فكر العلامة محمد فتح الله كولن، وتستحوذ على النصيب الأوفى من الدروس التي يلقيها والمجالس التي يعقدها.

وقد أوتي الأستاذ قدرة على أن يعالج أعقد المسائل الفكرية وأصعب القضايا التي تؤرق عقول الشباب وتحول بينهم وبين الإيمان الواثق العميق معالجةً روحيةً، تحس فيها نبض قلبه واختلاج مشاعره وحركة ضميره، ولا تفتقد في الوقت نفسه صفاء العقل ودقّة النظر وبراعة الاستدلال.

وللأستاذ -فيما نحن بصدد الحديث عنه- دراستان رائعتان: "ترانيم روح وأشجان قلب"[٥٣٩]، وثانيهما "التلال الزمردية، نحو حياة القلب والروح"[٥٤٠].

ترانيم وأشجان

فمن الدراسة الأولى نقتبس بعض لمعاته النورانية:

---

[٥٣٩] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

[٥٤٠] التلال الزمرّدية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل، القاهرة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

"افتح يا قلب.. دعني ألج بكلماتي إليك.. دعني أُعالج أغلاق خزائنك.. دعني أكشف عن أسرار مداخلك.. دعني أُطلق قواك الخفية.. وأدير مفتاح الفهم عن الله في روحك.. دعني أبتعث فيك مواجيد الحنين.. دعني أنفض عن أهداب روحك نعاس السنين.. دعني أشقّ أكفان الموت عنك.. دعني أبدّد ضبابيات الأرض التي تغشى وجودك.. دعني أنقش صورة الآخرة على صفحة الشغاف منك.. دعني أعَرِّف ذاتك بذات الكون.. دعني أعقد معرفة بينك وبين الطبيعة، وصلحًا بينك وبين شقيقك الإنسان..!"(٥٤١).

سحر الإسلام

ومن هذه الدراسة الوجيزة "الترانيم" ترنيمة بعنوان "سحر الإسلام" ذهب فيها إلى أن الذين يعيشون الإسلام بحق كما أنزل، هم الذين يحيون بقلوبهم في هذه الدنيا وكأنهم يعبون من كئوس اللذة في جنة الفردوس: "وإذا استثنينا الذين يفسرون الإسلام كما يحلو لهم، فإن من تعرف بظله مرة واحدة يتخلص من قلق العدم والفناء، ومن ظلام وعقدة الوعود الكاذبة، ويأخذ نفَس راحة ولو لمدة مؤقّتة. وإذا كان هناك أي فكر فتحه الإسلام أمام المؤمنين به، وأي حياة أخرى موعودة خارج هذه الحياة، فهي حياة الجنة للمؤمنين. والقدرة الإلهية الخالقة مهّدت للمؤمن حتى النقطة الأخيرة لما وراء أفق الدنيا وأعطته خاتم سليمان ، لذا بدأ السلاطين باتباع العدالة، وأصبحت القوة حامية للحق، وانفتحت الأبواب

(٥٤١) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، مقدمة الكتاب، ص:٥.

على مصاريعها أمام العلم، وانكسرت القيود والأغلال التي كانت تعيق حرية الفكر، وتوجّهت الشياطين -بعد نزعها لقرونها- إلى المعابد، وتخلى الملوك عن ظلمهم وجبروتهم، وساروا في طريق العدالة"[٥٤٢].

ويواصل قائلا: "إن الأرواح التي تعرّفت على الإسلام -بحق- تبتهج بنداء اللانهاية والخلود الذي تسمعه وهو صادر من كل شيء حواليها، فمن يخطو إلى شاطئه الآمن الهادئ يتبوأ الصدارة وإن عُدَّ من الدهماء عند الناس"[٥٤٣]، ومن لا يريد أن يعبر إلى الشاطئ فسيغرق يومًا ما.

ويشير كولن إلى مسألة أساسية، وهي أن "الإسلام ثابت من جهة ومتغير ومتطور من جهة أخرى"[٥٤٤]، وتلك لعمري عظمة الإسلام وفضيلته الكبرى التي جعلته دينًا خالدًا صالحًا للتطبيق إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، لأنه لا ينكر التطور ولا يقاوم التغيير، بل تتسع قواعده المرنة لاستيعاب كل تطورٍ وكل تغيير، مع ألفاظ على الثوابت الخالدة.

أفق القرآن الساحر

وفي دراسته حول "أفق القرآن الساحر" يتحدث كولن عن القرآن حديثًا روحيًّا يحرك أوتار القلوب ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(الْحَج:٣٥): "القرآن هو الضوء اللامع للكلمات والحروف في عالم الأزل والأبد. هو صوت الملكوت الذي يخاطب فكر الإنس والجن ومشاعرهما". "عندما رَنّ صوته انهمرت الأنوار على عيون القلب، وبدأت المشاعر التي فارت

[٥٤٢] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٩-١٠.
[٥٤٣] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١١.
[٥٤٤] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١١.

في الأرواح وتوهجت، والألسنة التي أصبحت ترجمانا لهذه المشاعر بإنشاد أناشيد النور. أجل!.. فاعتبارًا من اليوم الذي أضيئت به العيون والقلوب وتنورت، كم من لغز في الكون كان ينتظر الحل منذ آلاف السنوات، وكم من مشاكل معقدة متداخل بعضها مع البعض الآخر كانت تنتظر الحلول حلت الواحدة منها إثر الأخرى، وظهرت العلاقة الصحيحة بين الإنسان والوجود والخالق واضحة وضوح البدر التمام، ولبست كل الألغاز والمعميات لباس المعاني وانتظمت في مدارات الحكمة."[٥٤٥].

الدعاء

وثمة مقال بديعٌ عقده الشيخ لـ"الدعاء"، يجد القارئ عند قراءته نفسًا صوفية سنّية رقيقة.. يقول الشيخ: "الدعاء نداء وتضرع، وتوجه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسفل إلى الأعلى، ولهفة من الأرض ومن سكان الأرض نحو ما وراء السماوات، وطلب ورغبة وطرح لما في الصدور من آلام. والداعي يشعر بضآلته أولا، وبعظمة صاحب الباب الذي يتوجه إليه ثانيا. لذا يكون متواضعا جدا، وعندما يرفع يديه بالدعاء مؤمنا بالاستجابة، يتحول ومن حوله إلى عالم روحاني وسماوي، وكأنه يسمع تسبيحات وأذكار الروحانيين وأدعيتهم. والمؤمن بهذا التوجه وبهذا الدعاء لا يطلب ما يوده وما يطمح إليه فقط، بل يستغيث أيضا مما يخافه ويخشاه، وهو يعلم بأن الدعاء حصنه الحصين الذي يلجأ إليه"[٥٤٦].

---

[٥٤٥] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٥.

[٥٤٦] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢٣.

ويقول أيضًا: "إن من يستطيع فتح يديه لله داعيا وضارعا من كل قلبه، ويتوجه له، يستطيع تجاوز البعد الموجود بينه وبين ربه -الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد- والنابع من وضعه المادي والجسماني. وباحترامه لهذا القرب يستطيع الخلاص من وحشة بُعده عنه. ويشاء الله تعالى إسماعه ما يجب أن يسمع، ويريه ما يجب عليه أن يرى، وينطقه بما يجب عليه أن ينطق، ويوفقه لعمل ما يجب عليه أن يعمله"(٥٤٧).

الكعبة

وعن الكعبة يقول كولن: "إن كل قلب يشاهد المنظر الوقور للكعبة وظلّ جبهتها النورانية المنعكسة على المرمر، والمعاني التي تمثلها والتي تسمو وتتطاول نحو السموات، وجوها الذي ينبثق نورا، لا بد وأن يلمس بعض المعاني الخاصة الموجودة وراء منظر الكعبة، ويحس بلذة الهدف الذي من أجله قام بهذه الرحلة، وذلك في جو من نشوة العبادة، فيصل إلى سعادة بارتشاف لذة لا توصف"(٥٤٨).

المسجد الأقصى

وفي المقابل يفيض حديث الشيخ عن المسجد الأقصى الأسير ألمًا وحسرة، فيقول: "هذا المعبد العظيم الذي يحمل ألف ذكرى وذكرى، وألف خيال وخيال يقف الآن وقد نكس رأسه إلى الأرض، وأحاطت به الظلمات من كل الأطراف، وقد نال منه الرهق والنصب وهو يتطلع

(٥٤٧) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢٤-٢٥.

(٥٤٨) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٣٢.

إلينا وعلى وجهه مسحة من الحزن. كلما رأيناه بهذه الحال نحس كأن مآقينا تمتلئ بدل الدموع دما، وكأن أنفاسنا تتقطع. وبينما كان بالأمس محرابا مقدسا ينفح في نفوسنا نفحات ربانية، ومنبرا مبجلا، نراه الآن وقد قلع من جذوره وتكسرت أجنحته، وأطفئت أنواره التي كانت تشع على العالم، وتحول في يد بعضهم إلى شمعة تكاد تنطفئ، وإلى هيكل عظمي يكاد يقع وينكفئ على وجهه"[٥٤٩].

ويقول: "إن خروج المسجد الأقصى من أيدينا يؤلمني. ورؤيته أسيرا بيد آخرين يذيب القلب من الكمد. وفي الحقيقة فإنني عندما أراه كلؤلؤة تحطمت محفظتها وعلبتها أحس بمشاعر المرارة والألم تتصاعد من روحي وتهزه من أساسه وتقلبه رأسا على عقب"[٥٥٠].

وحسبنا أن سورة الإسراء تستهلّ به ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾(الإِسْرَاء:١).. ألا يهزّ هذا أوتار قلوبنا؟!

الحج

وفي مقاله عن "الحج" يلتفت كولن إلى ما تنطوي عليه هذه الشعيرة الأساسية من معانٍ اجتماعية وروحية، فهي عبادة تؤسس الوحدة الاجتماعية بين المسلمين.

ويقول كولن في نزعة عاطفية واضحة: "إنْ قُمْنا بتشبيه الطواف حول

---

[٥٤٩] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٤١.

[٥٥٠] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٤٤.

الكعبة حسب التعبير الصوفي بـ"السير في الله" الذي يعد في الأكثر سياحة حول شعور مبارك ومحاولة لزيادة العمق النفسي، فإن الذهاب والإياب في مواضع السعي يمكن أن نفسره بمعاني "السير إلى الله" و"السير من الله" الذي هو عنوان العروج من الخلق إلى الحق تعالى، ومن الحق إلى الخلق. أجل!.. ففي السعي بين الصفا والمروة يعيش الإنسان طوفان هذه المشاعر"[٥٥١].

الصلاة

وكذلك كان حديث شيخنا عن الصلاة حديثًا روحيًّا جذابًا يأسر القلوب ويزيد تعلقها بهذه الفريضة المؤكدة، فالصلاة وصلة استقبال وإرسال بين الله والإنسان خمس مرات في اليوم والليلة ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النِّسَاء:١٠٣).. "الصلاة معراج المؤمن، ودليله النوراني وبُراقه، وسفينة السائرين من أصحاب الإيمان، وأقرب المنازل والديار لعوالم وراء هذه الدنيا للسائرين الذين يبتغون الوصال ويبتغون القرب، وآخر خيمة لهم، وأقرب الوسائل لبلوغ الغاية والمرام"[٥٥٢].

يقول كولن: "إن هذه العبادة المباركة ذات الأبعاد الشاملة وذات الطابع المعراجي تقوم بنقل الإنسان إلى سماء اللانهاية لتصل به إلى عالم الملائكة. والإنسان يدع نفسه في لجة هذه العبادة خمس مرات في اليوم وكأنه يتطهر ويغتسل في جدول دافق. وفي كل مرة ننغمر فيه في هذا الجدول نشعر بأننا تطهرنا أكثر. ثم ينقلنا هذا الجدول إلى بحر واسع

---

[٥٥١] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦٩.

[٥٥٢] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٧٩.

ويتجول بنا بين نقطتي البداية والنهاية، وهذا يعني تمرينات لنقلنا إلى نقطة من عالم الآخرة والخلود هي خارج أبعادنا الاعتيادية"[٥٥٣].

ويكشف كولن عن المعاني الروحية العميقة في حركات الصلاة، فيقول عن الركوع: "الركوع ببُعده الذي يحمل معنى الانحناء أمام الحق تعالى توقيرا وتعظيما له، لذا فهو يأخذ معنى الانحناء من كل من أحنى ظهره"[٥٥٤].

ويقول عن السجود: "السجدة هي أرضية وخلفية الشكر، ووعاء المهابة الذي تصهر فيه العبودية وتسكب إلى قلب وقالب الواصلين، وعرصة وخليج مشاعر وأفكار الوصال المتوجهة للذات الإلهية ونقطة اللقاء. وكلما شعرنا بالسجود على وجهه الحقيقي، وتفاعلنا معه نحس -ونحن ننتقل من القيام في الصلاة إلى الركوع ثم إلى القيام- وكأن هناك عصارة من الإيمان ومن الإسلام ومن الإحسان تنسكب إلى التلال الزمردية لقلوبنا وتنساب إليها"[٥٥٥].

* * *

في الربوع الزمرّدية

أما في دراسته حول "التلال الزمردية" التي يصعد القلب المحبّ لله ولرسوله ﷺ إليها، فقد عالج الأستاذ قضايا التصوف الإسلامي السنّي الذي يمثل ركنًا أساسيًّا من أركان الثقافة الدينية والروحية له.. "فالتصوف

---

[٥٥٣] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٨٠.

[٥٥٤] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٨٦.

[٥٥٥] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٨٦-٨٧.

الصحيح تجربة النفس الإنسانية في طريق التزكية، ومعاناة روح أضناها الشوق إلى **الله**"[٥٥٦]، وحياة الأستاذ -دون شطط أو مبالغة- تجربة ومعاناة ورحلة دائمة إلى السماء.

وفي هذه الدراسة حاول الأستاذ العلامة أن ينقل للقارئ المسلم صورة التصوف الحقيقي الذي هو طريقة لتزكية النفس وتهذيب الخلق، وليس دروشةً وجهلاً وتواكلاً وهروبًا من الحياة، وتخففًا من أعباء العيش وتبعاته، كما يظن البعض.

ولبلوغ هذه الغاية عرَّف الأستاذ بالتصوف وشرح معناه، وبيّن أصله وموضوعه وفوائده والأسس التي يقوم عليها، و أشار إلى السياق التاريخي الذي نشأ فيه، وعرض لمعنى كلمة "الصوفي"، وبيّن الصفات التي يجب أن يتحقق بها الصّوفي. وبعد ذلك تناول الشيخ مقامات التصوف وأحواله مقامًا مقامًا وحالاً حالاً في عبارة واضحة تفيض عذوبة وروحانية، فذكر التوبة، والإنابة، والمحاسبة، والتفكر، والخوف، والخشية، والرجاء، والزهد، والتقوى، والورع، والمراقبة، والإخلاص، والاستقامة، والتوكل، والتواضع، والصدق، والحياء، والشكر، والصبر، والرضا، والانبساط، واليقين، والذكْر، والإحسان، والسكينة، والقرب، والمحبة، والعشق والشوق، والقبض والبسط.

وعلى هذا يمكن القول: إن هذه "دراسة للقلب الإنساني في أحواله ومقاماته وسيره وسلوكه إلى الله تعالى، كما أنها في الوقت نفسه دعوة لأرباب القلوب لكي يفيدوا مِمّا يقوم عليه هذا السلوك من خُلُقٍ وأدبٍ،

---

[٥٥٦] التلال الزمردية، فتح الله كولن، مقدمة الكتاب، ص:٥.

وأذواق وأشواق، في رؤية قرآنية وسنَّة نبوية لا تحيد عنهما"[٥٥٧].

على أن الأستاذ ظل في تجاربه الروحية كلها ممسكًا بميزان الشريعة، وهو خير ما يعصم السالك إلى الله من الشطط والانحراف، وفي ذلك يقول: "ففي أمثال هذه المواقف، فالحذر واليقظة وموازين السنة النبوية هي الأساس. أما رجال الحق الذين غلب عليهم الحال وهم مخمورون بحظوظ المشاهدة، فقد يتلفظون بأمور مخالفة لهذه الحقيقة. ففي أمثال هذه المواقف ينبغي البحث بإنصاف عن نيّاتهم وعدم الاستعجال في إصدار الحكم عليهم"[٥٥٨].

و"الصوفي الحق عند الأستاذ قرآني الروح سنيّ السلوك، فلا عروج ولا ارتقاء إلا فيهما ومنهما، فإذكاء نار العداوة بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة"[٥٥٩] عبث أضر بمصلحة المسلمين ووحدتهم أعظم الضرر، فلعل الله يقيض لهذه الأمة من يرأب الصدع، ويقرب بين المتخاصمين، ونعتقد أنّ "كولن" أحد هؤلاء، وأن ما قدمه من فكر خطوة على هذا الطريق.

التصوف

والتصوف عند الأستاذ كولن "اسم يطلق على الطرق الموصلة إلى الحق تعالى"[٥٦٠]، واستخلص الشيخ من كلام العارفين وأئمة التصوف قبله أن التصوف هو "الانسلاخ من الصفات البشرية -في معيار-، والتدثر

---

[٥٥٧] التلال الزمردية، فتح الله كولن، مقدمة الكتاب، ص:٥-٦.

[٥٥٨] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٣١-٢٣٢.

[٥٥٩] التلال الزمردية، فتح الله كولن، مقدمة الكتاب، ص:١٠.

[٥٦٠] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١٣/١.

بالأوصاف الملكية والأخلاق الإلهية، والعيش في مدار معرفة الله ومحبته تعالى والتذوق الروحاني"[٥٦١].

"وأصل التصوف هو الاعتصام بأسس الدين بقوة، ومراعاة أوامره ونواهيه بدقة، ومجانبة حظوظ النفس قدر المستطاع بملازمة الجوع واليقظة. أما أساس التصوف هو تعميق شعور العبودية السطحي وترسيخه بالمواظبة على العبادة والطاعة وجعله جانبًا مهمًّا لطبيعة الإنسان، وبلوغ الروحانية -التي تُعدّ فطرة ثانية للإنسان- والانتباه إلى وجهَي الدنيا المتوجهين إلى العقبى وإلى الأسماء الإلهية الحسنى، مع الانغلاق التام تجاه وجه الدنيا الفاني المتوجّه إلى ذاتها، وإلى أهوائنا"[٥٦٢]

وقد أجمل الأستاذ كولن "أركان التصوف" في الأمور التالية:[٥٦٣]

- بلوغ التوحيد الحقيقي بطرق نظرية وعملية.
- قراءة أوامر حضرة القدرة والإرادة الإلهيتين ومعاينتهما بجنب الاستماع إلى حضرة الكلام الإلهي وفهمه.
- الامتلاء بمحبّة الحق ﷻ، والقيام بحسن العشرة مع الناس قاطبة، بل مع كل شيء.
- العمل بروح الإيثار في كل وقت وحين، بتفضيل الآخرين -قدر المستطاع- على نفسه.
- تقديم المراد الإلهي على مراده هو، والسعي لإمضاء العمر صُعُدًا إلى ذرى "الفناء في الله" و"البقاء بالله".

---

[٥٦١] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٤.

[٥٦٢] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٥.

[٥٦٣] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٥-١٦.

- الانفتاح على العشق والوجد والجذب والانجذاب.
- استشفاف ما في الصدور من سيماء الوجوه، وقراءة الأسرار الإلهية على وجه الأحداث.
- تنظيم رحلات إلى مواضع تذكّر بالأخرويات، بنية السفر للكسب المعنوي وقصد الهجرة.
- الاكتفاء بالأذواق واللذائذ ضمن الدائرة المشروعة والعزم على عدم الإقدام خطوة إلى الدائرة غير المشروعة.
- المجاهدة المتواصلة والمناضلة الدائمة مع طول الأمل الذي يُنشِئه توهم الأبدية.
- عدم النسيان -ولو للحظة واحدة- أن لا نجاة إلاّ بطريق اليقين والإخلاص والرضا الإلهي، ولو كان العمل باسم خدمة الدين وفي سبيل إبلاغ الإنسانية قاطبة إلى الحق سبحانه".

وينكر أستاذنا ما روجه بعضهم من أمر الخصومة أو التناقض بين الفقه والتصوف وفي ذلك يقول: "إن تعريف التصوف بعناوين مختلفة كعلم الباطن وعلم الأسرار وعلم الأحوال والمقامات وعلم السلوك وعلم الطريقة، لا يعني افتراقه عن العلوم الشرعية، إذ إن هذه الأسماء والعناوين نابعة من تذوق أمزجة متباينة ومشارب مختلفة للحياة القائمة على الشريعة طوال عصور مديدة وإدراكها بصور متنوعة. لذا يعدّ انحرافًا ومجانبة للصواب إظهار وجهات نظر الصوفية أنها مختلفة في الأساس عن أفكار خدام الشريعة واستنباطاتهم. ورغم أن هناك في كل عصر من العصور متعصبين من الصوفية ومتشبثين بظاهر الأحكام الشرعية من الفقهاء والمحدّثين والمفسرين إلاّ أن أرباب الصراط المستقيم هم الأكثرية دائمًا

بالنسبة لهؤلاء الذين أفرطوا وفرَّطوا. وبناء على هذا فمن الخطأ قطعًا تناول المسألة وكأن هناك منافاة حقيقية بين أهل الحق من كلا الجانبين، نظرًا إلى أقوال ومفاهيم غير لائقة لقسم من الفقهاء على المتصوفة أو لقسم من المتصوفة على الفقهاء، وذلك لأن عدد الذين يثيرون مثل هذا النزاع ويشاركون فيه يُعدّون قطرة من بحر بالنسبة لمن يسلكون طريق التسامح والعفو والصفح. وفي الحقيقة إن هذا أمر طبيعي جدًا، لأن مرجع كلا الطرفين واحد، فمثلما يرجع الفقهاء إلى الكتاب والسنة في الأحكام الشرعية يستند الصوفيون كذلك إلى المرجعين نفسيهما"[٥٦٤].

ويؤكد كولن على أن الأسس التي أقام عليها الصوفية مسلكهم الروحي لا تكاد تختلف عن الأسس التي يصدر عنها الفقهاء، فالفريقان عامة يؤكدان على ضرورة العمل الصالح والمعاملة الصادقة.[٥٦٥]

ويشير الأستاذ إلى أن كلمة "الصوفي" ظهرت في القرن الثاني الهجري، وأول من لقّب بـ"الصوفي" في التاريخ الإسلامي هو الزاهد الكبير أبو هاشم الكوفي (ت ١٥٠هـ).[٥٦٦]

ولا يمكن أن يكون الصوفية -في رأي الأستاذ- بأوصافهم العالية من حيث الاستقامة والنسك والزهد والتأسي بالنبي الكريم ﷺ وصحابته الكرام، استمرارًا للفلاسفة والحكماء القدامى أو ذوي علاقة بالتنسك المسيحي أو الهندي.[٥٦٧]

---

[٥٦٤] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٣-٢٤.

[٥٦٥] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٤.

[٥٦٦] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٦.

[٥٦٧] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٢٨.

ويضيق المقام عن استيعاب كل أو جلّ ما عرض له الأستاذ من موضوعات التصوف ومقاماته، وليس من مهمّتنا -في هذا العرض الموجز- أن نقوم بذلك، لذا فسوف نكتفي بإيراد جملة من الأمثلة والشواهد، يستدل بها القارئ على منهج الشيخ في فهم التصوف والنظر إلى مسائله.

المحاسبة

ففي مقام "المحاسبة" يقول الأستاذ معرفًا بها: "المحاسبة هي تفقّد المؤمن عمله كل يوم، كل ساعة، خيرًا كان أم شرًّا، صحيحًا أم خطأً، إثما أم ثوابًا، وتدقيقه له، ومقابلته بالشكر على ما صدر منه من حسنات، وخيرات، وسعيه بالاستغفار لإزالة الآثام والعثرات، ومحاولته بالتوبة والندامة إصلاح السيئات والزلات. ومن هنا تعدّ المحاسبة همّة وجهدًا في غاية الأهمية، وتشبثًا جادًّا في إثبات الإنسان لكينونته الذاتية"[٥٦٨].

"فهي بهذا المعنى جهدٌ روحي، ومخاض فكري في سبيل استخراج قيَم الإنسان الحقيقية، وإنماءٌ للمشاعر التي هي أسس هذه القيَم والحفاظ عليها. ولا يمكن أن يحافظ الإنسان على استقامة الوجدان إلا بمثل هذا الجهد والفكر، اللذين يمكّنانه من التمييز بين الخير والشر، والجميل القبيح، والنافع والضار، مما يتعلق بأمسه ويومه وغده"[٥٦٩]. "ولا يمكن للمسلم أن يستغني عن المحاسبة قطعًا، سواء من حيث حياته القلبية

---

[٥٦٨] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/ ٣٨.

[٥٦٩] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/ ٣٩.

والروحية أو من حيث أطواره وأحواله العامة"[٥٧٠].

ويقول الأستاذ مبيّنًا عمق الصلة بين المحاسبة والإيمان: "إن محاسبة النفس باستمرار ومعاتبتها هي من كمال الإيمان، وكل روح تستهدف أُفق "الإنسان الكامل" ووضعت خطتها وفقه، هي في شعور تام بحياتها المعيشة، فيقضي صاحبُها دقائق عمره في مجاهدة مع نفسه، حتى أنه يسأل الشفرة (أو كلمة السر) عن كل خاطر يمر على قلبه، ويطالب تأشيرة الدخول لكل فكر يرد إلى عقله، ويراقب مراقبة دائمة نفسانيته -أي التي تداخلت فيه النفس- وأعماله المفتوحة للشيطان ولتوتر الأعصاب ولحدة الحساسية. بل كثيرًا ما يحاسب نفسه على أجلّ حالاته وأفضل أطواره"[٥٧١]

الخلوة والعزلة

ويتحدث الأستاذ فتح الله عن "الخلوة والعزلة"[٥٧٢]، فيذكر أنهما يردان بمعنى "الانفراد بالنفس، أو الانزواء تحت إشراف أي مرشد أو دليل للتعبد"[٥٧٣]. "والعزلة هي بُعدٌ من أبعاد الخلوة والرياضاتُ بُعد آخر لها"[٥٧٤].

"والخلوة قديمة، بل ضاربة في القدم، وذلك بمعناها العزلة عن الخلق وأخذ النفس بالرياضات؛ إذ هي موجودة في جميع الطرق الصوفية

---

[٥٧٠] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٣٩/١.

[٥٧١] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٤١/١.

[٥٧٢] انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٥٣/١-٥٨.

[٥٧٣] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٥٣/١.

[٥٧٤] التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٥٣/١.

تقريبًا؛ حتى يمكن سحبها إلى عهود الأنبياء العظام عليهم السلام. ففي المقدمة فخر الإنسانية ﷺ، وكثير من الأنبياء والأولياء قد زاولوا الخلوة والعزلة"(٥٧٥).

"وللخلوة علاقة قوية بالبناء الروحي للأشخاص وبأمزجتهم ومذاقاتهم وسجاياهم واستعداداتهم الروحانية"(٥٧٦).

"وإن الرياضات بُعدٌ للخلوة، وهي إلجام النفس تجاه الرغبات البدنية وحثّ الروح المشتاقة إلى المعالي، نحو سماء الكمالات الإنسانية. نعم، بالرياضات وحدها يمكن إلجام النفس، وبالرياضات يمكن أن تُدفع النفس إلى ترك ما افتتنت به من الأحاسيس، وبالرياضات يمكن أن تُقحَم النفس مضطرّة إلى التسليم والانقياد، وبالرياضات يمكن أن تعوَّد النفس على التواضع"(٥٧٧).

الرضى

ويتحدث الأستاذ عن "مقام الرضا"(٥٧٨) فيعرفه بأنه: "عدم اهتزاز القلب للبليات التي تصيبه، ومقابلة تجليات القدر بارتياح ضميرٍ"(٥٧٩). والرضا "هو ارتياح القلب واطمئنان النفس بقضاء الله وتقديره ومعاملاته"(٥٨٠).

(٥٧٥) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٥٣-٥٤.
(٥٧٦) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٥٤.
(٥٧٧) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/٥٤-٥٥.
(٥٧٨) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٧١-١٨٤.
(٥٧٩) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٧١.
(٥٨٠) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٧١.

"إن طريق الرضا إرادي ابتداءً، ولكنه هدية إلهية فوق الإرادة والاختيار، حيث إنه موهبة الحق سبحانه لمحبيه، ولهذا لم يؤمَر به كالصبر في القرآن الكريم والسنة النبوية، بل ذكر كوصية فحسب"[٥٨١].

"ويرى قسم من أهل الله أن الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل والتسليم، وآخرون يرون أنه ليس كسبيًّا بل هو وارد يظهر أحيانًا ويغيب أخرى، كأحوال السالك الأخرى.. وآخرون -وفيهم الإمام القشيري- يرون "أن بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي من جملة المقامات، وأما نهايته فهي من جملة الأحوال وليست بمكتسبة"[٥٨٢]. أما الحديث الشريف الوارد عن رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولا»[٥٨٣]، فيشير إلى أن مبدأ الرضا إرادي متعلق بكسب العبد، ونهايته هبة إلهية مرتبطة بمشيئته الخاصة سبحانه. فالرضا بألوهيته سبحانه، هو محبته وتعظيمه، والتوجه إليه، ورجاء كل شيء منه وحده.. والرضا بربوبيته، مقابلة ما قدّره سبحانه لنا ودبّر برحابة صدر، وعدم الاستعجال عند الصدمة الأولى التي تبدو مؤلمة، واختيار الصمت لحين انقضائها، والإيمان به والتوكل عليه في تصرفه في العبادة، والارتياح بكل ما يفعل به ويقدره له. أما الرضا بنبوّة الرسول ﷺ فهو كمال الانقياد له، والتسليم المطلق له، وتفضيل هدْيه وهدايته على هوى الإنسان ونزواته، وتسليم قياد منطقه وزمام عقله إلى أمره، وجعل ذكائه مرآةً لفطنته النبوية الواسعة المحتضنة للوحي الإلهي متوجهًا إلى الأصل

(٥٨١) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٧١.

(٥٨٢) الرسالة للإمام القشيري، ص:٣٠٩.

(٥٨٣) مسلم، الإيمان ٥٦، المسند للإمام أحمد ١/٢٠٨.

دون الظل. أما الرضا بالإسلام فيلخص استنادًا إلى الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(آلِ عِمْرَان:٨٥)، وهو جعْل الدين حياةً للحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والإدارية"(٥٨٤).

ولما كان "الرضا في حقيقته منحة إلهية وأسبابه متعلقة بإرادة الإنسان، فلا يبلغ الإنسان أفق الرضا إلا بعمق الإيمان وجدّية العمل، وسعة الشعور بالإحسان وبمروره من فصول التوكّل والتسليم والتفويض"(٥٨٥).

"وإذا أخذنا الأمر من زاوية الأسباب، فالبلوغ إلى مرتبة الرضا يتطلب: الجدّ في معاملات العبد مع ربّه، وأخْذ النعم التي تُغدق عليه من دون طلب وسائلَ شكر وتحدثًا بالنعمة، والتعالي على أنواع الحرمان برحابة صدر"(٥٨٦).

"ولقد قال أبطال عالم الروح والقلب منذ القدم إلى يومنا هذا أقوالاً مشابهة ومتقاربة حول الرضا فمثلاً يقول ذو النون المصري: "علامة الرضا هي ترك العبد إرادته بتفضيل إرادة الحق سبحانه قبل قضائه الأشياء، والعلم بأن الخيرة فيما اختاره الله، بعد قضاء الأشياء، وعدم الانزعاج بل يظل حبه في جيشان وهو يتلوى في قبضة المصائب". ويقول الحسين بن علي رضي الله عنهما: "كفّ العبد عن كل ما يخالف إرادة الله واختياره، وعدم تمنّي أي شيء سواه". ويرى أبو عثمان أن "الرضا هو تلقي تجليات الحق سبحانه الجمالية والجلالية بالارتياح، وقبول الجلال عين الجمال

(٥٨٤) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٧١-١٧٢.

(٥٨٥) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١٧٣/١.

(٥٨٦) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١٧٣/١.

والجمال عين الرحمة"[٥٨٧] حيث يشير بيان الرسول ﷺ المنوّر إلى هذا: «وأسألك الرضا بعد القضاء»[٥٨٨].

---

(٥٨٧) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ١/١٧٥-١٧٦.

(٥٨٨) النسائي، السهو٦٢؛ المسند للإمام أحمد، ١٩١/٥.



أضواء قرآنية في سماء الوجدان

من البديهيات العقلية والإيمانية أن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ بلسان عربي مبين؛ تبيانًا لما فيه صلاح أمر الناس في الدنيا والآخرة، وهو عمدة الشريعة الإسلامية ومصدرها الأول، والغاية التي تنتهي إليها مدارك أهل الاجتهاد؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(النَّحل:٨٩)، وقال أيضًا: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأَنْعَام:٣٨).

وقد شاء الله ﷻ أن يكون القرآن معجزة الإسلام الخالدة وآيته الكبرى، وقد تعبد المؤمنين بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وألهمهم حفظه وتدوينه في المصاحف، ويسّر سبيل نقله إلى الأجيال المتتابعة بالتواتر؛ تحقيقًا لوعده سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الْحِجْر:٩).

وتتنوع جوانب إعجاز القرآن، بين فصاحة أسلوبه وبلاغة بيانه، وأخذه بمجامع القلوب، وإخباره بأمور مغيبة في الماضي والمستقبل، واشتماله على شريعة متكاملة الأركان تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان، ومنظومة أخلاقية ساميةٍ ترتفع بالإنسان من حضيض الشهوات والأهواء إلى أفق روحاني رحب وثيق الصلة بوحي السماء. هذا إلى براءته من التعارض والتناقض، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ

اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾(النِّسَاء:٨٢).

وعندنا أن من وجوه إعجاز النص القرآني ما أثبتته التجربة التاريخية من رقي الأفراد والجماعات التي اهتدت بهديه وسارت على منهاجه، فكانت الجماعة الإسلامية التي رباها النبي ﷺ بهدي القرآن، وتمسكت به وطبقته، أمة مثالية ربما لم يشهد التاريخ لها نظيرًا.

فلا جرم أن عجز العرب -وهم أهل الفصاحة وأولو البلاغة الساحرة- عن الإتيان بمثله حين تحداهم بمعارضته، دليل على أنه نص معجز فائق للقوى البشرية ومتجاوز لما تتسع له طاقة المخلوقين.

وإذا كان النص القرآني الخالد يسمو بالإنسان فوق العالم الأرضي، فإنه لا يأمر بالانسحاب منه والتملص من تبعاته، بل يأمر بعمارة هذا العالم والنهوض بحياة الجماعة الإنسانية نهوضًا يرتكز إلى هداية السماء وتوجيه الوحي.

وليس التصدي لتفسير القرآن الكريم بالأمر اليسير الذي يستطيعه كل أحد، ولكنه من أصعب الأمور، لأنه خطاب السماء الذي تنزل من حضرة الربوبية مشتملاً على معارف عالية ومطالب سامية ونكات دقيقة؛ يحتاج استجلاؤها نفسًا زاكية وعقلاً صافيًا ومعرفة عميقة بفنون اللغة ومعارف الشريعة.

وقد أمرنا الله بفهم كتابه وتعقل ما ورد فيه، لأنه ﷻ إنما أنزله لكي يكون نورًا وهدى، ولن يكون كذلك إلا بالمبادرة إلى فهمه واكتناه معانيه. ولا ريب أن فهم النص القرآني فهمًا صحيحًا، جدير بأن يبلّغ الأمة الإسلامية ما تطمح إليه من سعادة في الدنيا والآخرة.

ونعتقد أن الأستاذ العلامة فتح الله كولن أحد من امتلكوا شروط

المعرفة التفسيرية وأتقنوا أدواتها، ومع ذلك أبى عليه تواضعه أن يسمّي ما قام به من تفسير لطائفة من آيات الكتاب العزيز "تفسيرًا"؛ ولكنه أطلق عليه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"[٥٨٩]، فكأنها ومضات وخواطر انقدحت له بفضل وجدانه المرهف وإيمانه الصافي حين يطالع القرآن ويتلو سوره سورة بعد سورة وآية بعد آية.

ونراه لم يهمل آراء المفسرين ونظراتهم في بيان النص القرآني.. وإن لم يركن إليها ركون المقلد، إنه ينطلق منها ويبني عليها، ثم يتوسع فيها ويضيف إليها ما يعنّ له من أفكار جديدة ومعان مبتكرة؛ يحتملها السياق ولا تنكرها طبيعة التركيب اللغوي أو البلاغي.

وهذه الخطرات أو النظرات التفسيرية التي انقدحت في ذهن الداعية الكبير ليست منبتة الصلة بطبيعة المرحلة التاريخية والحضارية التي تعيشها أمّتنا الإسلامية، ولكنها نتاج هذه المرحلة بما تعج به من علوم ومعارف وتوجهات دينية وفكرية واجتماعية. وكأني بالشيخ وضع نصب عينيه حين نظر في كتاب الله مقولة النورسي: "إن الزمان أكبرُ مفسِّرٍ للقرآن".

ومن الفضائل في رصد الشيخ لهذه الأضواء القرآنية أنه ابتعد عن زاوية الأكاديمية الضيقة التي تخاطب العامة من برج عاجي، وسلك طريقًا وسطًا بين تخصص التفسير وعمومية الدعوة التي يجب أن توجه إلى الناس كافة؛ فأسلوبه سهل بريء من التكلف والتعقيد، والأفكار المطروحة عميقة في وضوح، وإن بدت الحاجة أحيانًا إلى سؤال أهل التخصص عن مدلولات بعض المصطلحات الفنّية، وهو ما يمثل في

---

[٥٨٩] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠ م.

النهاية حافزًا للقراءة وتوسيع أفق الثقافة الدينية.

وقد عني الأستاذ "فتح الله كولن" عناية فائقة ببيان معاني الآيات التي يعرض لتفسيرها وشرح غاياتها ومقاصدها أكثر من عنايته بمجرد الإشارة إلى النواحي البلاغية واللغوية فيها.

كما مزج الأستاذ مزجًا بارعًا علم البلاغة وتقييم أسباب النزول مع ما يرى من زاوية نظره في القصص القرآنية، والتأكيد على شمولية القرآن، وأنه صالح للتطبيق في كل زمان ومكان.[٥٩٠]

* * *

وبعدُ... فإن الأستاذ فيما اختاره من "أضواء قرآنية" يقول في تواضع العلماء: "إن إيضاح القرآن ضمن إطار مزود بأمثلة يحتاج إلى مجلدات. بينما ما حاولنا تقديمه في هذا الكتيب مجرد مقتطفات من الأجوبة الارتجالية على الأسئلة التي طرحت في مجالس ومسامرات مختلفة وحسب مناسباتها. ولا نكتم هنا أن هذه الأجوبة صدرت من شخص تبهت في شروحه جميع الأفكار والأحاسيس مهما كانت رائعة وسامية."[٥٩١].

وبعيدًا عن تواضع الأستاذ وأدبه الجم فإن ما قدمه حافل بمئات التوجيهات التي تثري حياة الجماعة الإسلامية وتملؤها حركة وفعالية، فالقرآن الكريم ليس كتابًا يعزل أصحابه عن الحركة والعمل والنشاط المثمر المفيد، ولكنه يهدف إلى أن تطبق تعاليمه في الحياة وتتجاوب شريعته مع ما في الواقع من أحداث ومستجدات.

---

[٥٩٠] انظر: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، مقدمة الكتاب، سعاد يِلْدريم، ص:١٤.

[٥٩١] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٩.

ومن أبرز ما أشار إليه شيخنا قوله حول "جدة النص القرآني" الدائمة: "إذا كان هناك من بقي جديدا ونضرا على الدوام في هذه الدنيا الفانية التي يقدم فيها كل جديد ويبلى فيها كل نضر، ويبهت فيها كل لون، فهو القرآن. فهو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يقف منذ نزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف التي هبت، والأمطار والثلوج التي سقطت، وفي وجه جميع الظروف القاسية التي ظهرت وبدت أمامه، واستطاع أن يحافظ على أصله ككتاب سماوي وحيد دون تغيير أو تحريف. لذا فما أن يرتفع صوت القرآن من حنجرة قارئ حتى نشعر وكأنه نزل الآن من السماء وكأننا مدعوون إلى وليمة إلهية آتية من الجنة، وعندما ينثر اللآلي تشعر القلوب المؤمنة أنها قد سمت واستغنت عن جميع ثروات الدنيا. القرآن قلادة بيان منظومة من الكلام الإلهي، وفيض من العلم الذي يشكل الحدود النهائية للإدراك البشري، وخارطة لكل الوجود مرسومة ومزينة ومحاكة بالحرير اللاهوتي. عندما يسمع صوته في أي بقعة يبدو كل كلام وكل تعبير آخر نوعا من الضوضاء لا غير. وفي البقاع التي ترتفع فيها أعلامه يغمر النور قلوب المؤمنين، وتنزل الحجارة على رؤوس الشياطين، ويعيش الربانيون هناك أعيادا دائمة"(٥٩٢).

* * *

يقول أستاذنا كولن: "لقد أحدث القرآن في أول عهده بالنزول وأول عهده بتشريفه الدنيا تأثيرا لا يمكن تصوره في الأرواح وفي العقول أيضا، بحيث أن درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوه

(٥٩٢) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٣-٢٤.

النوراني كانت معجزة قائمة بذاتها لا نحتاج معها إلى ذكر أي نوع آخر من معجزاته. ولا يمكن العثورعلى أي أمثال لهم في مستواهم من ناحية التدين والتفكير وأفق الفكر والخلق ومعرفة أسرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلا من الصحابة آنذاك لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة. وحتى اليوم فهو ما يزال ينير قلوب المتوجهين إليه الناهلين من نبعه، ويهمس في أرواحهم أسرار الوجود"(٥٩٣).

وفي مدخل الكتاب يذكر أستاذنا أن الخطاب القرآني "موجه للإنس والجن أجمعين، يأمرهم وينهاهم، ويضع بعض المحرّمات أمامهم، وينقل كلامهم وكلام الشياطين، وهو في هذا كله معجز على الدوام"(٥٩٤)، حتى في نقله للأمور الغيبية.

يقول الأستاذ في مكان آخر: "فإن تناولنا القرآن من هذه الزاوية نستطيع أن نقول: سواء أتكلم القرآن بلسان الشيطان أو الجن أو الملك أو فرعون أو نمرود أو شدّاد، فإن الأسلوب المستخدم في البيان والإفصاح يعود للقرآن تمامًا. وهذا الأسلوب خارق للعادة إلى درجة أن بابه يظل مفتوحًا لجميع المعاني الإشارية والرمزية، ويكون صالحًا لتفاسير واسعة، ولا يوجد أي بيان آخر يستطيع التعبير عن غايته بهذا الأسلوب ولا استعمال مثل هذه الأدوات والعناصر والصور والأشكال بهذه الروعة المعجزة"(٥٩٥).

وقد نجح الأستاذ في اختياراته لهذه الطائفة من آيات الكتاب العزيز

---

(٥٩٣) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٢٧.

(٥٩٤) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٣٧.

(٥٩٥) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٣٢.

التي تنتمي إلى سور مختلفة، فعمد إلى تفسيرها تفسيرًا يجمع بين المعاني اللغوية والنكات البلاغية والإشارات الوجدانية، فضلاً عن بيان المضمون الإجمالي للآية، وشرح مقاصدها. وفيما يلي نورد جملة من الشواهد والأمثلة تلقي الضوء على طريقة الأستاذ في التفسير ورؤيته للقرآن الكريم:

١-ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(الفَاتِحَة:٥) يقول كولن: " كما نعلم جميعًا وكما ورد في جميع التفاسير فإن مضمون النكتة هنا من تقديم المفعول به هو باختصار: اللهم إننا لا نقر ولا نعترف إلاّ بألوهيتك ولا نذعن لأحد سواك. ولا نجد الاطمئنان والسكينة والسلوى إلاّ عندك. والنكتة الأخرى التي تستحق التسجيل هنا هي أنه عوضًا عن استعمال صيغة الماضي "عبد" وردت صيغة المضارع للفعل نفسه "نعبد"، لأن صيغة الماضي تتضمن معاني أمثال: عبدنا... صلينا... فعلنا كذا وكذا... أي هناك بعض معاني الغرور التي لا تتناسب مع روح العبادة والعبودية. أما في صيغة "نعبد" فلا توجد أي إيماءة لمثل سوء الفهم هذا، لأن فعل "نعبد" يشير إلى عجز الإنسان وفقره أمام الحضرة الإلهية العظمى ودوام معرفة هذا العجز وهذا الفقر"[٥٩٦].

٢-وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البَقَرَة:٤٤)، يقول كولن: "مع أن هذه الآية تخاطب قسمًا من بني إسرائيل بشكل مباشر، إلا أنها تخاطب المسلمين كذلك بشكل إشاريّ. وما يراد هنا بالأخص هو التنبيه على

---

[٥٩٦] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٣٥.

وجوب وجود وحدة وعدم تناقض بين ما يقال وبين ما يُفعل، أي وحدة بين القول والعمل. لذا نرى أن آية أخرى تعبر عن هذا المعنى بأسلوب آخر فتقول: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾(الصَّف:٢)"[٥٩٧].

ويستمر قائلا: "جاء في الأثر أن الله تعالى قال لعيسى عليه السلام: "عظ نفسك أولاً فإن قبلت نفسك تلك الموعظة واتّعظت فعِظ الآخرين، وإلا فاستح مني". إذن يجب أن يعيش الإنسان حسبما يؤمن به، وأن يعكس أعماق عالمه الداخلي من أفكار وأحاسيس، بعد عملية تجريد نفسي. فمن لا يقوم الليل، عليه ألا يتحدث عن صلاة التهجد، وأن يستحي أمام الله من هذا"[٥٩٨].

"تأمّلوا كيف أن دفاع الكثيرين عن الإسلام وأجوبتهم ومنافحتهم عن الإسلام تبقى دون أي تأثير. بل نرى بعض هؤلاء -لقلة إخلاصهم- يتنازلون عن كثير مما كانوا يدافعون عنه سابقًا تماشيًا مع أفكار بعض المعارضين. ويشرح شيخ الإسلام "مصطفى صبري أفندي" هذا بقوله: "إن أمثال هؤلاء ليسوا مخلصين فيما يقولون أو يجيبون أو يكتبون من كتب. ولو كانوا مخلصين لعاشوا حسبما يقولون، ولما شاهدنا هذا التذبذب في حياتهم..." حيث لم يستطيعوا العيش في وحدة واحدة بين القول والعمل... وهكذا ترددوا وتذبذبوا... وأوقعوا الذين يتبعونهم في الشك وفي الشبه"[٥٩٩]. "لذا كان من الضروري تحلي المرشد والمبلغ بصفة الإخلاص العميق والحقيقي بجانب العلم، والعيش حسب هذا

---

[٥٩٧] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٥٠.

[٥٩٨] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٥٠.

[٥٩٩] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٥٠-٥١.

العلم ومعرفة طرق التبليغ والإرشاد وفهم المخاطب ومعرفة ماذا يقول وكيف يقول وأين يقول"[٦٠٠].

ويبدو في تفسير الشيخ لهذه الآية الكريمة مدى عظمة الشيخ وعنايته بواقع الأمة الإسلامية، والأزمة التي تعيشها الدعوة إلى الله بسبب التناقض بين القول والعمل، بين النظر والتطبيق.

٣- وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البَقَرَة:١٥٣) ينزع الشيخ في تفسير الآية منزعًا وجدانيًا، إذ يقول: "الصبر يعني عدم اهتزاز حال المؤمن وعقله، والثبات وعدم الهلع عند الصدمة الأولى الداعية إلى المعصية والمؤدية إلى إثارة المشاعر والأحاسيس السيئة في اللحظة الأولى من سماع أوامر الطاعة والدعوة إليها. والحديث الشريف الذي يقول «إنما الصبر عند الصدْمة الأولى»(متفق عليه) يصوّر هذا المعنى. وإلا فإن الصبر الذي يعقب الهزة والصدمة الأولى وبعد لباس العافية والأمن، ليس صبرًا بالمعنى الكامل. من المفيد هنا الإشارة إلى أمر، وهو أنّ أكبر صبر هو الصبر على طاعة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه. ذلك لأن الإنسان لا يصل إلى برج التوحيد ولا إلى أفق العبودية إلا بالطاعة. وبعد هذه المرتبة يكون الإنسان مستعدًّا للخضوع لجميع ما يأتي من قبل الله تعالى"[٦٠١].

وعن الصلاة يقول: "إن الصلاة -التي تحتوي على تمرين على الصبر أيضًا- أهمّ وسيلة لاستقرار الإيمان وتصفية الروح والوصول إلى صحة الجسد، وأهم وسيلة في التفاهم والوفاق والتلاحم الاجتماعي، وهي

[٦٠٠] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٥١.

[٦٠١] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٧٣.

أوضح ظاهرة لكيان الأمة. وهي رأس جميع العبادات، وطريق وخط سفينة الدين، والسلم النوراني لمعراج القلب. وكل من جعل إيمانه جزءًا من طبيعته بالصلاة، وأداة ينقي بها روحه ويصفيها ويوسع ويعمق حياته القلبية، ويشعر في جوها الدافئ اللين بأنه ضمن أمة كالبنيان المرصوص... الخ، كل من وُفّق إلى هذا، استطاع بسهولة تجاوز جميع مصاعب طريق العبودية والوصول إلى هدفه"[٦٠٢].

٤- وتظهر سماحة الأستاذ تجاه المخالفين في الدين والعقيدة، عند تفسيره لقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾(آلِ عِمْرَان:٦٤)، يقول: "اتّخاذ موقف لين تجاه أهل الكتاب أمر من أوامر القرآن. وليس أهل الكتاب فحسب، بل أمَر الله تعالى موسى عليه السلام أن يقول كلامًا ليّنًا لفرعون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(طه:٤٤). لذا فلا مكان أبدًا في الإسلام للكلام الخشن أو القول العنيف للناس في الدعوة إلى الله"[٦٠٣].

ويستمر قائلا: "وهذه الآية تستقبل أهل الكتاب في إحدى نقاط هذه الطرق وتقترب منهم بوجه بشوش وكلام حلو جميل وتقول لهم: "تعالوا إليّ!... هلموا إليّ!".. وعندما تخاطبهم هكذا تقول لهم: "إنّ ما أدعوكم إليه ليس جديدًا عليكم وليس شيئًا تجهلونه.... بل هو مما عرفتموه وأنستم به قبلنا، ولكن يجوز أنكم نسيتموه، أو تذكّرتموه بشكل خاطئ". ومثل هذه الدعوة تؤسس جسرًا بيننا وبين أهل الكتاب، وتلمس نفوسهم

---

[٦٠٢] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٧٤-٧٥.

[٦٠٣] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٠٠.

من جانب يأنسون به. وهذا الأسلوب في الدعوة إلى الإسلام مهم جدًّا، وتستطيعون أن تطلقوا عليه التعبير الشائع في هذه الأيام وهو "أسلوب الحوار"(٦٠٤).

"والخلاصة: أننا نستطيع القول هنا بأنه يمكن دعوة الأرواح والضمائر المختلفة والثقافات والحضارات المستندة إلى مفاهيم مختلفة، والأمم التي شكلتها وأنشأتها الكتب المتعددة المنزلة في أزمان مختلفة.. يمكن دعوتها إلى خط قد نستطيع تسميته بـ"خط الصلح والتعايش" يقبله كل قلب وضمير. خطّ يوحد ويؤلف ويتناول كل مسألة في إطار من الرحمة الواسعة الشاملة، وفي دائرة من البعد الكوني، مما يعطي لكل فكر ولكل ضمير فرصة الحل في ظل تحكيم "الحق"، وهكذا تستطيع الأرواح التخلص من قبضة الأهواء لتصل إلى العبودية الحقة للمعبود المطلق جل شأنه، وتنقذ نفسها من العبودية لآلهة الدنيا الزائفة"(٦٠٥).

٥-وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾(التَّوْبة:١١١)، يقول الشيخ كولن: "معنى هذه الآية أن الله يطلب الأنفس والأموال الزائلة للمؤمنين مقابل بدائل باقية لا تزول!.. إنه يطلب أنفسهم وأموالهم لكي يعطي لهم مقابلها الجنة في الآخرة.. ولكن -كما يلاحظ- فإن الأنفس متقدمة على الأموال في هذه الآية، ذلك لأن النفس تكون أكثر أهمية في الآخرة؛ ويأتي من بعدها المال المنفق في سبيل الله، والذي زاده هذا الإنفاق قيمة وثمنًا. أي إنني إن لم أدخل المال الذي ليس إلا زينة بسيطة من زينات الجنة. لذا فالتعبير

(٦٠٤) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٠٠.

(٦٠٥) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٠٣.

عن هذه الحقيقة يكون بتقديم النفس على المال هنا، خلافًا لما جاء في مواضع أخرى"[٦٠٦].

"والحقيقة أن كل ما يبدو أنه "ملْك مؤقت للإنسان" هو في الحقيقة "ملك لله تعالى". فمنذ الوجود الأوّلي للإنسان وكذلك جميع الوسائل الضرورية المهْداة لإدامة هذا الوجود ليست إلا لطفًا جبريًّا وإحسانًا. كما أن إظهار كل هذه الألطاف والهبات وكأنّها ملك عند المؤتمن، وتعطى له صلاحيات قانونية وحقوقية معينة للإفادة منها ليس إلا إحسانًا ثانيًا. أما القيام بشراء ماله وملكه وكأنه مال وملك خاص في يد صاحبها المؤتمن ليعطَى بدل هذا المال والملك الزائل والفاني ألف ضعف فهو كرم فوق كل إحسان. هو كرم كبير بحيث إننا لو فرضنا عدم وجوده فإن المؤتمنين إما أن يستعملوا هذه الأمانة الموجودة في أيديهم في اتجاه أهوائهم وشهواتهم، فيخونون بذلك الصاحب الحقيقي للمال، أو تزول هذه الودائع وتفنى متى ما جاء أوان هذا الفناء فيخسر هؤلاء أفضل تجارة وأكبر كسب وأكثره بركة"[٦٠٧].

"أجل، عندما يتحقق هذا العقد المتسم باللطف والكرم، يترك الأحياء الفانون أماكنهم ليصلوا إلى الوجود الأبدي، ويزول المتاع الدنيوي الفاني، لتحل محله النعم الخالدة في دار البقاء.. تُرمى الدنيا ذات العمر القصير تحت التراب، لتخرج سنابل جنات خالدات في عالم أبدي.. تترك النفس رغباتها ولذائذها بشكل متوازن، لتفوز في المقابل برضا الله تعالى. وفي أثناء تحقيق هذه المبادلة التي تتم ضمن إطار "الإرادة الإنسانية الحرة" يتم

---

[٦٠٦] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٦٠.

[٦٠٧] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٦٠.

الاعتناء بإظهارها في شكل بيع وشراء في حرية كاملة أو كأخذ وتحصيل قسري"[٦٠٨].

"إن مثل هذا الميثاق الممتد من الأزل ميثاق بشري وكوني عميق إلى درجة أنه ورد في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن وتكرر في هذه الكتب وتم التأكيد عليه وإن كان في أساليب مختلفة"[٦٠٩].

---

[٦٠٨] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٦١.

[٦٠٩] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٦١.



الفصل الثالث:
حراء.. شمس متجددة

- حراء... شمس متجددة
- حراء تشرق في اليمن السعيد
- "الروح" مفتاح نهضتنا
- الإسلام في حاجة إلى فعل
- أمة في رجل



حراء... شمس متجددة[٦١٠]

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العَلَق:١-٢)

مع كل صباح تزحف أشعّة الشمس ببطء وهدوء مبدّدةً بَقايا الليل المظلم، معلنة عن مَولد نهار جديد.

وأكثر الناس لا يملكون الوقت، وليس لديهم الباعث ليراقبوا زحف أشعّة الشمس وهي تكتسح ركام السحب وجبال الغيوم؛ لأنهم يعلمون أن الشمس لا بدّ أن تنتصر، وأن النور لا محالة قادم. ولأنهم -كذلك- أَلِفوا تداولَ الليل والنهار خضوعا للسنّة الكونية في كل يوم.

وهكذا تمضي سنّة التداول في الزمان -دون فعْلٍ إنسانيّ- فيعقب الليل النهار، ويعقب النهار الليل.. وهكذا الأمر في الظلام والنور، والشتاء والربيع.

وقد يطول ليل الشتاء، لكن مجيء الربيع حتميّةٌ كونية؛ وقد تسود جحافل الظلام في غياب "النور"، لكنّ سنة الله الكونية لا تتخلف. فسرعان ما يعود "النور" إلى الظهور.

وهنا يظهر الفيصل بين السنّتيْن "الطبيعية الكونية" و"الاجتماعية

---

[٦١٠] مجلة حراء، العدد:٢ (يناير-مارس ٢٠٠٦).

الحضارية"؛ فعلى الرغم من وحدة القانون، إلا أن الفعل الإنساني له دورُه المؤثّر في سنة التداول الاجتماعية الحضارية.

الربيع الحضاري

ففي حالة وجود الفعالية الإنسانية، والالتحام الإنساني الواعي بالسنة الطبيعية، والالتزام بثوابت الوحي وتوجيهاته العليا، في هذه الحالة ينجح الإنسان في إطالة فترة "الربيع الحضاري"، ربيع الازدهار والعطاء.. وتمتدّ بالتالي مساحةُ النور عبْر الخريطة الإنسانية.

وعلى العكس، فعندما تُسيطر السكونية السلبية، ويُصبح الإنسان مجرد جزء من الزمان، يمتدّ الشتاء بقسوته وظلامه، وتنكمش مساحة النور، وتذبل سريعًا أزهار الربيع.

وهنا يتألق دور المؤمنين الفاعلين من خرّيجي مدرسة "حراء" التي هبطت عليها أشعّة شمس القرآن الأولى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العَلَق:١-٢).. إنهم مطالَبون بالتغيير والتعمير والحركة باسم الله، ومطالَبون برفض الجمود الذي يجعلهم كأنهم بعض الزمان وخارج الحضارة والتاريخ، ينتظرون -وهم قاعدون عاجزون- دورة السنّة الطبيعية في التداول، دون أن يعملوا على تحقيق التكامل بينها وبين السنّة الاجتماعية، سنّة التغيير الداخلي انطلاقا للتغيير الخارجي: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).. إنهم -لو كانوا مؤمنين حقّا- أسمى من أن يصبحوا جزءًا من الصيرورة والزمان.. إنهم في حقيقتهم محرّكو قطار التاريخ الحضاري، وقادة "النور"، وهم القادرون قبل غيرهم على حمل مشاعل الوحي وأضواء العقل.. وبالتالي هم الذين

يستحقّون "الاصطفاء" ليحقّقوا "الشهادة" على الناس، ويبْلغوا مرتبة "العباد الصالحين الوارثين للأرض": ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠).

وحتى لو عثرت بهم أحجار عبْر مسيرتهم في التاريخ، فهم -مع ذلك- المؤهَّلون للأوبة والبعث والإقلاع، مهما تطُلْ غيبتُهم عن مسرح الحضارة والتاريخ. إن لهم معالم يهتدون بها، ولهم ثوابت من الوحي -لا يأتيها الباطل- تأخذ بأيديهم إلى التي هي أقوم.

لقد غاب المسلمون حضاريًّا منذ عدة قرون، فتقدم الأوربيون -في الفراغ- وقادوا الدنيا بالعقل وحده، ونظروا بعين المسيح الدجال، وكالوا بمكاييله، وقاسوا الأمور بمعاييره المزدوجة، وزعموا أنّ لهم "جنّة" هي حضارتهم المادية الشَّيئية، ولهم "جهنم" اخترعوا لها صورًا من الدمار.. وقد قدّموا -وهذا لا يُنكر- خدماتٍ علمية، لكنهم أتعسوا الإنسان بالدنيوية والعنصرية والحروب لأتفه الأسباب وباختراع قوانين الصدام ونظرياته المتهافتة (!) وتُوشِك البشرية التي حفروا لها القبور -حسْب مقولة "رجاء جارودي"- أن تنْتحر انتحارًا جماعيًّا عولميًّا، وتفقد ذاتها ودنياها وآخرتها.

فلا بدّ أن يستيقظ المسلمون، وأن ينفُضوا الغبار عن أجسادهم وعقولهم، وأن يخرجوا من الكهف متلطِّفين في خروجهم، حُداةً على آمال الإنسانية، وحماةً لها من الانتحار والدمار، بالحكمة والقدوة والحوار.

ولا بدّ أن يعود معنى الصلة بين السماء والأرض.. ذلك الذي تألق في "حراء" ذات يوم من سنة ٦١٠م معلنًا عن ميلاد جديد للإنسانية. فما أحوج إنسانيتنا المعاصرة أن تُولَد من جديد وأن تقرأ من جديد ﴿بِاسْمِ

رَبِّكَ﴾، لا بِاسم المادة أو الصراع أو العلم الذي لا ينفع، والذي لا يخشى علماؤه اللهَ...

لقد عاش المسلمون أكثر من عشرة قرون منذ هبطت عليهم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ سادة الحضارة -كما يقول أكبر مؤرّخي القرن العشرين "ولْ ديورانت"- وبهم بدأت الحضارةُ دورةً إنسانية جديدة تخلصت فيها من ظلام استمرّ عشرة قرون هي "القرون الوسطى" -كما يقولون-، بل تخلصت من ظلام هيمن على الحضارة الإنسانية عشرات القرون قبل ظهور العصر القرآني، في ظل حضارات وثنيّة وأسطورية واستعلائية، لم تقدّر الله حقّ قدره إلا في القليل النادر من الزمان. بينما اخترعت مئات الأصنام والأوثان وخضعت لها خضوع العبيد فاقدي الوعي والإحساس.

وعندما نزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في حراء، كانت شمسًا جديدةً تطلّ على الكون، جامعةً في نسيجٍ واحد بين قراءة الوحي والعقل والكون؛ فتحَقّق لأول مرة في تاريخ الحضارات رسم خريطةٍ تتناغم فيها الربّانية والإنسانية على امتداد إشعاعات الوعي الإنساني.

وما كان ممكنًا قبل هذا الحدث الفارق أن تكون هناك حضارة إنسانية تتصل فيها الأرض بالسماء من خلال وسائل تتحدد فيها العلاقة الواضحة بين "الله" المعبود الخالق وبين "الإنسان" العابد المخلوق.

لقد كان "الكون" قبل هذا الحدث الذي وقع في "حراء" معبودًا يخشاه الإنسان ويتقرب إليه بشتّى القرابين ووسائل التعبير الدالة على الخضوع والخوف والعبادة. فجاء "العصر القرآني" يضع الكون في مكانه الصحيح، كونًا مسخَّرًا للإنسان، ليستخدمه الإنسان لتحقيق العبودية لله، وتعمير الأرض باسم الله، ولتسبيح الله. وبالتالي أصبح الكون الذي كان

في الوعي الإنساني الوثني معبودًا "عابدًا" خاضعًا للبحث والاكتشاف والتسخير. ورجع الكون في الوعي الإنساني إلى حجمه الصحيح، مفْعولاً به وليس فاعلاً، مطبعةً لا طابعًا، نقْشًا لا نقّاشًا، متحفًا ومعرضًا لإظهار تجلّيات الخالق العظيم الذي استخلف الإنسان وعلَّمه الأسماء كلها وزوّده بالوحي والعقل والإرادة.

الإسلام والتعامل مع الكون

وما كان ممكنًا قبل هذا التحول الذي قدّمه الإسلام في التعامل مع الكون، أن تكون هناك حضارة إسلامية تمثل منعطفًا جديدًا في تاريخ التمدّن الإنساني. وما كان ممكنًا -كذلك- أن تكون هناك حضارة أوربية أو رُقيٌّ إنساني. بينما الكون معطَّل عن التسخير، يحتلُّ مكانةً "مقلوبة"، فتتعطَّل مع وضعه المقلوب ملكات الإنسان، وبالتالي لا يجد الإنسان عالم "الآفاق" الذي يحقق من خلاله شروط الاستخلاف.

لقد نجح المسلمون "السلف" خلال مدة تزيد على عشرة قرون -كما ذكرنا- في أن يقدموا حضارةً معتدلة الموازين والقيم، تتكامل فيها ثوابت الوحي مع حركة العقل مع الرؤية الرشيدة للكون والحياة.

فلما اختل الميزان في أيديهم وفقدوا مؤهلات القيادة الحضارية، وخَلَفَ من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات، وأهملوا العلم والعمل، وفقْه السنة الكونية والاجتماعية.. أخذ منهم الأوربيون القيادة فتحركوا بالعقل وحده، مؤلِّهين "المصلحة" و"المادّية" في إطار الفرد والمذهب الفردي طورًا، وفي إطار الجماعة والمذهب الجماعي طورًا آخر. وكانت الآخرةُ والروحُ والجوانبُ الدنيوية بعيدةً كل البعد

عن التنظير والتخطيط والتطبيق هنا وهناك. فعادت سفينة البشرية تجنح إلى الغرق من جديد، وسيطرت "القوة"، ومع القوة "الظلم"، ومع الظلم "ازدواج المعايير"، ومع اختلال الموازين سيطرت "العنْصرية" و"الأنانية"؛ فارتفعت بالتالي رايات الصدام والشقاء، وانخَفضتْ رايات التعارف والسعادة.

وهنا، وعند هذا المَحاط، لم يبق إلا أن يعود المسلمون إلى القيادة من جديد، متجاوزين عصر الانحطاط، دخولا في دورة حضارية أخرى، ووصولاً بعون الله إلى عصر الشهادة على الناس، والخيرية، والقيادة الحضارية للإنسانية.

وكما خرج "النور" من "حراء" عندما هبط الوحي معلنًا بداية العصر القرآني، "عصر تكامل القراءات السماوية والكونية والعقلية"، كذلك ينبغى أن يتمثل المسلمون في دورتهم الحضارية الجديدة معاني البعث القائم على القراءات المتناغمة المتكاملة السابقة بلا تعارض أو خلل.

شمس القرآن

ومن هنا ينبغي النظر إلى شمس القرآن بعين جديدة "أصيلةٍ معاصرةٍ" لا تهمل الماضي ولا تتجاهل المستقبل. وفي هذا المقام قد نجد بين أيدينا عددًا رائعًا من الرؤى التي لا يمكن الغضُّ من قيمتها ولا الانتقاص من قدر أصحابها. هؤلاء الأعلام الذين حاولوا بعث الأمة من خلال الحياة في ظلال القرآن والحياة في فقه السيرة.

بيْد أننا نرى أن لـ"رسائل النور" لبديع الزمان سعيد النورْسيّ ريادة خاصة، كما نرى للمشروع الفكري الذي يقدمه بآلياتٍ معاصرة عمْلاقة

الداعية المصلح "فتح الله كولن" ممثلاً في "النور الخالد" وفي نحو ثمانين كتابًا معه ريادةً خاصة كذلك.

والمشروعان لا ينفصلان، وكلاهما قدَّم ما يستطيع في ظل الظروف المتاحة، وهما يصبّان في خندق واحد ويتّجهان إلى غاية واحدة.

إنها غاية إنقاذ الإنسانية والمسلمين، من خلال "القرآن" ومن خلال تطبيق النبيّ الكريم للقرآن على الواقع، وهو النبيّ الكريم ﷺ الذي كان "قرآنًا" يمشي على الأرض، والذي كان "خلقه القرآن" قولاً وفعلاً وتقريرًا، بعيدًا عن "المثالية" العاجزة عن التطبيق والتي حلُم بها الفلاسفة الطوباويون.. وأيضًا ارتفاعًا بمستوى "الواقعية" التي يهبط بها إلى "الحيوانية" الواقعيون.

لقد قدم النبي ﷺ واقعيةً ترتفع إلى قريب من شمس "النور الخالد".. شمس المثالية الإنسانية التي لا يمكن أن يصنعها إلا كتاب الله فكرًا وتربيةً وتنظيرًا، وسيرة الرسول الكريم ﷺ فعلاً وحركةً وتطبيقًا.

وبالفكر القرآني والتطبيق النبويّ تتحقق الحضارة الإنسانية التي انطلقت من "حراء"، بعد أن هبط بها جبريل عليه السلام من السماء: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(النور:٣٥).

وعلى المسلمين استئنافها اليوم مستعينين بالله..

وما ذلك على الله ببعيد!.



حراء تشرق في اليمن السعيد[٦١١]

في جنوب الجزيرة العربية تقع "اليمن السعيدة" التي اشتق اسمها من "اليُمن" وهو الرخاء والبركة، والتي تحدّها شمالا العربية السعودية، وجنوبا البحر العربي، وشرقا الخليج العربي، الذي يسمى أيضا بـ"خليج فارس"، وغربا البحر الأحمر.. عاصمتها الأولى هي "صنعاء"، وتنطق "صنعا" (بدون همز)، والتي ترتفع عن سطح البحر بـ"٦٩٠٠" قدما.. ومما قاله عنها في العصر الحديث المؤرخ أحمد فخري: "إنه ليس في مدن الشرق مدينة تشبه صنعا لنُقارنها بها، فهي فريدة في موقعها، وفريدة في طراز بنائها، وفريدة في أسوارها، وفريدة في مظهرها الشرقي الخاص، الذي يجعل السائر في طرقها يحس بأنه انتقل بضع مئات من السنين، فيتصور نفسه في بغداد وفي غيرها من مدن الحضارة الإسلامية".

وتمتاز هذه المدينة بموقعها الجغرافي، فهي وسط وادٍ فسيح تحيط بها الحقول والحدائق التي تمدها بحاجتها من الغذاء والمرعى، وتحيط بها الجبال العالية، فيزيد ذلك في منعتها، ويجعل الاستيلاء عليها أمرا غير يسير.. وجوّها معتدل طول العام؛ فشتاؤها غير قارس، وصيفها غير حار. وتعرف "صنْعا" باسم "مدينة سام" نسبة إلى "سام بن نوح عليه السلام"، ويقال إنها

---

[٦١١] مجلة حراء، العدد:١٢ (يوليو-سبتمبر ٢٠٠٨).

أقدم مدينة عمرت بعد الطوفان.

إن رائحة جغرافية الجزيرة العربية نافذة قوية في صنعاء.. فأنت تمشي في ظلال جغرافية جنوب الجزيرة أصل القحطانيين، بَيْدَ أن رائحة التاريخ، والعروبة والإسلام أقوى وأنفذ من كل روائح الجغرافيا والجيولوجيا، والأركيولوجيا.. ولم لا؟! أليس سكّان اليمن عربا أُصلاء يتكلمون اللغة العربية، وأيضا أليست اليمن أصل الأنصار، هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(الحشر:٩)؟! بلى، إن اليمن أصل الأنصار أوْسهم وخزْرجهم.. والأنصار شطر المسلمين، وبدونهم ما كان يمكن أن تصنع في يثرب التي أصبحت مدينة رسول الله ﷺ دولة الإسلام الأولى. فبحقّ إن الإيمان "يمانٍ"، وإن الحكمة "يمانية"... وقد تجلّى الإيمان وتجلت الحكمة في دولة الرسول ﷺ الأولى، دولة المؤاخاة بين قحطان وعدنان أو بين الأنصار والمهاجرين الذين قدَّموا معا أروع نموذج للدولة المؤمنة الحكيمة عبر التاريخ. وحسبها أنَّ قائدها وإمامها هو خاتم المرسلين محمد ﷺ، وأن "البشر" المكوِّنين لها هم خيرُ أمة أخرجت للناس، وهم الصفوة الذين حملوا الإسلام إلى العالم ونشروه بالحب والحكمة، والإيمان القولي والعملي.

لم تعرف اليمن حدة الصراع المذهبي، بل كانت دائما قادرة على إقامة كيانها الفكري على أساس المرجعية الإسلامية الأصيلة، في جو من التسامح والعفو والحب والتيسير. دخلها المذهب الحنفي وغلب عليها. وبأدب جم انسحب الأحناف الرائعون، وأفسحوا المجال للمذهب المالكي. ومع أوائل القرن الثالث الهجري دخل مذهب الإمام الشافعي

-بحب ووفاء- فطوى تقريبا صفحة الآراء الفقهية السابقة، وأصبح المذهب الشافعي هو المذهب السائد.. ومن ثم استطاع الإمام التقي الهادي يحيى الحسين الزيدي أن يدخل بفقهه إلى اليمن، معتمدا على "مجموع الإمام زيد الفقهي والأصولي" والذي اعتمد في حديثه على أبيه "علي زين العابدين"، وأخيه "محمد الباقر" رضي الله عنهما.. وقد كان مذهبه منسجما مع فقه أبي حنيقة اعتمادا على ما كان بين زيد وأبي حنيفة من علاقة ودُود، وقامت العلاقة بالتالي بين الزيدية وإخوانهم الشافعية على أروع ما تكون الأخوة، وعلى أفضل ما يكون التكامل والتسامح.

مجلة حراء تشرق في اليمن

في أجواء عبق هذا التاريخ، الموصول بالجغرافيا، والملتحم بتاريخ العروبة وحضارة الإسلام، ذهبنا إلى صنعاء ممثلين لأول مجلة عربية تصدر -بلغة القرآن- في تركيا بعد سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م.

إنها مجلة "حراء" التي يجاهد ناشروها الأبرار من تلامذة داعية عصره، حامل همّ المسلمين الأكبر "الأستاذ فتح الله كولن" -أطال الله عمره-، الذي ينأى بدعوته عن السياسة والساسة، هادفا إلى نشر بذور الإيمان، وتعهدها وسقيها وإنضاجها، وترك ثمراتها لمن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

إن مجلة "حراء" ذات رسالة إسلامية ترتفع فوق القواطع والفواصل، فهي تخاطب كل المسلمين ولا تقف كثيرا عند آرائهم أو اتجاهاتهم الفقهية أو الفكرية ما داموا في نطاق الكتاب والسنة. إنها علمية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، وتحاور أسرار النفس

وآفاق الكون بالمنظور القرآني، من أجل أن ترتفع بالإنسان المسلم إلى المستوى المعرفي والكوني الذي وضَعَهُ الله فيه منذ أن أمره بأن يحذوا حذو نبيّه ﷺ فيقرأ قراءة معرفية وكونية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥)، فجمع الله بين القراءتين معا لكي يقع التآلف والتناغُم بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع. ولهذا كان لا بد أن تكون المجلة قرآنية الصبغة، عَصْريَّة الصياغة، جامعة بين الأصالة والمعاصرة، بمنهجية وسطية، لا تعتمد التلفيق بل التوفيق، ولا تقبل بالتصادم بل تجاهد في سبيل التكامل، بعيدا عن السكونية، وعن الإفراط والتفريط.

وهناك في صنعاء، ذات التاريخ الإيماني والحضاري العريق، وفي اليوم الحادي عشر من فبراير عام ٢٠٠٨م صبيحة يوم الاثنين، كان اللقاء في فندق "موفمبيك" في الساعة العاشرة والنصف صباحا، وفي ظل استقبال حار من الجامعات اليمنية بدءًا بجامعة صنعاء إلى جامعة العلوم والتكنولوجيا، إلى مسؤولين رسميين ومفكرين ومثقفين يمنيين.

نعم، كان اللقاء، لكنه لم يكن لقاء عاديا، ولم تكن مجلة "حراء" في هذا اللقاء مجرد مطبوعة تعبر عن الأصالة التركية الإسلامية والحضارة التي لا تنسى الوشائج بين العرب والترك، ولا تنسى أن بيننا الكثير مما يجمعنا، وأننا عشنا قرونا طويلة شركاء في سفينة حضارية واحدة بل كان الأمر أعمق من ذلك، فهو دعوة من العالم التركي إلى العالم العربي لعودة التواصل الحضاري انطلاقا من الثقافة والفكر والأمة، انتظارا ليوم تعود فيه أمة الإسلام قائدة للإيمان، حاملة راية الحب والتسامح والأخلاق إلى

العالم بعد أن أوشكت سفينة القيم أن تغرق.

كان اللقاء رسالة بين عالَمين، وفتحا جديدا يعمق الحب بين قلوب -هنا وهناك- حاولت صروف الدهر أن تقضي على ما بينها من وشائج وأواصر ممتدة في التاريخ. كان عدد الضيوف من خارج اليمن قليلا يتمثل في الوفد التركي (حامل رسالة "حراء" والحب إلى اليمن) وعلى رأسه الأستاذ "مصطفى أوزجان"، والأستاذ "نوزاد صواش" رئيس تحرير مجلة "حراء"، بالإضافة إلى عدد من الضيوف الأتراك يقتربون من عشرين ضيفا من بينهم الأستاذ "جمال تُرك" مدير أكاديمية العلوم بإسطنبول، والأستاذ "شكري شاهين" مدير النشر بالقاهرة، وغيرهم.

ومن الضيوف غير الأتراك، من كتّاب مجلة "حراء" الأستاذ الدكتور "عمار جَيْدَل" الأستاذ بجامعة الجزائر.. وحضر اللقاء وزير الثقافة والإعلام اليمني ومستشار الرئيس للشئون الثقافية الشاعر والمفكر المعروف الدكتور عبد العزيز المقالح.

وتوالت الكلمات بإدارة الأستاذ "نوزاد صواش" رئيس تحرير مجلة "حراء"، وتتابعت من الأساتذة بصنعاء فتكلم الأستاذ الدكتور داود عبد الملك الحدابي، والأستاذ الدكتور سيد مصطفى سالم، والدكتور على بن العجمي العشي، والدكتورة أمة الملك الثور، والدكتور محمد عبد الله المحجري، والدكتورة نجاة صائم خليل، والأستاذ حسين صالح على البهجي...

كان الأستاذ نوزاد صواش ماهرا في إدارة الندوة، جامعا بين اللغة العربية الفصيحة والأصالة التركية والدعابة العربية. كان يضفي على الجميع من أخلاقه، ويثني عليهم مستمدا خزينة حكمته ومعلوماته لكي

يلبس كل واحد منهم الثوب الجميل اللائق به، وقد أدهش الجميع لتمكنه من العربية ودعاباته، وحسن تقديمه.

وكان شيئا بديهيا أن يكون الأستاذ مصطفى أوزجان، أول من يتكلم بل ويمثل الجانب التركي ومجموعة قايناق للنشر الثقافي التي تعدّ من أهم مجموعات النشر في تركيا، والتي تقوم بنشر مختلف الكتب وبمختلف اللغات وفي مقدمتها اللغة التركية والإنجليزية والألمانية والروسية والعربية، وغيرها من اللغات.

وفي كلمته التي ترجمها إلى الجمهور رئيس تحرير "حراء" أعلن الأستاذ "أوزجان" سروره بوجوده بين إخوانه في اليمن بلد الإيمان والحكمة، وأعلن ترحيبه بالجمهور الكبير الذي قبل الدعوة الكريمة، وبجهود أبناء اليمن في تذليل كل العقبات، وفي الإعداد لهذا الحفل الناجح بكل المقاييس. كما أعلن ثقته في مستقبل يقوم على التواصل الحضاري، وثقته في أن "حراء" سيصاحبها النجاح في كل الآفاق التي ترتادها مشيرا إلى أن نجاحات "حراء" تطرد منذ نشأتها في عام ٢٠٠٥م بإصدارها الفصلي، وذلك لما يلمسه من تنامٍ للوعي عند المسلمين، وأن من الضروري الاستمرار في تعميق هذا الوعي وانتشاره، وأن نفكر في هدوء دون أن نقع في ردود الأفعال، والتصرفات العاطفية التي قد تؤثر سلبا على رسالتنا مؤكدا أن "حراء" تسعى دائما إلى تكوين مدرسة فكرية يلتقي فيها العقل والوجدان.

وفي تعليقه على كلمة الأستاذ "أوزجان" وجه "صواش" دعوة إلى أصحاب العقول النيرة والقلوب المستضيئة في اليمن والعالم إلى أن يودعوا صفحاتها كلمات من أقلامهم، وقال: "إن "حراء" مجلتكم إنها

مجلة العالم الإسلامي، وأبوابها مفتوحة لمن يريد الولوج إليها حتى تكون ملتقى للتقارب والتآلف، وجسرا للمحبة والتعارف.. تستوحي المعاني العظيمة في رسم الطريق إلى المعرفة الإيمانية التي تريدها لمسلم هذا اليوم، وهو ما تعمل "حراء" على أن تكرس له نفسها، وما تحب من أصحاب الأقلام والقراء أن يعينوها عليه".

وفي كلمته قدم الدكتور "عبد الحليم عويس" مشاعره تجاه "حراء" واليمن، وأعلن سعادته بالتواصل الثقافي التركي اليمني، وذكر أن "حراء" قطعة منه، فقد عاش معها منذ ولدت وتألقت آفاقها الفكرية العلمية الإيمانية الوجدانية، منذ بدأت "حراء" تخطو خطواتها، وتتوالى أعدادها.. ورجا من الله أن تصبح "حراء" مجلة شهرية واثقا من أنها ستقوم بدور فكري دعوي رائد حينما تتجاوز هذه العقبة وتصبح شهرية.

وبأسلوب يجمع بين العلم والإحصاء والحب عرض لنسبة المقالات في ضوء اتجاهاتها الفكرية خلال أعدادها السبعة الأولى التي صدرت في نحو عامين، وأشار -بشيء من الدعابة- إلى أن نسبة الأدب -شعرا ونثرا إبداعا ونقدا- هي أكبر نسبة نظرا إلى أن رئيس التحرير أديب وأكاديمي في الدراسات الأدبية، وكان طبيعيا أن يتحيز إلى الأدب، وجاءت الإسلاميات بعد الأدب، بينما لم تتجاوز دراسات التاريخ والحضارة وفلسفة التاريخ نسبة ١١٪. وأشاد باهتمام المجلة بالعلوم سواء كانت علوما تكنولوجية أم نفسية أم تربوية، لاسيما في معالجتها بالمنظور الإسلامي.. كما أشار إلى إيجابية طرحها وتنوعه في الموضوعات، وارتفاع مستوى المعالجة، وتألق الروح الإيمانية التربوية في كلمات أستاذنا "فتح الله كولن" التي تتصدر المجلة، وحتى العلم -مع موضوعيته- يعرض بأسلوب أدبي،

وبروح إيمانية.. فـ"حراء" مائدة حافلةٌ متألقة روحا، مشرقةً أسلوبا، رائعةً إخراجا.

وعندما جاء دور الأستاذ "عمار جيدل" الجزائري في الحديث أشار إلى حاجة العقل المسلم إلى مجلة أو مأدبة -كحراء- تخاطب عقله وروحه معا غير متجاهلة لمنهجية العلم، ولأعماق الأصالة ومقتضيات المعاصرة.

ولم يقف الحفل عند هذه الكلمات، بل رافق هذه الكلمات تقديم فيلم مختصر عن "حراء" منذ ولدت فكرةً، وغرست بذرةً، واشتد ساعدها، وبدأت تعطي ثمارها الطيبة للإنسان المسلم عقلا وروحا وقلبا.

ومع نهاية الحفل تبودلت الأحاديث، وطرحت الآمال بين أكثر من مئتي مدعو من المثقفين والمفكرين والدعاة والمسؤولين في اليمن. وكان الحفل تدشينا لموقع جديد تقتحمه "حراء" بالحب والتعاون والإخاء.. وقد تسابق المدعوون إلى أن يأخذوا هداياهم من "حراء"، ومن بعض المنشورات الأخرى الدائرة في فلك "حراء"، وكلهم يريد أن يستوفي أكبر نصيب ليضع في بيته، وأمام أبنائه في اليمن السعيد إضافةً إيمانية تربوية تضيء له درب الحب الإسلامي، وتصله بالعوالم الإسلامية التي نتمنى أن نقول عنها ذات يوم "إنها عالم إسلامي واحد، وإن قبلة المسلمين الواحدة، قد أصبحت وحدها هي ما يرنون إليه استئنافا لعصر الرسالة، في زمن العولمة، عودة إلى المكان الحقيقي الذي اصطفاهم الله له، شهداء على الناس.. وأيضا، وبإذن الله وعونه ومن جديد خير أمة أخرجت للناس".

وقد أرسل الأستاذ المربي والعالم المفكر محمد فتح الله كولن رسالة تهنئة جمعت بين الفكر العميق والدفء والشوق. وفيما يلي نص الرسالة:

رسالة الأستاذ فتح الله كولن

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة الأفاضل، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إننا نشعر بالغبطة والسرور، إذ نجد أنفسنا بين أحضان أهل اليمن الكرام. تماما كشعور الأخ الذي وجد أخاه بعد ضياع لزمان طويل، فلصلة الرحم الآن لهيب من المحبة الغامرة، والشوق القديم.

ولقد وجدنا اليمن وأهله -كما حدّث عنهم التاريخ- أهلَ كرم وجود وحضارة أصيلة ومحتد أثيل، وما يزال اليمن ينتج الرجال والفحول، ولم يزل أهله يزودون العالم بأخلاقهم النبيلة، فيسهمون في نشر الدين الحنيف تبعا لمسلك أخلاق أجدادهم من الصحابة والتابعين. كان الرضا الإلهي هنا ينبض بالكرامات منذ أن أشرق النور في قلب أويس القرني ﷺ إلى أن نبت جيل هذا العصر الجديد، فكم من شعوب أسلمت بالنظر إلى خطاهم والاستماع إلى منطقهم الحكيم.

أيها الحضور الكريم..

إن حبنا لأهل اليمن أصل أصيل، فمنذ زمان انطلقت قلوب من بلاد الأناضول تسعى إلى الدفاع عن أرض اليمن السعيد يقودهم حب إخوانهم ونصرة أحبتهم وواجب دينهم.. جاؤوا من أقصى الأرض يسعون كما جاء رجل من أقصى المدينة يسعى، فارتقى في مراتب الخلود عند رب العالمين. والآن جئنا لنجدّد العهد ونصل ما انقطع بالكلمة الطيبة وبالحوار والمناجاة على صفحات مجلة

تطلب ضيافتكم وتسعى إلى التزود من حبر أقلامكم والتضلع من مداد أفكاركم.. فقد شهد لكم الرسول عليه الصلاة والسلام بالحكمة البالغة حيث قال: «الإيمان يماني، والحكمة يمانية». فهذه مجلة حراء تمدّ أيديها لكم بحرارة عسى أن تجد من بينكم من يصافحها بكل ذلك، وقطعا لن يخيب ظنها، فأنتم أنتم كما شهد لكم رسول الله ﷺ.

إن قلبي -أيها الأحبة- ليختلج طربا من الشوق إلى لقائكم والتملي بالنظر إلى وجوهكم، ولكن إذا عجز الجسد عن حضور مجمعكم، لموانع مما لا طاقة لي بدفعه من قدر الله، منها المرض وغيره مما الله به عليم، فإن الروح قد وصلت مع أول طليعة من إخوانكم من إسطنبول تطرق بابكم. إنني من مكاني هذا أشاهد بقلبي مجلسكم وأسمع حواراتكم وأتلذذ بجمال اللقاء كمن هو حاضر بينكم تماما. وإنني إذ أعلم حفاوتكم الكبيرة بإخوانكم الوافدين كحفاوة الأنصار بالمهاجرين فإنني أضع بين أيديكم وبين جوانحكم أمانة هي سبب من أسباب التواصل بين أفراد الأسرة الواحدة الذين فرقت بينهم المسافات الزمنية والجغرافية. مجلة حراء... ذلك أن الكلمة المكتوبة لم يزل لها شأنها الذي جعله الله لها ولن يزال أبدا، يجدد التاريخ ويستأنف سير الحضارة، لا ينافسها في ذلك شيء، مهما تطورت وسائل الإعلام الجديدة، إن الكلمة جزء من قدر الله العظيم، تفعل فعلها بأمره سبحانه، فلا يهزمها شيء ألبتة مذ حكم ﷻ بذلك في قوله تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(القلم:١)، وما مجلة "حراء" إلا قبس من نور القرآن

الكريم، كتاب الله الجامع لهذه الأمة، الرابط لها بأصلها، والضامن لوجودها حاضرا ومستقبلا.

إن العالم الإسلامي -كما تعلمون- قد مزقته الرياح والجراح في كل مكان، فلا قطر منه إلا وهو يعاني من نزيف مستمر، لكننا واثقون بوعد الله العظيم في أن الآلام تلد الآمال، وإن صلة الرحم وتجديد التواصل بين الأحبة والإخوة في كل مكان في هذا العالم لهو السبيل لبذر حبة الحياة في تربة أمتنا، عسى أن نستنبت شجرة لشرايين الحياة فيها.

هذا، وإننا لنقدم مجلة حراء بادرة لبدء السير في هذا المسعى المبارك وفتح ثغرة في الطريق المسدود، وإننا لموقنون بذلك، لأن كلمة الله سبقت بقضائه نصرة لرسله وأتباعهم إلى يوم القيامة، ذلك أنهم أخلصوا في السعي إلى رفع ألوية المحبة والسلام ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾(الصافات:١٧١-١٧٢).

بارك الله في مجمعكم، وزكّى حواراتكم، وجعل كل كلمة من كلماتكم الطيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(إبراهيم:٢٤-٢٥).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



"الروح" مفتاح نهضتنا[٦١٢]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إن النفس النبيلة تضفي -دائمًا- على الآخرين من نبْلها.. هكذا عرفنا أخانا الحبيب نوزاد صواش، وعرفنا جميع من معه في تركيا، لدرجة أن تركيا أصبحت عندي كبلدي مصر. أتواصل معها تواصل الروح مع الروح بعدما اكتشفتُ هذا العالَم الجديد. وأنتم تعلمون أن مصر حافلة بالتيارات، ولا ينقصها تيارات جديدة، لكني في الحق وجدتُ عند هؤلاء المَرفأ الحَنون، والرؤية التي تجمع بين أَلَق العقل، وبين نور الوجدان، وبين صدق الكلمة، وبين التواضع العجيب، وبين الإخلاص الشديد... كلُّهم يحمل لافِتة، كلُّهم.. بدءً من الأستاذ فتح الله كولن ومرورًا بالجميع؛ هذه اللافتة مكتوب عليها "الخدْمة". كلُّهم يعيش للخدمة.. خدمة الأمّة، خدمة الدعوة، خدمة الفكرة...

إني أعيش معهم هذا الواقع. عشت معهم، بتُّ معهم. كنت أزهريًّا، ثم دخلت إلى كلية دار العلوم، وعشتُ كما يعيش كلّ مصريّ، لكني -وهذه شهادةٌ للتاريخ- لم أجد أبدًا في هذه الشقق التي يسكن فيها

---

[٦١٢] كلمة الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس في الحفل التعريفي بمجلة "حراء" باليمن، في ١١ فبراير ٢٠٠٨م. وكان مقدم الحفل الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام على مجلة حراء.

طلاّب فتح الله كولن تَشاحنًا ولا تباغضًا مما يقع بين الشباب الذين يقطنون معًا، أبدًا... الجميع يتّسم بنوع من التواضع الغريب، والإخلاص العجيب الذي نفتقده في عالَمنا العربي.

قلتُ لنفسي، وأنا الأزهري الدرْعمي، تخرجتُ من كلية دار العلوم، كلية حسن البنا وسيد قطب، ونهلت من الأزهر تسع سنوات، ودخلت الأزهر وأنا أحفظ القرآن كلّه لا أُخطئ فيه كلمة، يوم كان الأزهر أزهرًا. نسأل الله أن يعود إلى مجده الزاهر، وأن تُبعَث هذه الأمّة من منابعها الفكرية والعلمية.

فوجدتُ نفسي مع هؤلاء الناس. فسخّرتُ ما بقي من عمري في خدمة قضيّةٍ رأيتُ لها شُموسًا تُؤمن بها، كأنّها غريبة في هذه الدنيا. لا تدري ما هذه الدنيا.. أعْرف شبابًا رفضوا الدنيا، أخلصوا للدعوة.. وجدتُ إخلاصًا عجيبًا.. هؤلاء فعلاً استيقظتْ فيهم وهْجة النور.. هؤلاء فعلا عادوا بنا إلى عصر الأنصار والمهاجرين.

أيها الإخوة والسادة وشيوخي الأماجد..!

لم ينتصر الإسلام بالكلمة المجردة "الإيمان".. ولم ينتصر الإسلام بـ"العقلانية" -والعقلانية جزء من هذا الدين- وإنما انتصر بشيءٍ أساس هو متفاح نهضتنا اليوم، بـ"الروح"... متى يتألّق فينا أَلَق الروح؟ متى نعود إلى ما سمّاه إقبال "بعْث الذات المسْلِمة"؟ تلك هي القضية.

تعلّمتُ من فكْر الأستاذ فتح الله كولن الكثير.. ومن قبله تعلمتُ من رسائل النور وبديع الزمان سعيد النورسي أشياء كثيرة؛ رؤيةً قرآنية عصريةً منضبطة إسلامية.. كما تفهم كيف يُتعامَل مع القرآن، تَفهم أيضًا كيف يُفقَه هذا العصر، وما المطلوب لهذا العصر..

تلك هي المدرسة التي أصدرتْ "حراء" كواحدةٍ من ألف نشاط من نشاطاتها.. نشاطات هؤلاء القوم الذين لم يقوموا بعمل تنظيم ولا حزْب، ولا أعلنوا عن أنفسهم على أنّهم حركة.. هم عمل تطوّعي، خدَميّ لخدمة الأمّة وبعث الأمة.

مع ذلك أريد أن أعْبر عالَم الروح لأتكلم شيئًا عن عالم العقل في مشروع كولن. عندما نطلع على فكر الأستاذ فتح الله كولن نجد أنه مشخِّص حقيقي لأمراض الأمّة الإسلامية.

الأستاذ فتح الله يرى أنه لكي نقيم صرح الروح من جديد لا بدّ لنا من تحقيق صفات الوارث ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥).

يرى أستاذنا أنه أننا مؤهَّلون، لكن بشروط:

- الإيمان الكامل: لا نقول كما كان الصحابة، ولكن نقترب ونسدّد.
- العشق، وتعمير القلب والعقل بالإيمان واليقين.
- الإقبال على العلم بميزان ثلاثية العقل - المنطق - الشعور.. آن لنا في كل تعاملاتنا أن نرمي وراء ظهورنا تلك الانفصالية التي سقطنا فيها منهجًا وفكرًا حول التناقض بين العلم والدين.
- إعادة النظر في قراءة الكون والإنسان والحياة في ضوء المزج بين الكتابين: المنظور والمسطور.
- حرّية الفكر للنفس وحرّية الفكر للغير. التحدي أمامنا الآن أن نستمع إلى الآخرين، أن نحاور الآخرين، لا نواجه عنفًا بعنْف، ولا انحطاطًا بانحطاط وإلا فنحن كالآخرين.
- إعادة النظر في المحركات التاريخة في حضارتنا، واستجواب

التغيرات والتحولات المختلفة للقرنَين الأخيرين بصفة خاصة للفكر الرياضي.. وهذا الأمر مهم جدًّا، لأننا عشنا في عصر الإنشائية كثيرًا، وآن لنا أن نتحكم في أفكارنا، أن نقدمها تقديما يقبله كلّ الناس، في عصرٍ تغلب فيه المسْحة العلمية.

مجلّتنا الحبيبة "حراء" نجحت في أشياء كثيرة، وبقيت لها أشياء. فأنا -وليسمح لي أخي نوزاد- سأقدّم بعض التقويم العابر، وبعض الأمنيات:

- الافتتاحية دائما للأستاذ فتح الله كولن تمثّل شمعة يُستقبل بها العدد. إيجابية الآفاق الجديدة في الخطاب الصحفي الإسلامي في هذا المزج بين قضايا عجيبة، سنتكلم عنها الآن.. في الحقيقة ما عهدناها في مجلة إسلامية، لا في شرقنا ولا حتّى في الغرب.
- التنوع في الموضوعات وارتفاع مستوى المعالجة.
- تألُّق الروح والتربية الإيمانية لاسيما في كلمة الأستاذ كولن.
- الأدب، قصة وشعرا، ودراسات كلها هادفة. ليس أدبًا للأدب ولا فنًّا للفن، كلّها تغرس بذورَ الإيمان وتزكّي الوجدان.
- رقيّ الفكر الإسلامي المقدَّم وابتعاده عن التقليد، بل ومعاصرته مع أصالته.
- تُقدّم المجلة أيضًا زادًا متنوعا يشبه مائدة حافلة في كثير من المجالات التي يحتاج إليها إنسان المسلم في عصر الهيمنة العولمية: تربية، علم النفس، تاريخ، حضارة، علوم، توظيف العلوم بالرؤية الإيمانية.
- عرض العلم بأسلوب الأدب مع الربط بالإيمان.
- علوم الجمال، والاهتمام بعلوم الجمال، وبالفنون، والدراسات الإسلامية بطبيعة الحال.

- روعة الإخراج الفنّي.
- هناك أسماء ثابتة فعلا للمجلة، والمجلة في حاجة إلى أقلام أخرى من اليمن وغيرها.
- كون المجلة دورية، هذا يفصل بين المجلة والقارئ، لا بد أن تكون شهرية.
- المجلة تضمّنت حتى الآن في الأعداد العشرة التي صدرت -وآخرها تلقّيناه أمس في القاهرة- ١٩٧ مقالاً ما بين دراسة وقصيدة ومقالة أدبيّة وبحث علمي وأكاديمي، وبحث علمي إيماني، وبحث علمي أدبي. إلخ.
- النواحي العلمية ٢٦ بحثا.
- علم النفس والتربية ٢٦ بحثا.
- الأدب والشعر والقصة ٤٦.
- الفلسفة والجماليات ١٨بحثًا.
- الفكر والحضارة، ويمكن أن يدخل فيها الدراسات الإسلامية والسيرة ٦٦ بحثًا.

إذا قسّمناها على الناحيتين التاريخ والحضارة والدراسات الإسلامية نجد حوالي عشرين فقط للتاريخ والحضارة، وأكثر من ٤٠ أو ٤٤ إسلاميات.

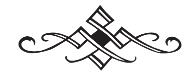
- مجموعة الدراسات والأدبيات في الأعداد العشر ١٩٧ تمامًا.

في الحقيقة ١٩٧ مقالة أو دراسة أو بحث تمثّل مدرسة وتمثل مائدة حافلة. أنت عندما تقرأ هذا العدد بهذا التفصيل سيؤكّد لك ما قلتُه سلفا من أنّ هذه المجلة نوعية جديدة في الكتابة الإسلامية.. إذا قرأها العلْميُّ

سيرى أنها علمية، الأديبُ سيرى أنها أدبية، المفكرُ المسلم سيرى أنها أيضًا تغذّيه.. ثم إن العمل الإسلامي في هذا العصر يحتاج إلى هذه الشمولية، لأن الإسلام فضيلة عادلة -كما يقول الشيخ الغزالي- بيْد أنه وقع -مع الأسف- في يد محامين فاشلين.

نسأل الله أن تنتهي هذه المرحلة، وجزاكم الله خيرا..

والسلام عليكم ورحمة الله.



الإسلام في حاجة إلى فعل [٦١٣]

الكلام الطيب والرائع الذي قاله أستاذنا مصطفى أوزجان[٦١٤] أنا عشته.. "خطابكِ لم أقرأْه لكن حفظتُه".. فهناك كلمات تُقرَأ وهناك كلمات تعاش.

ذات يوم كنّا نتناول طعام الإفطار في مدينة "أَسْكِيشَهر" فيما يبدو لي، فسمعتُ هذه القصة من صاحبها؛ كان مديرًا لمدرسة في أَسْوء مكان في العالم تقريبًا، في سِبيرْيا.. درجة الحرارة ستين تحت الصفر، السيارة تمشي فوق الجليد. فهذا المعلّم يحبّ المدرسة التي أنشأها، يُظهر نزعته الإنسانية للجميع.. ينطلق من الإسلام الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأَنْبِيَاء:١٠٧). كان في بيته يتناول الطعام للإفطار أو الغداء، سمِع أنّ طفلاً من أطفال المدرسة وقع من الطابق الثاني ومات. خَشي أن يكون هذا الطفل ابنًا لأحد المسؤولين الكبار. فكان كلّ همّه ألا تكون المدرسة بعد ذلك موضعًا للنقد. فهرول -وكان مسؤول المدرسة التي وقع منها الطالب- فُوجئ بأن الذي وقع من الطابق الثاني ومات هو ابنه، نعم الذي وقع كان ابنُه.. فسجد لله شكرًا على أن الذي مات لم يكن ابنًا

---

[٦١٣] كلمة الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس في الحفل التعريفي بمجلة حراء أكتوبر ٢٠٠٦ / القاهرة.

[٦١٤] أحد مستشاري مجلة حراء.

لمسؤول في سيبريا، فيضطهد المدرسة فيما بعد وتسوء سمعتها.

مناظر عشتُها مع هؤلاء الإخوة، كأنني أعيش في عصر أهل الصفّة. لكن لم يعد مكان أهل الصفّة هو مسجد المدينة، أصبح العالم كله مسجدًا لهم. في أي مدينة تذهب إليها تجدهم هناك، لم يعودوا يمثّلون العالم التركي فقط، بل يمثّلون العالم المسلم، الإنسان المسلم في كل مكان..

أصبحتُ أحفظُه، كأني تلميذ في مدرسة "الخدمة".. كلهم يعمل في الخدمة، بدءًا من أعظم الرجال في تركيا إلى أقلّ طالب علم في كلية الشريعة أو أصول الدين هنا، يطلب العلم ويطلب الماجستير أو يطلب الدكتوراه، كلهم هذا هو شأنهم، لكنهم قبل ذلك وبعد ذلك في الخدمة يخدمون الناس ويخدمون إخوانهم.

تدخل إلى بيوتهم -وقد عشتُ معهم عشر سنوات حتى الآن- لا تجد أبدًا شيئا مما نعرفه نحن في مجتماعاتنا الشرقية من مشاحنات، أبدا.. عشر سنوات وأنا أرقب مشاحنة، أبدا... الكلُّ يعرف دَوره، كأنهم ولْدان مخلَّدون. عشتُ الإسلام معهم لدرجة أن زوجتي -رحمها الله- كانت تعجب عندما أقول لها "إنني أحبّهم أكثر من أبنائي"، ما كانت تصدّق، لكن أنا والله كنتُ أقول صادقا. كلّنا يلقى من أولاده بعض الشيء، لكن أنت عندما تذهب كضيف وتبدأ بخلع حذائك، سيتقدم الأستاذ كمال، ويتقدم الأستاذ نوزاد، ويتقدم الأستاذ جمال، يتسابقون لحمل حذائك، لخلع جكيتك، يعاملونك كأنك أستاذ كبير، حتى ولو كانوا أفضل منك، وأقرب إلى الله منك.

يعيشون في ظل كلّ القوانين، وعندهم فنّ التعامل مع كل القوانين، فلا يشكون زمنهم، ولا يشغلون أنفسهم بسبّ هذا وسبّ ذاك أبدا، أو نقد

هذا ولا ذاك.

كل قنواتهم التلفزيونية قلْبها وجوهرها هو "الإسلام"، ربما لا تتحدث عن كلمة "الإسلام" لكنها تفعل الإسلام.. إنك ترى القلب الإسلامي والروح الإسلامية في داخل تلك المؤسسات حتى في الدراما التي تقدَّم. كلّ شيء هو "الإسلام" بدون أن تستثير الناس، وبدون أن تبين أنها جبهة ضدّ الجبهات، لأن الناس كلهم مسلمون بالفطرة.

أما قضية الإذاعات والمجلاّت، فهذه قضية حدّثْ عنها ولا حرج، تجد مجلات كثيرة بكلّ اللغات. مدُنهم الجامعية كثيرة. كل الاحتياجات التي يحتاجها الساكنون تُقدَّم من مصانعهم.. نجحوا فيما لم ننجح نحن فيه.. أقنعوا أصحاب المال بأن الإسلام انتشر على يد أبي بكر ﵁ عندما تبرّع بكل ماله، وعمر ﵁ بنصف ماله.

بعض هؤلاء رأيتُهم في الشوارع كأنهم ناس عاديّون، ربما تُخطئ فتعطيه وتساعده من مالك.. مثلا أحدهم "الشيخ علي"، لا أنساه، إنه يلبس بنطلونًا عاديًّا جدًّا، لقد بنى أحد عشر قصرا، "قصرًا" بمعنى الكلمة؛ ثلاث طوابق مجهَّزة بأحدث الآلات.. فأخذ لنفسه قصرا ولابنه قصرا، وتبرع بتسعة قصور للخدمة.

كلمة السر لـ"الخدمة".

قلت له: أشكرك على هذا، وجزاك الله خيرا..

فقال لي: على ماذا تشكرني؟ فالله أعطاني، وأنا أخذتُ ما أحتاجه مما أعطاني، وتركتُ الباقي له تعالى، تركتُه لله.

ذات يوم كنّا في مؤتمر، آثرتُ أن أُقيم مع بعض إخواني في منتجع طيّب جدًّا وقصْر فخم في عرائش، ولم أسكن في الفندق.

قالوا لي: هذا الرجل الذي يأكل معك ويشرب الشاي معك هو صاحب القصر.

قابلتُه وقلت له: أنا من قرية محدودة، لكن عندي استراحة بسيطة، بسيطة جدًّا لا تساوي شيئًا بالنسبة لاستراحتك، لكن إذا جئتَ إلى مصر فتفضّل إلى عندي.

فقال لي: أنا أيضا بيتي هو كذلك، لو جئتني إلى بيتي ستجد بيتا عاديًّا جدا.

قلت له: طيب وهذا؟

قال: لا، هذا للخدمة، هذا لله.. لا بد أن نُعطي للخدمة أفضل ما عندنا.

وهناك "الحاج علي" آخر.. سهرنا معه ليلة في شعبان الماضي. تبرّع في يوم واحد بـ ٢٠٠ ألف دولار. الحاج علي هذا عزَمنا في ليلة النصف من شعبان.. وبالمناسبة أن المسلمين هناك لم يشغلوا أنفسهم بهذا الكلام الذي نشغل به أنفسنا؛ هذه بدعة، وهذه ليست بدعة، بل ينتهزون كل الفرَص لتحقيق الولاء، الولاء للرسول ﷺ، الولاء للإسلام.

الحاج علي عزَمنا، تعشَّينا عندهم، حيث كانت استراحتي مع زميلي سعيد مراد -وهو معنا الآن، وهو أستاذ في جامعة الزقازيق- فُوجئْتُ وأنا داخل المبنى بأن هناك صخبًا في الطابق الثامن أو التاسع، نزلتُ ووجدت مئات الطلاّب يتهجّدون، يقرؤون القرآن، إلى الفجر.. قالوا لي: قلْ كلمة، اقرأ علينا سورة "يس"، وقرأت سورة يس وقلت الكلمة، وبدأتُ أعيش مع الطلبة.. فُوجئتُ بأن الحاج علي الذي تبرّع في يوم واحد بـ ٢٠٠ ألف دولار، يلبس جلبابًا بسيطا ويعيش وسط الطلبة، ولعله وحْده أو مع شريك آخر يتحمّلان كلّ النفقات التي يحتاج إليها هذا المبلغ.

الإسلام الآن في حاجة إلى فعْلٍ، إلى هذا الأسلوب.. والعالم في حاجة إلى إسلام لا بد أن نقدّمَه بخُلق راق.

لا يقولون لك: "قم فصلِّ"، يتركونك، وهم يصلون. يأتون بأولاد في مدن جامعية لا يكلّمونهم في شيء. هو له أو عليه، فيرى الحياة، يرى المناخ، فيعشق المناخ.. وفعلاً عشقتُهم وأحببتُهم.

ليست مجلة "حراء" إلا لفتة جديدة. لفتة تفاعل حضاري تواصلي حقيقي مع مهد الرسالة ومع أمّة العرب وأمة الإسلام. الحمد لله، بعيدا أيّ صخب، بعيدا عن أي ضجيج أو صدام سياسي. أنا فرح بـ"حراء"، أعتبرها بنْتا لي، وأعتبرها بنتًا لحركة نشطة استطاعت أن تكون في مستوى الإعلام، تتفاعل مع الكل.

أتمنى أن تكون "حراء" أيضا جسرا جديدا بيننا وبينهم، وأتمنى أن يتعانق العالم التركي مع العالم العربي. نحن نتفاعل ونتحاور مع الآخرين، وكذلك يجب أن نحاور أنفسنا، ويجب أن نحبّ إخواننا وأن نعرف التجارب الأخرى حتى لا نيأس. بعضُنا ييأس لأنهم عاشوا في نقطة مركزية وهي واقع سياسي محدود.. أما هؤلاء فعالَمهم هو عالَم الإسلام، وأرضُهم هي أرض الإسلام مع كل مسلم في العالم..

هذه لفْتة طيبة عن هؤلاء الناس، أتنمى أن تكون فاتحة خيرٍ للتّعرف على الجوانب الأخرى في حياتنا الإسلامية، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾(الْمُدَّثِّر:٣١).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



أمة في رجل [٦١٥]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وإمام حضارة المسلمين سيدنا ونبينا وإمامنا وقدوتنا ومعلّمنا ومثلنا الأعلى "محمد بن عبد الله" عليه الصلاة والسلام.. وبعد:

فلقد ألححتُ على أخي الأستاذ نوزاد ألا يضعني بعد كلمة أستاذنا وحبيبنا الشيخ خوجا أفندي فتح الله كولن أطال الله عمره.. لأني أعرف أني ابتداء سأخسر كثيرًا من أوراقي، والإنسان لا يدخل معركة خاسرة. وعلى أية حال سامحه الله، وضعني في امتحان صعب حين جيء بمثلي لأكون بعد هذا الإمام العالَمي الأُخروي الرائع.. هذا الذي ضرب لنا ولكلّ الدعاة المسلمين في العالم، ولكل مَن يهتمّون ومن يهمّهم أمر هذا الدين، وضع لنا النموذج، وأقام علينا الحجة.

كان واعظًا، لم يكن أكثر من ذلك.. بدأ حياته واعظًا تابعًا للحكومة، فيما يسمّى عندنا نحن "وزارة الشؤون الإسلامية للأوقاف" ويسمّوها "دِيانَت" في تركيا. ومع ذلك، هذا الرجل العظيم الذي ولد سنة ١٩٤٢م،

[٦١٥] كلمة الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس التي ألقاها في الحفل التعريفي بمجلة حراء عام ٢٠٠٨م / القاهرة. ولقد كان مقدّم الحفل نوزاد صواش، المشرف العام على مجلة حراء. وجاءت كلمة الدكتور بعد رسالة الأستاذ فتح الله كولن التي أرسلها إلى الحفل.

يعني مثلي أنا، وأنا في قمّة القاع من تحت، يعني بيني وبينه سنة واحدة.. أظن يجب أن أبكي على ما ضاع من عمري. وكلُّنا جميعًا يجب أن نتحسّر على أننا لم نصْنع شيئا بالنّسبة لهذا الرجل. لو علمتم ماذا صنع؟!

أريد أن تعلموا فقط أن هذا الرجل عاش كبقيّة الدُّعاة إلى الله في أكلح الظروف التي عرفتْها تركيا. لم يبك على ما فات ولم يلعن الظلام، وكلنا يعيش للعْن الظلام.. فانطلق من رؤية تفاؤلية إيمانية واثقًا ثقة كاملةً في الله وحده.. عندي من طرائف ابتعاده عن الحرام، عندي من طرائف تمسّكه بالحلال حتى في أصعب الظروف، حتى بعد أن ينتهي الناس من صلاة العشاء في المسجد الذي كان يعمل فيه، كان لا يُحِلّ لنفسه أن يستغلّ كهرباء الحكومة؛ مع أن بعضنا يفتي بأنها علمانية يجوز أن تُسرق، لكنّه أبدا ما سوَّغ لنفسه أكْل حرام. كان يأتي بمصباح ويترك كهرباء المسجد، ويشتغل في المصباح إلى مطلع الفجر أو إلى قُبيل مطلع الفجر. وحوّل المسجد إلى قناة دعوية كبيرة حتى بدأت الأمورُ تزداد بعض الشيء، وأنتم تعرفون في عالمنا المسمّى بـ"الإسلام" أن المساجد هي أكبر الأشياء مُراقبة من جهات الأمن والحكومات، في كل عالمنا الإسلامي، وكلُّنا في الهم شرقُ، لكن بدرجات.

عرف الرجل كيف يقيم دعوته، "ليس لدينا سياسة ولا نريدها"، وسنبتعد عن كل مجال يجعلنا نصطدم. فاعتمد على الاقتصاد، على "الأصناف"، على رجال الأعمال، يسموْن "الأصناف" في تركيا، وبدأ يغذّيهم. وأنا سعيد بأنه بدأت ومْضة أو ومضات في مصر تعيد إلينا كثيرًا من بعض رجال الأعمال وتُبصِّرهم بأنهم ركْن أساس في إقامة النهضة. فعندما تتكامل بعض الشُّقق تُحَوَّل إلى مسكن لمدينة جامعية أو مدينة

طلابية في الثانوية، ويؤخذ لها تصريح قانوني.

المهم الرحلة طويلة وشاقة ولا تَخلو من معاناة ومُلاحقات ومن جوع ومن شظف. على كل حال، بدأ يفكر في المساعدات الأخرى، لأن المدارس لا بد أن تُبنى، بل طمح إلى بناء الجامعات.

لو تعلمون أنه هناك ٩٠٠ مدرسة في العالم الآن تستلهم فكر هذا الواعظ الأستاذ العظيم.. لو تعلمون أن هناك جامعة تُعتبر في الدرجة الثانية أو الأولى في تركيا. وتعلمون أنه لا يمكن حصر عدد الدعاة الذين يقومون على شيء اسمه "الخدمة"، كلمة الخدمة تَساوَى فيها الكبير والصغير.

في تركيا أظن أربع قنوات تلفيزيونية تنافس القناة الحكومية. في تركيا جريدة "زمان" توزع مليون نسخة يوميًا، بتأثير هذا المفكّر العظيم.

أخونا الذي قال بأنَّ فتح الله كولن يُشرف عليها، أبدًا.. لا يشرف الأستاذ فتح الله بهذا الشكل. الأستاذ فتح الله كأنه شمسٌ كوَّن أجيالاً أُشبعت بأشعّة هذا الشمس. هو ينْظر إلى الأشياء الكبرى والكلّية..

لذلك هذه نصيحة للذين يقودون الأعمال أن يُنشئوا أجيالاً. الحياة والموت بيد الله، ولا تستطيع أنت أبدًا أن تعمِّر الكون بذاتك، أو بخمسة من حولك.

واللهِ أنا فكّرتُ كثيرًا كيف صنع هذا الأستاذ فتح الله كولن من نفسه هذا الإنسان، وهو واعظ تقليدي.

وأيضا كيف استطاع أن يصنع هؤلاء الرجال؟! أنا عشتُ معهم في كثير من الأماكن ليس في تركيا وليس في مصر، بل في ألبانيا بل في أوروبا، عشتُ معهم.. كنت أسكن في مدارسهم لأن لهم أنواعًا من المدارس

يمكن أن تُقيم فيها، إلخ.. كيف رُبُّوا على هذا النسق الرائع من الخضوع والطاعة والحبّ والتواضع.. كيف ربُّوا؟!

والله عندما يُخلِص الإنسان ويتجرد، وعندما تنبعث الروح فيه.. نعم لقد بدأ الأستاذ من الروح، بدأ من القلب، وجاء العقل فأتمّ بعد ذلك مكوّنات الفعل الحضاري.. فالأستاذ بدأ من هنا، فعرف الطريق، ولم يسمح لأيّة عوامل خارجية أو أجنبية أو كذا.. ما فكّر في الهجوم على مسلم قطّ، حتى ولو هاجمه هذا المسلم. ما فكّر في تمزيق المسلمين إلى "صوفية" يُناوئهم أو "سلَفية"، أبدًا.. هذا كلام العاطلين والفارغين، هذا كلام الذين لا قضية لهم. لكنه كانت له قضية، وهذه القضية ليست تركية ولا عرَبية، هي "قضية إسلامية وإنسانية".

هذا هو الأستاذ فتح الله كولن، لا أحدِّثُكم عن خمسين تقريبا دار نشر مبثوثة في العالم.. وهناك قناة فضائية في أوروبا.. هناك قناتان في أمريكا..

يا أيها الدعاة! أرض الله واسعة، لا تقولوا "إنّنا مظلومون"!. وكما يقول الأستاذ وأستاذنا جميعًا: "لكي يعطينا الله قيادة الكون لا بد من تربية أجيال تستأهل التمكين والقيادة".

فجزاك الله عنّا خيرًا يا أعظم رجل في حياتنا المعاصرة.. وفعلاً هو أخذ الرجل الأوّل في بعض المسابقات العالمية.

جزاك الله عنا خيرًا، وأبقى لك حياتك لنا، وحفظك لنا، وحفظك للإسلام، وجعل المدارس تنتشر هنا وهناك في كل بلاد الإسلام على نهجك الذي علّمتَه إيّانا. وجزاكم الله خيرًا.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع:
الروح وميلاد الحضارة

- الروح وميلاد الحضارة
- الهجرة... مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة
- حضارتنا الإسلامية... من المرض إلى النهضة
- أزمة الذات المسلمة وضياع الإحساس بالسنن الكونية
- الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ
- الطريق إلى إحياء علوم الدين والدنيا معا
- دع الغيب الذي فيك يتكلم
- رحلة الصعود الملائكية



الروح وميلاد الحضارة[٦١٦]

دائما يُثبت التاريخ أن الحضارة لا تولد إلا بالروح، ويُثبت -أيضا- أن الحضارة تزدهر بالعقل، فالروح أولا والعقل ثانيا. قد يحدث العكس، فتُولد الحضارة بروح هامدة وعقل متألق.

وهنا يمشي العقل وحده، يمشي مسكينا عاريا من مقومات البصيرة الكونية وما وراء الكونية. إنه عقل لا تدثّره حضارة ولا يتلفّع بأردية الوجدان المضطرم بالحبّ، ولا الضمير الحيّ، ولا الإيمان الحارّ، ولا نبضات القلب الوجل من خشية الله. إنه عقل مسكين يمشي -وحده- عندما يفقد الروح، يمشي بلا قلب فقيه ولا عين بصيرة ولا أذن سامعة.

إن العقل -في غيبة الروح- ليقفز من مرحلة الروح الضرورية للميلاد الكامل الصحيح إلى مرحلة الازدهار. لكن أي ازدهار يا تُرى؟ إنه الازدهار "المادي" المحصور في الإبداع "الشيئي" الذي أحرزته التراكمات الكمية المعرفية عبر رحلة العقل في التاريخ من المركبة البدائية إلى السيارة إلى الطائرة، من بريد الرسائل إلى البريد الألكتروني، من الغذاء البسيط إلى الغذاء المركّب والمعلّب، من بيت الطين إلى عمارة الخمسين طابقا، ومن البساطة الداخلية في البيوت إلى بيوت "السوبرلوكس".

---

[٦١٦] مجلة حراء، العدد: ١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩).

لقد قدّم العقل ازدهارا ماديا وشيئيا لا ريب فيه، لكنه -مع كل ذلك- لم يستطع أن يقدم "البديل" عن "الروح". وكلما ارتفع منسوب عالم الأشياء، هبط منسوب الروح، وفقد الإنسان كثيرا من أركان سعادته. لقد تقدم عالمه الخارجي، أما عالمه الداخلي فهو يتداعى في كل يوم آيلاً للسقوط دون أن تكون هناك تيارات روحية قادرة على إيقاف الانهيار ومنع السقوط. إن كل الوسائل الخارجية تفقد فاعليتها ما دام داخل الإنسان متناقضا، يتآكل روحا وقلبا، ويعيش تعاسة لا تنفع في علاجها الماديات الخارجية: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾(فاطر:٢). لقد أصبح العقل ومنجزاته الشيئية والبعيدة عن الروح وثنا يعبد نفسه ويعبد الأشياء.

إن مفتاح سعادة الداخل لا يقوم إلا على تغيير الداخل بوسائل العلاج الداخلية: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). إن العقل لا يستطيع تقديم العون للقلب إذا كان هذا العقل مريضا. لقد تحول هذا العقل من عابد لله إلى معبود يعبد الأشياء -في الوقت نفسه- ويؤله المادة والثروة والترف الذي لا حدود له.

ولقد تضخّم هذا الإنسان الذي يقوده العقل وحده، فظن نفسه صانعا وليس مخلوقا لله. لقد نظر إلى نفسه على أنه وسيلة وغاية، وأن الزمان هو حدوده الزمانية، ولا زمان خارج زمانه، وأن مكانه الدنيوي هو المكان الذي لا مكان غيره. فلا آخرة ولا بعث ولا جنة ولا نار.

في مكة والمدينة عاش الرسول ﷺ يصنع الإنسان الذي تقوده الروح. ذلك الإنسان الذي جلس بين يدي الرسول ﷺ في دار الأرقم، وفي شعاب مكة، وفي المسجد النبوي. لا ليتلقى علما مستقلا بذاته، بل علما ممزوجا

بالروح. لقد جلسوا بين يديه وكأن على رؤوسهم الطير، خجلين من توجيه السؤال إليه، لأنهم يعيشون طعم الحب وحلاوة الإيمان وألق الروح وارتفاعها صعودا إلى الأفق الأعلى، حتى لكأنهم -كما ذكروا للرسول ﷺ- بين يديه كالملائكة الذي لا يعنيهم إلا الرحيق المختوم، والسُّلاف النقي، تاركين اللهث الكمي المعرفي العقلي لوقته، آخذين منه ما تحتاج إليه تكاليف دينهم ومقتضيات المنهجية النبوية لحياتهم. إنهم -أبدا- لم ينسوا قيمة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١)، ولا قيمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨)، لكنهم أدركوا أن القراءة لا بد أن تكون باسم الله، والعلم لا بد أن يكون مرتبطا بخشية الله، وآمنوا بأنه لن تتحقق الغاية من الروح والعقل إلا حين تكون "الروح" أولا والعقل ثانيا. ولقد أدركوا أن الخطورة تكمن حين يقف العلم وحده، فلا يحميه سياج الإيمان، يحميه من نفسه ومن كبره ومن جبروته وطغيانه، ومن تدميره حين ينفصل عن الروح وعن "اسم الله" وعن "خشية الله".

وعندما حانت لحظة إعطاء العقل -مع إفرازاته المادية- حقه، وجّه الرسول ﷺ إلى ذلك، في غزوة بدر (٢هـ) وجعل فداء الأسير أن يعلِّم بعضَ أبناء المسلمين القراءة والكتابة. وكان ﷺ من قبل قد وجه بعض صحابته إلى معرفة لغات بعض البلاد توطئة لإرسالهم (٦هـ) إلى ملوك العالم يدعونهم للإسلام، مدشنا المرحلة العالمية الكبرى للدعوة والحركة. لكن الروح كانت الوقودَ الأول. لأنها تتجاوز حدود العقل الذي تحكمه قوانين قد تكون كافية في الظروف العادية، لكنها غير كافية لإطلاق الدولة والدعوة عالميا.

والسؤال هنا، أيهما -الروح أو العقل- هو الذي دفع أبا بكر رضي الله عنه

لإنفاق كل ماله؟ إن الشريعة أو العقل لا يُلزمانه بذلك.

أيهما، الروح أو العقل دفع عمر ﷺ لإنفاق نصف ماله، ودفع عثمان ﷺ للإنفاق بسخاء كبير على الدعوة في مراحلها الأساس؟

وأيهما، الروح أو العقل، جعل الأنصار يستقبلون إخوانهم المهاجرين، ليس بما يجودون به، وليس بما توجبه فريضة الزكاة أو الأعراف العامة، وإنما يستقبلونهم بحب وإيثار يفوق حب الشقيق لشقيقه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(الحشر:٩).

إن كل النوازع البشرية قد سقطت في هذه اللحظات العلوية، لحظات قيادة الروح، لدرجة أن يقول الأنصاري سعد بن الربيع ﷺ لأخيه المهاجري عبد الرحمن بن عوف ﷺ: "خذ شطر مالي، ولي زوجتان تخَيّرْ واحدة منهما أطلّقها لك ثم تتزوجها".

ولو كان العقل هو القائد الأول هنا لما سمح لهذا السموّ أن تتحقق، لأنه محكوم بموازين المصلحة والمواطنة وتبادل المنافع، قبل موازين الحب والإيمان والزهد والإيثار والعشق للدين الجديد.

لقد أدركت فطرة الأنصار النقية أن المهاجرين مروا بمرحلة تمثل درسا على الأنصار أن يفهموه ويرتفعوا إلى مستواه. فهؤلاء المهاجرون قد ضحّوا بوطنهم على حبهم له، وضحوا بدُورهم وأموالهم، حتى إن صهيبا الرومي ﷺ يضحّي بكل ماله ليتركه المشركون يهاجر بدينه ليلحق بالرسول ﷺ، فاستطاع الأنصار -بالروح- أن يرتفعوا إلى المستوى النفسي والوجداني والإيثاري المطلوب، مؤكدين أن الجماعة الإسلامية في المدينة كيان واحد -أنصارا ومهاجرين- لا تفرقهم عنصريات جنسية

ولا عصبيات وطنية ولا صراعات مادية. ومن ثم جاءت "المؤاخاة" التي أقامها الرسول بينهم تتويجا لعلاقة روحية وقلبية وإيمانية لا يستطيع البشر أن يرتقوا إليها.

وهكذا كان دور الروح الذي انبثق منها -وفي ظلالها- التطور العقلي، فولّد العلم -بالتالي- ابنا شرعيا للإيمان، واتجه إلى الخير الإسلامي الإنساني العام، وتوّجه القرآن بتلخيص الرسالة المحمدية في هذه الوظيفة الخالدة التي أهملتها الحضارات والأديان لاسيما الحضارة المادية المعاصرة. إنها وظيفة جيل الصحابة التي استقوها من وظيفة قدوتهم وإمامهم ﷺ والتي حددها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

ليست الروح التي نتعامل معها في حديثنا هذا هي فقط الروح التي تحدث عنها ابن سينا في قوله، ولا هي -فقط- تلك الروح التي تحدّدت اصطلاحا بأنها "ملكة لطيفة غير مادية يُمدّك الله بها لتحتفظ بحياتك، فهي سرّ وجودك وبقائك، وأيضا يمسكها عنك عندما تنتهي حياتك". قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الزمر:٤٢). إنها الروح التي قد يتوافر لها بعض ذلك، لكنها -كما يتعامل معها القرآن- شيء أقوى وأعم من ذلك بكثير.

لقد خلق الله آدم عليه السلام من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:٢٩). وأمرنا أن لا نيأس من روح الله ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٧٨). فنحن نعيش -كما تدلنا الآيات- بإشعاعات الروح. فلقد خلقنا الله -ابتداءً- من روحه التي

نفخها في أبينا آدم عليه السلام، ثم نفخها في مريم أم عيسى عليهما السلام، ونفخها في كل إنسان يولد في الأرض. فكلّنا من روح الله. وعندما نوضع في امتحانات صعبة، فإن علينا أن نلجأ إلى رَوح الله طلبا للنجاة. وإذا يئسنا من اللجوء إلى رَوح الله التي منها أوجدنا وخلقنا، وبها استقام كياننا، خرجنا من دائرة الإيمان، لأنه ﴿لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٧).

ولكن في أساليب أخرى يطلق الله "الروح" على رسوله الأعظم "جبريل عليه السلام": ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾(النحل:١٠٢). كما يطلق الله مصطلح "الروح" على القرآن نفسه، ليتم الله به بناء الإيمان ومعمار اليقين في الأرض، ويمنح به المؤمنين نور البصيرة الهادي إلى الصراط المستقيم. ولم يكن محمد ﷺ قبل هذا القرآن على دراية بأيّ كتاب، ولا بشيء من معاني الإيمان: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢).

فالروح مصطلح جامع ذو إشعاعات ربانية تضيء جوانب الحياة، بل وتنشئ الحياة، وتحفظ الحياة بعيدا عن اليأس، وتعطي للمؤمن طاقة فعالة وإرادة إيجابية تجعله سريع الاستجابة لأوامر الله، قويّ الإرادة، يملك نفسه وهواه ويطوعهما لأوامر الله ولإشعاعات الروح، ولا تتملكه نفسه أو يتحكم فيه هواه.

والروح نِعْمَ القائد للعقل حتى لا يعبد نفسه، ونِعْمَ الحامي للعلم حتى لا تودي به سلبياته. وذلك عندما ينقلب العقل وثنا، ويصبح العلم هدما، وينهار المعمار البشري من افتراس العقل للإيمان ومن عبثية استخدامه

العلم وغياب الروح المحددة للفواصل الواضحة بين الحق والباطل. وعندما يمضي الإنسان شبه أعمى في طريقه إلى الانهيار.

لقد أقام الرسول ﷺ دولة الهجرة في المدينة على قاعدة الروح من الإيمان، ومع ذلك أطلق عليها بعض العلماء المسلمين "دولة الفكرة". وقارنوا بينها وبين دولة العقد الاجتماعي التي تخيلها "جان جاك روسو". والفرق كبير بين الدولتين؛ فالدولة الإسلامية عقد رباني وإنساني تمتزج فيه روح الوحي مع قوانين الدولة. وصحيح أن الدولة الإسلامية الأولى تضمنت عقدا اجتماعيا تمثل في "المؤاخاة" بين المسلمين، والصحيفة التي تحكم الوشائج وفاعلية القانون بين المسلمين وغير المسلمين من مواطن المدينة. لكن لا يجوز لنا أن ننسى أن الدستور الحاكم بهذه الدولة بكل شرائحها "القرآن"، وأن قائدها كان هو رسول الله محمد ﷺ، وأن العقد الذي ظهر فيها لم يتم كما قام عقد "روسو" لإقامة التوازن بين الحكام والمحكومين بعد أن طغى الحكام. فكانت نظرية العقد الاجتماعي مجرد ردّ فعل بشري مجردٍ من كل معاني الروح، وكانت أهدافه سياسية وقانونية ومصلحية بحتة. أما مجتمع المدينة فهو مجتمع التكافل الاجتماعي الذي يسمو على القانون. وكان مجتمع الحب والتراحم والعدل بين الجميع.

وعندما درس بعضهم نظرية "روح القوانين" (نظرية فصل السلطات) لـ"مونتسكيو"، ظنوا أنها إطار كفيل بإيجاد روح إيجابية فاعلة منطلقة من الروح الموروثة التي صنعتها تجربة الأمة ومسيرتها التاريخية. وهنا نلحظ أن "الروح" قد انبثقت من تجارب تاريخية بكل ما يمكن أن تكون قد حملتها من رواسب وتناقضات/مناقضات، وأن هيمنة روح المجتمعات يمكن أن يسيء إلى الوعي الفردي. بينما في دولة الفكرة والعقيدة أو

"الأمة الوسط الشهيدة على الناس" تحكم الثوابت الربانية. فثمة التوازن بين روح الفرد والمجتمع، وثمة الثوابت العليا المتحدة من الروح التي كوّنها الإيمان، إلى جانب التجارب التي يمكن أن تغربَل وتصفّى في ضوء الثوابت والمقاصد الشرعية.

وثمة شاهد قوي يستدل به المؤرخون على فعالية الروح الإسلامية في المدينة حين يقارنون بين هذا المشهد نفسه في موقفين مختلفين حين حاولت الولايات المتحدة الأمريكية تطبيقه في بداية القرن العشرين.

ففي المدينة المنورة نزل الوحي متدرجا في تحريم الخمر. فلما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾(المائدة:٩٠-٩١)، سرعان ما استجاب الصحابة المشحونون بالروح الإيمانية فقالوا "انتهينا يا رب"، وألقوا بكل ما عندهم من الخمور حتى سالت بها طرقات المدينة.

أما تجربة أمريكا في تحريم الخمور في مطلع القرن العشرين حين أنفقت في منعها عدة مليارات من الدولارات وتحركت جيوشها الإعلامية والطبية لكشف أضرار الخمور، بل وغيّرت الدستور فنصّت على تحريم الخمر. ومع ذلك فشلت فشلا ساحقا ووقعت مقاومة شعبية كبيرة، واضطرت أمريكا لإعادة إباحتها وإلغاء تحريمها من الدستور. والفرق بين المشهدين واضح، فهو يتجلى في وجود الروح الإيمانية والإرادة القوية في مشهد المدينة، وغياب كل ذلك في الموقف الأمريكي.

وقد كنت أشعر بنوع من الهروب عندما يكتفي بعضهم بالمقارنة بين

موقف الصحابة المؤمنين كل الإيمان، وموقف الأمريكان العلمانيين أو مذبذبي الإيمان؛ وكنت أرى أنه من الضروري المقارنة بين موقف المسلمين أنفسهم في حقبتين تاريخيتين مختلفتين مع أنهم جميعا كمسلمين يؤمنون بأركان الإيمان الستة وأركان الإسلام الخمسة ويصلون ويحجون ويعتمرون. ومع ذلك فإن مسلمي عصرنا هؤلاء مع إسلامهم الخامد الروح الفاقد الإرادة قد يشربون الدخان والشيشة بعد الفطور في رمضان، وبعد الخروج من الصلاة في الحرم والمسجد النبوي، مع كل ما عرفوه عن تحريم الدخان، وأضراره الطبية والاقتصادية على الأفراد والمجتمعات.

لقد كان الفيلسوف والمهندس الجزائري "مالك بن نبي" رائعا في استفادته من مؤرخنا العظيم عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ) حين أبرز ابن خلدون دور النبوّة في صناعة الإنسان المؤمن الإيجابي. فلا حضارة بدون عقيدة، وبدون إنسان فطري بسيط كعمر بن الخطاب ﵁، ذلك المؤمن الحق الذي كان ينام تحت شجرة في الطريق وهو أمير المؤمنين. ومن هذا الإنسان يأتي دور الازدهار العمراني الذي تنذر مرحلةُ ازدهاره البالغة حدَّ الترف والدعة في الحياة بالدخول في مرحلة الانهيار.

فعلى هدي ابن خلدون كتب مالك بن نبي عناصر الحضارة الثلاثة المحقِّقة لشروط النهضة، وهي: الإنسان أولا، والزمان ثانيا، والتراب ثالثا، وتأتي العقيدة قبل ذلك ومعه كجامع مازج لهذا المركّب، حتى تصل به إلى بناء الفرد القادر على الإقلاع الحضاري وصناعة الحضارة.

إنها الروح أولا وإنه العقل ثانيا، وبالروح والعقل معا ينطلق قطار الحضارة الإسلامية فوق قضبان التاريخ، شريطة أن تكون الروح أولاً.



الهجرة... مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة[٦١٧]

عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قلبه تراب مكة ولا الكعبة الرابضة في قلب مكة، ولقد أعلن ﷺ ذلك بعبارة صحيحة عندما التفت إلى مكة وهو يودعها قائلاً: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك» (رواه الترمذي)

وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قريشًا ولا بني هاشم، فلقد كان يحب الجميع ويتمنى لهم الهداية والخير، كما أنه -وهو الوفي- لم ينس لبني هاشم -مُسلمهم وكافرهم- مواقفهم معه عندما قادَتهم عصبية الرحم فحموه من كل القبائل، ودخلوا معه شعب أبي طالب يقاسون معه ومع المسلمين الجوع والفاقة، ولا يَمنّون عليه بذلك، مع أنهم على غير دينه، لكنه الولاء للأرحام.

هاجر ﷺ ولكنه لم يهجر

فالرسول المهاجر ﷺ لم يهجر كل ذلك بل حمله معه في قلبه، يحنّ إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه إلى مراتع الصبا، وإلى الرحم الذي وقف معه حتّى قال قائلهم وسيدهم أبو طالب: "اذهب يا ابن أخي! فقل ما شئت، فوالله لن أسلمك أبدًا"، مع أنه لم يكن على دينه.

---

[٦١٧] مجلة حراء، العدد:٥ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٦).

وإنما كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة هجرًا للوثنية المسيطرة التي لا يريد أصحابها أن يتعاملوا بمنطق الدين أو منطق العقل أو منطق الأخلاق. فهذه وثنية يجب أن تهجر وأن يهاجر من مناطق نفوذها وإشعاعاتها.

وإنما هاجر الرسول ﷺ وهجر -إلى جانب الوثنية المسيطرة- تلك العصبية المستعلية التي تعرف منطق القوة، ولا تعرف منطق الحق، وليس في وعيها ولا في قاموسها أن تهادن الإيمان، وأن تترك مساحة للتفاهم والحوار، وبالتالي تصبح الحياة معها -بعقيدة إيمانية بعيدة عن إشعاعاتها- أمرًا مستحيلاً.

إننا نريد أن يفهم مضمون الهجرة الإسلامية كما ينبغي أن يفهم، وأن تكون هجرة الرسول ﷺ هي المرجعية لهذا الفهم.

فقد بُعث محمد ﷺ "رحمة للعالمين"، فكيف تكون إذن رحمته بالقوم الذين انتسب إليهم، أو بالقوم الذين عاش معهم، أو بالأرض الطاهرة التي نشأ فيها، وتربّى في بطاحها وتنسم عبيرها، وشاهد جموع الزاحفين إلى أرضها الطاهرة من كل فجّ عميق؟!

إن رحمته -بالضرورة هنا- لا بد أن تكون أكبر من أي رحمة أخرى... ولهذا نراه ﷺ يرفض دائمًا أن يدعو على أهل مكة، وحتى وهو في هذه اللحظة البالغة الصعوبة، عندما وقع في حفرة حفروها له في موقعة أحد، وتناوشته سهامهم من كل مكان، وسالت دماؤه الطاهرة على جبل أحد الذي كان يتبادل الرسول ﷺ الحب معه، لأن بعض قطرات دمائه الزكية قد اختلطت بتراب أُحد الطاهر، فأصبحا حبيبَين... حتى في هذه اللحظة البالغة الصعوبة لم يستطع لسانه الزكي، ولا قلبه التقيّ أن يدعو عليهم، ولا أن يشكوهم إلى الله، وإنما كان يردد على مسمع من الناس جميعًا: «اللهم

اهد قومي فإنهم لا يعلمون» (متفق عليه). وعندما كان يرى تمادي قريش في الحرب كان يتأسف عليهم ويقول: «يا وَيحَ قريشٍ لقد أكلَتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر الناس» (رواه الإمام أحمد في مسنده).

وكم راودته الجبال الشم -بأمر من الله- أن تطبق عليهم، فكان يرفض ويقول: «أَرْجُو أَن يُخرج اللهُ مِن أَصلابهم مَن يَعبد اللهَ وحده لا يُشرك به شيئا» (متفق عليه). وعندما جاءته فرصة السلام معهم أصرّ عليها، مع تعنّتهم في الشروط تعنّتًا أغضب أصحابه رضي الله عنهم، لكنه كان يريد لهم الحياة، وألا تستمر الحرب في أكلهم، وألا يبقوا -وهم قومه وشركاؤه في الوطن- مستمرين في تأليب القبائل عليه لدرجة أنهم أصبحوا العقبة الكأداء في طريق الإسلام؛ مما يفرض عليه بأمر الله الجهاد لإزالة هذه العقبة، ونجح الرسول في إزالة عقبتهم بقبول شروطهم المجحفة، حبًّا لهم، وحفاظًا على بقائهم، وأيضًا لإفساح الطريق أمام دين الله.

أما حين دخل ﷺ مكة فاتحا فقد حافظ بكل قوة على كرامتهم ودمائهم، ولم يقبل مجرد كلمة خرجت من فم سعد بن عباد رضي الله عنه -أحد الصحابة والقادة الأجلاء- وذلك عندما قال: "اليوم يوم الملحمة" فنزع الراية منه، وأعطاها لابنه قيس وقال "لا، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعزّ الله قريشًا"(٦١٨).

وعندما استسلمت مكة كلها تمامًا، وقف أهل مكة ينتظرون حكمه فيهم مستحضرين تاريخهم الظالم معه، لكنهم سرعان ما تذكروا أنه الرؤوف الرحيم الطاهر البريء من رغبات الانتقام أو المعاملة بالمثل.

(٦١٨) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، ٥٩٧/٢.

فلما سألهم: "ما تظنون أني فاعل بكم"، قالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم"، فرد عليهم قائلاً: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾(يوسف: ٩٢)، وهي كلمة نبي الله يوسف عليه السلام التي قالها لإخوته، ومنها ندرك أنه اعتبرهم جميعًا إخوته، كأنهم إخوة يوسف عليه السلام، ثم أعلن العفو العام بتلك الجملة الخالدة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى"[٦١٩]. فكأنه أنقذهم من الموت الزؤام عليه الصلاة والسلام.

دعوة لمهاجري العصر الحاضر

ونقول للمهاجرين من أبناء عصرنا لظروف مختلفة إلى أي بلد من بلدان العالم: هذه هي هجرة رسول الله ﷺ بين أيديكم، وهي كتاب مفتوح، فأمعنوا القراءة فيه لتدركوا منه أن هجرتكم من بلادكم -لأي سبب من الأسباب- لا تعني القطيعة مع أرض الوطن، ولا مع الأهل والعشيرة، ولا مع المسلمين في أي مكان، مهما تكن الخلافات الظرفية الطارئه معهم؛ بل يجب أن تبقى الصلة قائمة بينكم وبين الأهل والقوم، تمدونهم بأسباب الحفاظ على الدين من مواقعكم، لكي يثبتوا ويمتدوا بإشعاعات الإيمان إلى أكبر مدى ممكن، لاسيما ووسائل التواصل الآن في أقوى مستوى عرفته البشرية، وبالتالي تكونون قد وصلتم الرحم، وجمعتم بين الثلاثية المتكاملة التي تمثل بأركانها الثلاثة وحدة لا تنفصم، وإلا فقدت الأمة "مكانة الخيرية" التي رفعها الله إليها عندما قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران:١١٠) إنها ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد.

---

[٦١٩] سنن البيهقي الكبرى، الإمام البيهقي، ١١٨/٩.

أجل! في عصرنا هذا يجب أن يعود معنى الهجرة إلى منبعه النبوي، فليست الهجرة هجرًا للوطن، وقطيعة تاريخية أو معرفية معه، بل هي هجرة موصولة بالماضي، تعمل على تعميق الإيمان فيه، وتبني قلاعًا للإيمان في المهجر الجديد، وتصل بين الماضي والحاضر والمستقبل انطلاقًا من درس الهجرة النبوية.

التواصل مع ماضي المهاجر مطلوب

إن الحرية التي تريد أن تتمتع بها في مهجرك، والثروة التي تريد أن تكوّنها، وحتى الدعوة التي تريد أن تبلّغها -إن كنت ممن اصطفاهم الله للدعوة والبلاغ-... كل هذه تدفعك إلى التواصل مع الماضي من جانب؛ وتدفعك إلى بناء حدائق للإيمان يفوح عطرها في وضعك الجديد، وبلدك الجديد، من جانب آخر.

ليكن معنى الهجرة واضحًا في وَعيك، فهي ليست هجرة من أرض ولا أهل إلى أرض وأهل آخرين، بل هي هجرة من قيم ضيّقة ضاغطة تكبل حركة الإيمان، وتفتعل الصدام المستمر، وترفض الحوار بين الأفكار والعقائد، إلى قيم أخرى تسمح لأشجار الإيمان أن تنمو، وتسمح بالتفاعل والتحاور، ومواجهة الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، وتكون مؤهلة لأن تسمح لأهل الإيمان والحق أن يعيشوا كما يريدون، وأن يبنوا قلاع الإيمان في النفوس عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

إن الهجرة النبوية الإسلامية هجرة يقصد بها كسر القيود التي تفرض على الإيمان، وفتح نوافذ أخرى في أرض جديدة. وليست الهجرة

الإسلامية أبدًا من تلك الهجرات التي تعني زحفًا على البلاد على حساب أهلها، أو لتحقيق الثروة ثم الخروج بها، أو للاعتماد عليها لقهر أصحاب البلاد الأصليين، وجعلهم مجرد منفذين وأدوات لمشروعاتِ وطموحاتِ المهاجرين إليهم.

فالهجرة الإسلامية اليوم -إلى أيّ بلد في العالم- يجب أن تكون هجرة تسعى إلى التواصل والتعارف والتحاور والحب؛ بحيث يشعر كل الناس أنّ الأفراد المسلمين أو المجموعات الإسلامية التي تعيش بينهم إنما تمثل روحًا جديدة، تبني ولا تهدم، وتزرع الخير، و تقاوم الشر، ولا تعرف التفرقة في ذلك بين المسلم وغير المسلم، والوطني، والوافد، والأبيض والأسود.

وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا رأى الناس في المسلم المهاجر إليهم -من خلال أقواله وأفعاله، وإسهاماته الخدميّة، وآفاقه المعرفية، وعبوديته لله- شخصية متميزة جادة تفعل ما تقول، وتعيش معهم حياتهم اليومية، وآمالهم، وآلامهم، يفيض منه الخير والنور، تلقائيًّا وعفويًّا، كأنه بعض ذاته، وكأنه مرآة قيمه، وصدى أخلاقه، وأثر منهجه في الحياة.

وهنا يتساءل الناس من غير المسلمين: من أين لهذا المهاجر كل هذا الخير والنور؟ من أين له هذه الإنسانية المتدفقة؟ ومن أين له هذه الرحمة التي تعم الإنسان كل إنسان، بل والحيوان والنبات أيضًا؟!. فسيصلون حتمًا إلى الإجابة الصحيحة، وهي أن هذا الإنسان يرتشف من نبع الأنبياء، ويستمد وعيه الحضاري ومشروعه الإنساني الرحيم من نبيّه وإمامه، وإمام المسلمين الأعظم، بل وإمام الإنسانية محمد ﷺ.

فقد كانت هجرته المباركه روحًا جديدة، عبّر عنها من الصحابه الكرام

أنس بن مالك ﷺ في قولته المعروفة التي ذكر فيها أنه عندما دخل الرسول ﷺ المدينة بعد نجاح هجرته: "أضاء منها كل شيء، وعندما مات ﷺ أظلم فيها كل شيء". وهذا على العكس من مكة التي تسلل منها المسلمون هاربين بدينهم، فأظلم فيها كل شيء، ولم يبق فيها إلا الطغيان، والنزوع إلى الحرب. فلما فتَحها الرسول ﷺ انبعث فيها النور، وأضاءت الكعبة، وجاء الحق وزهق الباطل، وأصبحت مكة قلعة الإسلام الأولى.

إن هذا المعنى للهجرة يجب أن يبقى فوق كل العصور؛ لأنه اتصل بنبيّ الرحمة في كل العصور وكل الأمكنة، وأصبح -بالتالي- صالحًا لكل زمان ومكان، صلاحية كل حقائق الإسلام الثابتة.

ولئن كنا نؤمن بأنه «لاَ هجرةَ بعد الفَتح»(متفق عليه) كما قال الرسول ﷺ، فإننا يجب أن نؤمن في الوقت نفسه ببقية الحديث، وهو قول الرسول: «ولكن جهاد ونية»، وهذا يعني أن الهجرة بعد مرحلة الهجرة الأولى قد أخذت بُعدًا اصطلاحيًّا جديدًا. ففي البُعد الأول كانت الهجرة مرتبطة بمكان هو المدينة، ولكنها بعد ذلك أصبحت مطلقة من المكان، فهي إلى أي مكان شريطة أن يكون "الجهاد والنية" هما الهدفين المغروسين في النفس. فهما -أي الجهاد والنية- قد انفصلا عن قيد وحدة المهجر (المدينة) الذي كان في صدر الدعوة، وأصبحا صالحين في كل العالم يمشيان مع رجال الدعوة والبلاغ، ويضمنان سلامة الأعمال وارتفاعها على المنافع الاقتصادية أو الظروف السياسية.

الهجرة والتكافل الإيماني

وعندما يستقّر هذا المعنى في النفس نستطيع أن نطمئن إلى أن أبطال الدعوة والبلاغ سينشئون في كل مكان يحلّون فيه حديقة جديدة للإيمان، وتاريخًا جديدًا يبدأ كأشعّة الشمس في الصباح، ثم ينساب عبر كل زمان منطلقا إلى مساحة جديدة في الأرض.

وعلى المسلمين إذن -عندما يكونون في أرض المهجر- أن يسارعوا إلى الالتحام ببعضهم، وتكوين مجتمع إيماني يقوم على "المؤاخاة" التي ترتفع فوق الأخوّة، وهي مستوى خاص فوق أخوّة الإيمان التي هي مستوى عام، وأن يتكافلوا مع بعضهم تكافلاً ماديًّا ومعنويًّا، تحقيقًا لقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(المائدة: ٢) وقوله أيضًا ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر: ٣).

والتكافل "المادي" يعني التعاون على ضمان الحد الأدنى المطلوب للحياة لكل أخ مسلم، طعامًا أو شرابًا أو علاجًا أو تعليمًا أو كساءً. والتكافل "المعنوي" هو التعاون على ضمان التزام "الأخوة" في الإسلام بأداء "الفرائض" والبعد عن "المآثم"، وتفعيل وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار البيئة التي يعيشون فيها وبالأساليب المناسبة لها. وعليهم أيضًا أن يبنوا "مسجدًا" يضم الرجال والنساء والأطفال، مهما يكن مستواه متواضعًا. فقد حذّرنا الرسول من وجود عدد -مهما يكن قليلاً- من المسلمين لا تقام الجماعة فيهم، كما أن "المسجد" سيكون محور لقاءاتهم وتعارفهم وتكافلهم المادي والمعنوي. ومن المسجد ينطلقون إلى صور من التكامل فيما بينهم تأخذ طابعًا علميًّا ومؤسساتيًّا يجعل لهم قيمة وتأثيرا وإشعاعًا في مهجرهم الجديد.

لقد أخبرنا الرسول ﷺ أن مما فضل به على بقية الأنبياء أن الأرض جعلت له مسجدًا. وقد حقق المسلمون السابقون العظماء "مسجدية الأرض" في كل الأرض التي هاجروا إليها، فهل يمكننا أن نستأنف المسيرة ونحذوا حذوهم.

فلعل الأرض تتخلص من الغيوم السوداء المتلبّدة وتعود مسجدًا طهورًا. ولعل الله يجري على أيدينا وأيدي المستخلفين من بعدنا نهرًا جديدًا للإيمان، وتاريخًا جديدًا تتعانق فيه راية الوحي مع العلم، والحق مع القوة، ويسود العدل الشامل والرحمة المحمدية العالمية كل الكون...

وما ذلك على الله بعزيز!



حضارتنا الإسلامية...
من المرض إلى النهضة[٦٢٠]

في بعض ظروف الخلل لا نريد الذهاب إلى الطبيب المختص النطاسي، ونذهب إلى أطباء، نعرف بحواسنا ومشاعرنا أنهم يستوردون الأمراض التي ليست من أمراض بيئتنا، ويصفون أدْويَة لأمراض غير موجودة. إنهم يفرضون علينا المرض، ثم يصفون الدواء المستورد. أما أمراضنا الحقيقية فهم أبعد الناس عن التعرف عليها وعلاجها.

وإنما مرضنا في هذا الجانب هو "الفقر العام" الذي مبعثه "الفقر العقلي" والجمود الحضاري الذي يجعلنا نترك الملايين من الأفدنة الخصبة الصالحة للزارعة في بلادنا؛ بينما يُصلِح غيرنا الأرض الصحراوية. ثم نشكو قلة المحاصيل ونستوردها من بلاد أقل منا في الإمكانيات الزراعية بكثير، لكنهم أغنى منّا عقلا ووعيا وتخطيطا وإرادة.

وإنما أمراضنا في حقيقتها أمراض نبعت من انحرافات في فترة حضارتنا، وصلت بنا إلى انحطاط فكري، وتخلف، وخمول، ومضاعفات أخرى؛ تراكمت في ظل انفكاك ارتباطنا بديننا بشموله وانسجامه وصفائه وإيجابيته.

---

[٦٢٠] مجلة حراء، العدد:٩ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٧).

بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة

ونبدأ الآن في الإلماع إلى بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة بإذن الله.

فالخطوة الأولى في عملية العودة إلى قطار الحضارة الإسلامية تنحصر في شرطين متكاملين:

١-أن تتهيأ النفس المسلمة لتلقي الإسلام

٢-أن يعرض الإسلام كما هو من القرآن والسنة، لا من ضغوط الواقع المريض وبدون أن نلجأ إلى علم النفس الفردي، أو علم النفس الاجتماعي؛ فإننا نميل إلى أنه من الصعب التفرقة بين الإنسان كفرد والإنسان كعضو في المجتمع؛ وبالتالي فإن ما نريد تقديمه من علاج لا بد أن يلاحظ التيارات المزاحمة، أي إنه بينما يحاول تهيئة النفس لتلقي الإسلام الصحيح، فإن عليه أن يلاحظ أن عمله هذا يتعرض كل يوم لضغوط معاكسة، وما لم يعدّ لهذا التزاحم عناصر مقاومة فإنه لن يصل إلى تقدم في العلاج.

كما أن تفريغ النفس مما ورثته في حضارتها وطفولتها من مفاهيم، لن يتم إلا بوضع البديل الذي يطرد القديم. فالنفس لا تعرف "الخلاء المطلق"، وحبذا أن نركز على الجيل الجديد الذي قد يسهُل تقديم التصورات الصحيحة له عن طريق تقديم "ثقافة إسلامية" تنقل له الإسلام كما هو.

وإذا كان القرآن يقول لنا: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)، فمن الواضح أن تغيير ما بالنفس لن يتم إلا عن تغيير ما بالفكر، وبالتالي فالثقافة الإسلامية الصحيحة بمجالاتها في التوجيه،

والتربية، والأخلاق، وغرس النزعة الجمالية، والسلوك المنسق البناء... الخ. هي الخطوة الأولى لإيجاد "إنسان الحضارة الإسلامية" القادر على النهوض بها في دورة جديدة للتاريخ.

إن حضارتنا تقبل -بطبيعتها- أي انفتاح أو "عصرية" عقلانية في مجال الدراسات الطبيعية والكونية. وهي واثقة أن علماء الطبيعة وغيرهم لو التزموا المنهج الموضوعي، فلن يصلوا -ولم يصلوا حتى الآن مع أنهم في القمة- إلى شيء من معطيات هذه العلوم تستطيع أن تهز أسسها الفكرية.

وبالتالي، فهي ترى ضرورة الجمع بين "الثابت" (الأصالة)، و"المتغير" (نتاج الفكر). وترى أن ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة هو هذا "الثابت" الذي تبنى فوقه الطوابق "المتغيرة".. ولا تعارض بين الثابت المتصل بالفطرة الممنوح ممن خلق الخلق، ويعلم جوهرهم، وبين المتغير المحض من اجتهاد العقل البشري الذي يتطور عاما بعد عام وقد يُرفض في جيل ما أثبتته أجيال كثيرة سابقة.

إن "الأصالة" شرط أساسي من شروط بقاء هويتنا وكياننا الداخلي في عالم يعج بألوان الصراع الحضاري. كما أننا في حاجة إلى "العصرية" لكي نستطيع الحياة مع أبناء هذا العصر، وبهما معا، وممتزجين، نستطيع أن نسير في موكب التاريخ.

إن الاعتماد على ما تقدمه الأصالة وحدها، إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الماضي، كما أن الاعتماد على التجارب المعاصرة إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الخارج. وكلا النوعين من الاستيراد لن يكون مطابقا لما تحتاجه ذاتنا وظروفنا بكل أبعادها وأجزائها وتحدياتها.

وبالتالي فإن استئناف حضارتنا الإسلامية في القرن الحادي والعشرين (الخامس عشر للهجرة) يقتضي أن ننطلق من فكر إسلامي أصيل؛ يعي جذوره الحضارية، ويعي التحديات التي يواجهها، والواقع الذي يعيشه؛ ليعبر عن الشخصية المسلمة، وعن غاياتها وأهدافها في الحضارة والتاريخ بكافة أعماقها وشمولها.[٦٢١] وهو عمل لا يصنعه فرد واحد؛ لأنه لا بد أن يكون شاملا للجوانب الاجتماعية كلها سياسية واقتصادية وأخلاقية، بل هو مهمة المؤسسات العلمية والإعلامية والمفكرين الإسلاميين والحكام؛ بل وكل مهتم بقضية مستقبل هذه الأمة، ودورها الحضاري في التاريخ.

لقد واجه الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب ﵁ حضارتين انفتحتا على الدولة الإسلامية وقدّمتا من التصورات والمشكلات والأوضاع والضغوط، ما كان كافيًا لأن يهز قواعد الدولة الإسلامية الناشئة من أساسها. لكن عبقرية عمر ﵁، وعبقرية الجيل الإسلامي الأول، وشعوره، وإيمانه بتفوق مبادئه، ووعيه بدور الأصالة في تكييف المعاصرة، وضمان السيطرة عليها لا الذوبان فيها..الخ. هذا كله كان له أكبر الفضل في أن يستطيع عمر بن الخطاب ﵁ وجيله الراشدي تحقيق الانتصار الحضاري أيضا -بعد العسكري- على الحضارات الجديدة، ونجح المجتمع المسلم في الإفادة من إيجابياتها، ونفي سلبياتها، وتم صهر هاتين الحضارتين في الوعاء الإسلامي، وأصبحتا جزءً من الحضارة الإسلامية.

وما فعلته الحضارة الإسلامية في موقفها من الرومان والفرس فعلته

---

[٦٢١] د. عبد الحميد أبو سليمان، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض ١٩٧٩م.

أوروبا في أخذها من الحضارة الإسلامية حين قطعت الجذور الإسلامية لما اقتبسته.

ولا يتردد مفكر كبير كـ"أرنولد توينبي" خلال أبحاثه الحضارية في الربط بين الحضارة الأوربية والكنسية الكاثوليكية. وفي رأيه أن الحضارة عموما تنشأ عن الأديان، أي من "الشرارة الإلهية الخلاّقة".

فلماذا لا ننطلق من ديننا وأصالتنا حاملين القرآن والعربية في يد، وكل ما نستطيع الوصول إليه من إبداع علمي وفني في اليد الأخرى؟!

إن العالم المتحضر يقوده خلاصة صفوته المثقفة، وإن هذه الصفوة لتشكل مؤسسات تستغل كل معطيات العقل الحديث، وتتمتع -كقيادة حضارية- بكل الإمكانات الاجتماعية التي تمكنها من أداء دورها.

وقد فطنت "اليابان" -بعد أن دمرت في الحرب العالمية الثانية- إلى أهمية هذا الأساس في بناء الأمم، فأعطت للمدرسين مرتبات وُكلاء الوِزارة وصلاحيات وُكلاء النيابة، ووفّرت لهم كل إمكانيات البناء. أما طبقة "العلماء" أو "التكنوقراطيّين" فهي تتمتع في العالم المتقدم كله بما كانت تتمتع به أيّ صفوة ممتازة في الحضارة السابقة. ولذا، فليس عجبًا أن عادت اليابان خلال أقل من ربع قرن لتشارك في قيادة العالم، بعد أن كانت قد دمرت تدميرًا شبه كامل بأسلحة ذرّية.

إن الطبقات التي تقود الفكر والأخلاق يجب أن "تستشار" على الأقل، بطريقة مدروسة ودائمة وبشكل قانوني في خطوات الطريق الحضاري للأمة المسلمة، على أن تكون هذه الطبقات موثوقا في انتمائها لعقيدة الأمة وتراثها، وعلى أن تكون من أهل الكفاية والدين لا من أهل الثقة والدنيا.

ومن خلال الخطين المتكاملين -لا المتوازيين- أي خط القيادة الحضارية المتمثلة في الصفوة المختارة، وخط الرعية المسؤولة أيضًا قَدْر حجمها «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (متفق عليه). من خلال هذين الخطين المتكاملين تتحرك الأمة كلها في سلّم الحضارة بانسجام وتآزر.

"ولا ريب أن أعباء ومسؤولياتِ التوجيهِ والابتكارِ والنظر إلى المستقبل، والتطلع إلى الأعلى، تُلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة. وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء مرهقا، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة.. بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية، ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والتصعيد". "وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحةُ الأفق، مدركةٌ لحركة التطور، عارفة بطبيعة عصرها، وبأساليب الحياة المستجدّة. وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها، أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفسد، أو يقع الشقاق بين أفرادها؛ فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة"[٦٢٢].

فالنخبة في ظل القاعدة البشرية التي تتجاوب معها، تستطيع أن تترجم تطلعات الأمة إلى واقع ملموس، كما أن القاعدة الواعية تستطيع أن تحاسب النخبة الراشدة، وتعصمها من أمراض الزعامة وانحرافاتها. وبالتالي تتبادل النخبة والقاعدة التأثير والتأثر، وتمضي سفينة الأمة متخطيةً العواصف والتقلبات بفضل تماسكها التام ووعيها الحضاري الكامل.

---

[٦٢٢] محمد على طنطاوي: (الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل)، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض، سنة ١٣٩٩هـ.

الدور العالمي

لن يستطيع المسلمون الخروج من مشكلاتهم الصغيرة والجزئية والمبعثرة في أكثر أركان فكرهم وحياتهم إلا بالإصرار على رفض التمزق الداخلي، والانهيار النفسي الذي تُحدثه هذه المشكلات. ولن يتم لهم ذلك إلا بالإحساس بمسؤولية كونية وعالمية ليس تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم فحسب؛ بل تجاه الإنسانية كلها. وهذا ما تحدده لنا الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣). وكما يقول المفكر الهندي المسلم "وحيد الدين خان": "فإنه لم يوجد عصر من العصور تفتحت فيه آفاق العمل لرسالة الإسلام العالمية مثل القرن العشرين، بفضل النتائج الدنيوية لثورة الإسلام التوحيدية".

فهناك كل أنواع التأييد للفكر الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة، تقدمها العلوم الإنسانية التي تندرج تحتها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والتشريع، كما أن ما اكتشف من حقائق الكون قد دحض بعض الأساطير التي قدمتها الأديان الأخرى، وأكّدت -في الوقت نفسه- أحقِّيّة الدين الوحيد الجدير بهذه التسمية، وهو الإسلام.

ومما قدمه العصر من وسائل العون للدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية:[٦٢٣].

١-شيوع حرية الرأي والبحث.

٢-شيوع تدبر ظواهر الكون وتسخيرها.

٣-شيوع المنهج العلمي والفكر التاريخي الذي قضى على الأسطورة

---

(٦٢٣) انظر بتصرف رسالة "إمكانات جديدة للدعوة" نشر القاهرة.

والفكر الخرافي.

٤-توفر الوسائل الإعلامية كأجهزة الإعلام السمعية والمرئية والمطبعة.

وثمة جانب آخر خطر يساعد تحول المسلم إلى رسول حضارة إنسانية في هذا العصر بحيث ينظر إليه على أنه المنقذ من خطر الفناء الإنساني الشامل. وهذا الجانب يتمثل في الأوضاع التي انتهت إليها الحضارة الأوربية التي توشك أن تقضي على إنسانية الإنسان ومستقبله.

الأفول الحضاري

في ظل هذه الحضارة "لا ندري إلى أين نحن سائرون.. ولكننا نسير" كما عبّر الشاعر الأمريكي "بينيه"... أما "رينيه دوبو" فيعبر عن هذا الانهيار في كتابه "إنسانية الإنسان"، ويصف الحضارة الأوربية في كلمات قليلة: "كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدينة ناجحة عمّتْها أجهزةٌ منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية تضطرب بسرعة وعمقٍ الآنَ بسبب الحياة العصرية التي نحياها. والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة، بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسها".

وعن "دوبو" ننقل كلمة رئيس بلدية "كليفند" متهكما: "إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبته في الأوحال والقاذورات".

ولن نستطيع تتبع ما قاله كل المشخّصين لحضارة أوربا من أبنائها، وذلك كـ "ألكسيس كاريل" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول"، أو "أرنولد توينبي" في دراسته للتاريخ، أو "اشبنجلر" في كتابه "عن أقوال الغرب"، أو

روجيه جارودي في كتابه "حوار الحضارات"، أو "كونستاتنان جورجيو" في قصته "الساعة الخامسة والعشرون"، وهي الساعة التي يرمز بها "جورجيو" إلى أفول الحضارة الأوربية وانهيارها، واكتساح حضارة جديدة قادمة من الشرق: "حيث يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي، وسيستعمل النور الكهربائي لإضاءة الشوارع والبيوت؛ لكنه لن يبلغ به مرتبة الرقيق، ولن يُرفع له معابد وصوامع كما هو الحال في بربرية المجتمع الآلي الغربي. إنه لن يضيء بنور "النيون" خطوط القلب والفكر. إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيدًا للآلات والمجتمع الآلي".

إن الفكر الإنساني المتحرر المستوعب لأزمة الحضارة المادية التي تكاد تخنق إنسانية الإنسان، وتدمر الجنس البشري.. هذا الفكر الإنساني سيجد في الصياغة الإسلامية للحضارة المحضن والملاذ والملجأ؛ لكن المهم أن يدرك المسلمون دورهم، ويخططوا له ويستغلوا الإمكانات المتاحة للدعوة في هذا العصر. ويتقدموا بقلبٍ واثق مؤمن، وعقل قوي منفتح إلى الساحة التي تناديهم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(الروم:٤-٥).



أزمة الذات المسلمة وضياع الإحساس بالسنن الكونية[٦٢٤]

بعيدًا عن ذلك الجدل العقيم حول دور "الإنسان الفرد" و"الإنسان المجتمع" في العملية الحضارية، فإننا نؤمن إيمانًا لا يخالجه شك بأنَّ "الإنسان الفرد" هو الأصل الأصيل لكل عملية صناعةِ حضارة في التاريخ، ثم يأتي بعده "الإنسان المجتمع". وبالتالي فإن ما يصيب الإنسان المسلم من أمراض حضارية تؤثر بطريقة جوهرية على المستوى الذي تستطيع به هذه الحضارة أن تستجيب للتحدّيات البيئية أو البشرية.

إن الإنسان -بكل المقاييس- هو أساس العملية الحضارية، وإنّ حضارتنا الإسلامية ليست نشازًا في هذا المجال، بل لعلها من أكثر الحضارات اهتمامًا بدور الإنسان في التاريخ. ولهذا فهي -ابتداء- لا تعفيه من أي مسؤولية تحت أي شعار، كما أنها لا تجعل المسؤولية الجماعية بديلاً عن المسؤولية الفردية، بل ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(المدثر:٣٨)، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(مريم:٩٣-٩٥).

وهذا الإنسان كما هو معروف كائن معقد، مزود من خلال تركيبه العضوي والنفسي والروحي المتكامل بكل الإمكانيات والطاقات التي

---

[٦٢٤] مجلة حراء، العدد:١٩ (أبريل-يونيو ٢٠١٠).

تؤهله للسير في طريق التاريخ الحضاري صعودًا وهبوطًا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾(التين:٤-٥)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).

الذات الإنسانية

ولأن هذا الإنسان في النظرة الإسلامية كائن متكامل في بنائه، وهو ذو طاقات متعددة لكنها متشابكة ومتكاملة، وهو كذلك لا يتحرك إلا بدوافع متعددة توازي طاقاته كلها... لأنه كذلك، فنحن نقترح بأن نطلق عليه اسم "الذات" أو "الذات الإنسانية". هذه "الذات" هي هذا المضمون الكلي أو الكائن المتشابك الذي يضم في أحشائه وبدون تشطير "النفس" و"الجسم" و"العقل" و"الروح".

إن هذه "الذات" هي التي أطلق سراحها في التاريخ بعد أن هبطت من الجنة، وهي بكيانها ذلك قد نيط بها أن تصنع "حضارة" متكاملة مثل تكاملها، متوازنة مثل توازنها، منسجمة مثل انسجامها. ذلك لأنها تصنع حضارة لذاتها.. حضارة إنسانية، وبالتالي فلا بد أن تُشبع عن طريق هذه الحضارة كلَّ طاقاتها.

وفي التاريخ تتابع الأنبياء وكلهم يقدم الحضارة الإنسانية الملائمة المنسجمة مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، مركّزين على الجوانب التي اهتز رصيدها حتى يعود التوازن والانسجام بين كل الجوانب.

وعندما جاء الإسلام سار على الدرب، فكان هو أيضًا ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(الروم:٣٠).

ونجح هذا الدين العظيم في مناهجه التاريخية، فقدم إنسانًا متكاملاً، وقدّم من خلاله حضارة متكاملة أبدعت في شتى الجوانب، روحية أو عقلية أو مادية، والأهم أنه قدم هذه الحضارة المتعددة الجوانب على نسق "توحيدي" يفرض نزعته "التوحيدية" على كل صورة إبداعية من إبداعات هذه الحضارة؛ فنية أو علمية أو روحية.

إن الأصول الروحية والمادية التي قامت عليها هذا الحضارة ظلت ماثلة في كيان المجتمع الإسلامي في إبان عصره الأول والوسيط، ولا تزال ماثلة في عصره الحديث بدرجة متفاوتة، لكنها موجودة وكاملة، على مستوى التنظير على الأقل. وأيضًا -وبنفس المستوى- ظل الإنسان المسلم هو المترجم الحقيقي -في مجال التنظير والتطبيق- لمنهج هذه الحضارة، وظل العمود الفقري الذي تعتمد عليه الحضارة الإسلامية وهي تقوم بدورها في التاريخ.

إن هذا الإنسان المسلم أو بالتعبير الذي أحسن استخدامَه الشاعر المفكر المسلم محمد إقبال: "الذات التي حملت أمانة تجسيد الحضارة الإسلامية في كل جزيئات فكره وسلوكه"، كان حقًّا خليفة الله في الأرض، يحمل إلى البشرية الأمانة التي حملها الإنسان. وكان هذا الإنسان النموذج الحضاري الذي تتحقق فيه الشروط الكاملة للقيام بالدور الحضاري، وهي في رأي محمد إقبال ثمانية شروط:

١- الإرشاد على خطى قيادة ملهَمة (النبوة).

٢- وعلى اعتبار روحي (التوحيد).

٣- وعلى دستور (القرآن).

٤- وعلى مركز محسوس (الحرم).

٥- وعلى هدف واضح تقرّه الجماعة.

٦- وتكون له السيادة على قوى الطبيعة.

٧- وأن تطور ذاته في اتجاه الذات الكلية الجامعة.

٨- وأن يحتفظ للأمومة بحقها (ولعله يقصد دور المرأة عمومًا وذكر الأمومة؛ لأنها أشرف أدوار المرأة).

ومن الضروري لهذه الذات أن تتصادم بالعوامل الخارجية (التحدي) حتى تظهر قوتها وحيويتها وعبقريتها وقدرتها على المقاومة والنمو. وفي قصيدته "دور الإنسان في التاريخ" يبرز "إقبال" هذا الدور الخطير عبر محاورته "الداخلية" التي يحاور فيها الإنسان خالقه وخالق الكون:

أنت خلقت الليل... وأنا صنعت المصباح،

أنت خلقت الصلصال... وأنا صنعت الكوب،

أنت خلقت الصحاري والجبال والغابات...

وأنا صنعت البساتين والحدائق والأرائك...

أنا الذي صنعت المرآة من الحجر...

وأنا الذي حولت السمّ إلى شراب نافع...

هذه هي "الذات المسلمة" التي صنعت الحضارة الإسلامية والتي أدت دور خليفة الله في الأرض.

الهبوط التاريخي

حين أصبح الإسلام "جباية" لا "هداية" سقطت إرادة المسلم الاجتماعية، وحين استأثر "بيت المال" أسرة أو جماعة، سقطت إرادة المسلم الاقتصادية؛ وتنازع المسلمون فيما بينهم، فسقطت عوامل كثيرة

من عوامل شعورهم الواحد... وقبل كل ذلك، كانت الذات المسلمة تفقد أجزاء من ذاتها، فتتفاعل مع عوامل الهدم الخارجية.. وكانت أزمتها الكبرى في داخلها فلم تستطع مقاومة "التحدّيات الجديدة".

وبين الحين والحين كانت تلك الذات المسلمة تثور على عوامل ضعفها، لتعود نقية فتية كما حدث أيام عمر بن عبد العزيز ﵁، وأيام المرابطين والموحدين والسلاجقة، وفي بعض دول الهند الإسلامية، وأيام صلاح الدين، وفي أيام المماليك، ومع كثير من خلفاء آل عثمان، وفي العصر الحديث...

إغفال دور السنة

وكان من أخطر ما وقع من تشقيقٍ وتمزيقٍ في حضارتنا الإسلامية الحديثة، أن دور "السنة" -وهي النموذج الحي الذي قدمه الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريرًا- قد أغفل في العصر الحديث وفي كثير من عصور التدهور.

وبما أنَّ السنة مكمِّلة للقرآن وشارحة له، بل هي الدليل العملي على إمكانية تطبيق مبادئه، والعملُ بها هو عملٌ على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، كما أنّ هدمها هدم للهيكل الذي قام عليه صرح الإسلام.. وبالتالي فإن الذين يقولون بترك السنة يشبهون رجلاً يريد أن يدخل قصرًا، ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلي الذي يستطيع به وحده أن يفتح الباب.

بالإضافة إلى هذا، فإنه في هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الإسلامية، فإن ترك نموذج الرسول ﷺ الذي هو "أسوة" حضارتنا وإمامها؛ إنما يعني التخلي عن حضارتنا الإسلامية، وقبولَ النماذج التي

تقدمها هذه الحضارة الغربية، ولعل هذا ما يسعى إليه المتجرئون على سنة الرسول ﷺ. ولكن إذا كنا نحن مسلمين حقًّا، نعتقد أن نبيّنا أحسن قائد عرفه البشر، وأنه -بطبيعة الحال- كان يعرف أمر الدين بناحيتيه الروحية والاجتماعية؛ فإن علينا أن نلتزم بهذه السنة، ولاسيما وأن مصادرها الصحيحة قد ثبتت بطريقة نقدية تاريخية علمية تفوق أيّ مصادر تاريخية في الأرض. والشك فيها يستوجب الشك في التاريخ البشري كله، بل إن ثبوتها يفوق -أمام مجيء المنهج التاريخي النقدي- ثبوت ما عداها من كتب الأديان الأخرى.

وبصفة عامة، فإن هناك عدة أسباب توجب إقامة السنة في حياتنا، وإحياءها في مجتمعاتنا باعتبارها أقصر طريق لإحياء حضارتنا الإسلامية. وأبرز هذه الأسباب:

• إن السنة تقوم بتمرين المسلم بطريق منظمة على أن يحيا دائمًا في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس، لأن الأعمال والعادات التي تقع عفوًا لساعة تقوم في طريق التقدم الروحي للإنسان، وكأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة.

• إن الرجل الذي جاء بالسنة ليس هاديًا من الهداة وإنما هو وحده "الهادي". فاتباعه اتباع للإسلام عينه، وإطراح سنته إطراح لحقيقة الإسلام.

• إن تطبيق السنة تنفض عنا روح الاستسلام والتبرير في قبول الصياغة الغربية للحياة. وبالتزامنا بها واتخاذنا إياها الكلمة الفصل، نستطيع بسهولة أن نعرف البواعث والآفات التي ترد علينا من المدنية الغربية.

ثم إننا نكون -في ذات الوقت- قد طبقنا القرآن نفسه. ألم يكن خلُقه ﷺ القرآن كما ورد في الأثر، وألم يأمرنا القرآن نفسه بطاعته: ﴿وَمَا آتَاكُمُ

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(الحشر:٧). فهل لدينا الصلاحية لكي نقبل نصف الإسلام ونرفض نصفه الآخر، أو نؤمن ببعض آيات القرآن ونكفر ببعض؟!

المسلم يفقد دوره الكوني

عندما فقد المسلم صلته بروح الإسلام وبحياة الرسول ﷺ ذهب يهبط في سلّم الحضارة. فكان أن فقد قدرته على الالتزام والانضباط، وكانت هذه هي الفرصة السانحة لكي تنتشر بين أفراده ألوان من "التواكلية" و"السذاجة" و"القدرية" والبعد عن استيعاب سنن الله الكونية وسنن الله في الاجتماع البشري، وقوانينه في التقدم والتخلف.

إن المسلم الذي ارتبط في مرحلة نضجه الحضاري بالصلوات الخمس في مواقيتها المرتبطة بالحركة الكونية، وعَرف "مواقيت الصلاة" سلوكًا دينيًّا ونظامًا دنيويًّا، وتعبّد بقول القرآن ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣)، كما أدى الزكاة مع حلول "الحول"، وأيضا: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(الأنعام:١٤١).. هذا المسلم الذي ارتبط بالكون والزمان هذا الارتباط الالتزامي الكريمَ، ونهاه دينه عن أن يسبّ الدهر، بل علّمه القرآن أن لهذا الكون "غائية" مرتبطة بـ"سببية" قوية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩٠-١٩١).. وعندما يخرج الإسلام بالعبادة عن إطار الشعائر المحددة ويوسع آفاقها، بحيث يجعلها سنة كونية عامة:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، فإنه إنما يقصد ربط المسلم بالحركة الكونية العامة في كل حركاته وأنشطته، لكي يؤدي الأمانة التي حملها تجاه الكون كله.

ولعلنا الآن نستطيع أن ندرك معنى الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(الفرقان:٦٢).. فإن التفسير الدقيق لتعاقب الزمان -كما يتجلى في أنفسنا- يؤدي بنا إلى فكرة عن الحقيقة القصوى، هي أنها "ديمومة بحتة"؛ يتداخل فيها الفكر والوجود والغاية لتؤلف جميعًا وحدة متكاملة.

لكن المسلم في مراحل انزلاقه، قد انفك ارتباطه بالسنن الكونية والاجتماعية. وسرعان ما وجد أشباه فلاسفة، يقدمون له التبريرات المطلوبة لفك ارتباطه بالحركة الكونية وللسير اعتباطيًّا على أرض التاريخ. فهو يتحرك دون وعي مسبق، وهو يتحرك غريزيًّا، وهو لا يعرف لحياته أهدافًا، وهو مقطوع الصلة بالكون وما تستتبعه هذه الصلة من آفاق "معرفية" وآفاق "جمالية" وحركة "إيجابية" وسباق بنّاء مع تعاقب الليل والنهار ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾.

أجل، إن السببية روح التاريخ، وإلا فماذا وراء هذه الحركة المكرورة في الكون؛ شمس وقمر وليل ونهار... ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٤٠)، هل هي قصة عبثة؟!

وما في الكون، موجود -بنموذجه- في المجتمع البشري. فماذا يمكن أن يكون وراء آلاف المعارك البشرية وصور تدمير المدن وقيام أمم وسقوط أخرى؟!.

لا بد لهذه الأحداث المكرورة من أسباب وغايات. ولقد قدم القرآن

للإنسان المسلم أسبابًا هنا وغايات هناك، ارتبط بها المسلم يوم حدد لنفسه دورًا في هذه الحركة، يوم ساح المسلم في الأرض يحمل راية التغيير الإنسانية الشاملة: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده" كما قال ربعيّ بن عامر ﷺ أمام رستم، بينما كان رستم قائدًا للفرس، وكان ربعي ﷺ كأنه عاري الجسم حافي القدمين، لكنه كان "الإنسان الأعلى" الذي جاء لإحداث الانسجام بين الحركة الكونية والحركة البشرية.

وفي مراحل الانزلاق فقدَ المسلم هذا الدور الكوني، بل لقد فقدَ الإحساس بالسنن الكونية. وإن الزمان ليتحرك أمامه في تغييره ونظام انسجامه فيبدو له وكأنه يتحرك في "شاشة مرئية" أمامه، أو كأن الزمان مجرد "تمثيلية" مكتوبة بلغة أجنبية لا يعرفها المسلم الحديث، فلا يعنيه منها إلا الصور البلهاء التي تجعله يبتسم كالمبتسمين دون وعي، وقد يبكي أيضًا دون وعي بالأسباب التي تبكيه.

وضاعت روح المسلم

يقول أبو الحسن الندوي: "إنكم ترون في المتاحف كل نوع من السباع والأنعام والطيور الجميلة والعصافير.. ففيها الأسود والذئاب والأفيال، وفيها كل طائر جارح، وكل سبع مخيف؛ ولكنها جثة هامدة لا حراك فيها، وأجماد ميتة محشوة بالليف والقطن، ليس فيها رمق من حياة وقوة تهجم بها وتصول (...) إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها... فإذا وقع

صراع بينهما انهارت الصورة (...) والصورة -ولو كانت مهيبة هائلة- تتغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة، لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة، وإن الطفل يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة، لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة، والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورة مهيبة (...) ولذلك نرى بأعيننا أن "صورة الإسلام" أصبحت لا تغلب على "الحقائق" المادية الحقيرة، ونحن نحتاج اليوم إلى حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم".

نعم، إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر وأعظم خدمة وأجلّها للأمة الإسلامية، هو دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام... لكننا نعتقد أن هذه الدعوة تحتاج إلى "برنامج" يسمح للمسلم بأن يتجاوز تلك العقبات التي تحجز بينه وبين أن يتمثل الحقيقة الإسلامية.

وهذا البرنامج لا بد له أن يتّكئ على دعامتين أساسيتين:

الأولى: دعامة تفريغ المسلم من الجاهليات التي اندمجت في لحمه ودمه واتجاهه في التفكير، بل في عواطفه ومشاعره، وأصبحت وكأنها بعضه الذي لا ينفصل عنه إلا بعملية تفريغ.

الثانية: ودعامة ملء هذا المسلم بالإسلام الصحيح الحي الذي يملأ عليه دنياه ويصوغ له حياته، ويغني كل طاقاته عن البدائل المطروحة في ساحة الأفكار والفنون والآداب والتصورات الأخلاقية والكونية والجمالية.

وليس من شك أن المسلم في العصر الحديث يقف على مفترق طرق، حيث تتخايل أمام عينه وقلبه آراء وتيارات ذات مضامين خلابة، وذات

بريق ساحر، وأنه لن يستطيع طويلاً أن يظل هكذا مائلاً هناك تارة، ومائلاً هنا تارة أخرى. كما أنه لا يستطيع أن يظل هكذا مسلمًا بلا إسلام أو شكلاً بلا مضمون... "لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالاً فيجب أن ينهض أو يموت"، "وإن المشكلة التي تواجه المسلم اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق الطرق... إنه يستطيع أن يظل واقفًا مكانه، ولكن هذا يعني أنه سيموت جوعًا، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان "نحو المدنية الغربية"، ولكنه حينئذ يجب أن يودّع ماضيه إلى الأبد، أو إنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها "إلى حقيقة الإسلام"، لكنه في هذه الحال لا بد أن يعود إلى روح الإسلام الحية الفاعلة الإيجابية، وأن يترك للإسلام فرصة الاستيلاء على كيانه كله، وإلا فإنه لا زال واقفًا في منتصف الطريق".

وإن نقطة الإعجاز في الحضارة الإسلامية أنها استطاعت -مع طبيعتها هذه- أن تمشي في التاريخ، وأن تقدم صورًا من الإبداع الحضاري المادي لا تقل عن أي حضارة أخرى سبقتها، أما عطاؤها في "الإنسانيات" فهو فريد في الحضارات كلها.

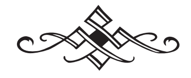
ولا تزال هذه الحضارة وستظل قادرة على أن تعطي. ولعل ما يجري على الساحة العالمية الآن من بوادر الانبعاث، أكبر دليل على القدرة الذاتية لهذه الحضارة الفريدة في التاريخ.

المصادر

(١) دارسات في الحضارة الإسلامية، للدكتور أحمد إبراهيم الشريف، طبعة مصر.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، لمحمد أسد.

(٢) تجديد الفكر الديني، لمحمد إقبال.



الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ [٦٢٥]

كان الرسول ﷺ قد وعد المسلمين بأن قريشا لن تغزوهم في المدينة بعد الخندق. وقد كانت مشاعر المسلمين لاسيما المهاجرين قد تأجّجت تهفو لزيارة مكة البلد الحرام، وطنِ المهاجرين الذين طالت غربتُهم واشتد حنينهم.

إنهم يعيشون منذ ستّ سنوات على هذا الأمل، وبعضهم ربما نزح من الحبشة إلى المدينة مباشرة، دون أن يرى بلده مكة، فطالت غيبته أكثر... ولهذا كان الرسول ﷺ يزرع فيهم الأمل ويعدهم بفرج قريب، بعد أن استنفدت قريش كل طاقتها وخابت كل جهودها وضاعت كل أحلامها وانتصرت القلة المؤمنة المظلومة.[٦٢٦]

صلح الحديبية

يروي ابن إسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول **الله** ﷺ أصحابه بالعمرة. ولهذا خرج الرسول ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه إلى مكة ليس معهم إلا السيوف في القِرَب. وقد وصل الرسول ﷺ إلى الحديبية، وهي مكان يبعد عن مكة ما بين ٥٠ أو ٦٠ كم تقريبًا. وقد عمد

---

[٦٢٥] مجلة حراء، العدد:٣ (أبريل–يونيو ٢٠٠٦).

[٦٢٦] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٧٧.

الرسول ﷺ إلى اتخاذ كل السبل ليُقنع أهل مكة بأنه جاء مُعتمرًا، ولم يأت محاربًا، ومع ذلك فقد رفَضوا تركه ومن معه من المسلمين يعتمرون، ويدخلون المسجد الحرام، إلا أنّ الرسول ﷺ حافظ على الصبر، والأخذ بأسباب السلام ما أمكن.[٦٢٧]

لقد "اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحديبية وأمر أصحابه بالتوقف، أمر بذلك على الرغم من إيمانه بنفسه وشجاعة أصحابه. كان يعلم أنه لو التجأ إلى الله تعالى وتوكّل عليه وقاتلهم فسيَغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلك وفضّل الانتظار. وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تبايع مع أصحابه.. تبايع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام، هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: ١٨-١٩)."[٦٢٨]

"والحقيقة أن قرَيشًا التي كانت تظهر أنها تملك الكعبة[٦٢٩] اضطرت إلى قبول الأمر الواقع في معاهدة الصلح التي وقعت عليها كما وقع عليها الرسول ﷺ، إذ قالت للرسول ﷺ: «وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا الكعبة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القِرَب لا تدخلها

[٦٢٧] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٧٨.

[٦٢٨] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٧٩.

[٦٢٩] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٨٥.

بغيرها»[٦٣٠]"[٦٣١]. ومعنى هذا "أن المسلمين شركاء في الكعبة أيضًا، وأن لهم دينًا حنيفًا على ملّة إبراهيم، بينما كان المفهوم السائد حتى آنذاك أن مكة والكعبة ملْك للمشركين، وما كان لأحد أن يضع شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحديبية حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائرهم الخاصة بهم"[٦٣٢].

وبعد مفاوضات ظهرت فيها إساءات من رسل قريش، وآخرهم سهيل بن عمرو، وغضب لها أصحاب النبي ﷺ، وتغاضى عنها الرسول ﷺ إيثارًا للسلام على الحرب، وقعت اتفاقية الهدنة والسلام لمدة عشر سنوات بين الطرفين. وسرعان ما تبين للمسلمين أن إيثار الرسول للسلام كان خيرًا وبركة وفتحًا مبينًا.[٦٣٣]

لقد كان المفاوض من قِبل قريش «سُهيل بن عمرو» يَعُدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصرًا كبيرًا له، لذا فإنه كان يعترض حتى على أصغر المسائل؛ فمثلاً عندما دعا الرسول ﷺ عليًّا رضي الله عنه ليكتب معاهدة الصلح مع قريش، قال له: «اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)» فقال سهيل: «اكتب: باسمك اللهم» فكتبها، ثم قال ﷺ اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأشار الرسول ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه أن

[٦٣٠] البداية والنهاية لابن كثير، ١٩٢/٤-١٩٣؛ كتاب المغازي للواقدي، ٥٧١/٢-٦٣٢؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢٠٠/٢-٢٠٦.

[٦٣١] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٨٠.

[٦٣٢] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٤٨٠.

[٦٣٣] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٨١.

يمحو كلمة «رسول الله» التي كان قد كتَبها، وتردّد عليّ ﷺ، إذ صعب عليه محو كلمة «رسول الله» فقام النبي ﷺ بمحو تلك الكلمة بنفسه بعد أن دلّه على مكانها عليّ، وقال: «اكتب؛ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذنِ وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يرده عليه». [٦٣٤]

وقد قبل النبي ﷺ هذا الشرط الجائر لحكمة رآها على الرغم من تبرّم بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ﷺ.

وهكذا يرينا صلح الحديبية بملابساته وشروطه المدى الذي وصل إليه إلحاح الرسول ﷺ على طلب السلام؛ لأن ظروف الأمن والسلام هي المناخ الملائم لدعوة الإسلام التي يراد لها الدخول إلى القلوب والعقول. ومن البديهي أن مناخ الحرب والقتال لا مكان فيه لتفتح العقول والقلوب على الحق، ولا على الحوار الإيجابي. وكما أثبت التاريخ، فقد كان هذا الصلح على ما فيه من إجحاف فتحًا مبينًا، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١).

فتح مكة

أما فتح مكة في الثالث والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، فهو الآية العظمى على مدى الأخلاقية النبوية الإنسانية التي التزم بها الرسول ﷺ مقدمًا أرفع نموذج للتسامح والتواضع والسموّ الذي عرفته

---

[٦٣٤] النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٣٨١.

البشرية عبر تاريخها.

إننا لا يَعنينا هنا رصد تطور الأحداث بعد الحديبية، فموضع ذلك هو الدرس التاريخي وكتب الحديث والسيرة، لكن الذي يعنينا هنا هو الوقوف عند الخلُق الحربي الذي طبَّقه النبيّ الفاتحُ لبلده مكة، مع التذكير -في البداية- بكل ما عاناه الرسول من أهل مكة خلال أكثر من عشرين عامًا، منها ثلاثة عشر أمضاها هو وصحابته تحت مِطرقة التعذيب والأذى والتشرد في الأرض بحثًا عن ملجأ آمن. وعندما هاجر لُوحق ورُصدتْ الأموال الطائلة لمن يغتاله، بعد أن فشلت مؤامرة قتله في داخل مكة... ثم -أخيرًا- الأعوام الثمانية التي قضاها الرسول في مكة، وهم يلاحقونه ويتربصون بكل أصحابه، ولا تمرّ الأيام أو الأسابيع إلا وهم متآمرون عليه مع اليهود أو المنافقين، أو مُوعِزون لبعض القبائل بترويعه في المدينة والسطو على مسارح المسلمين التي تسرح فيها دوابهم، أو مقاتلون له مباشرة طورًا ثالثًا.

وها هي السنوات الطوال قد مضت، وها هو أنبل الناس وأزكى الناس، الذي حورب واضطهد يعود فاتحًا لبلده. أجل، بلده مكة التي أُخرج منها وهو يذرف الدمع ويقول: «والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ».

إنها ذكريات أليمة كل الألم، بشعة كل البشاعة. وإن أفضل الناس في مواجهتها هو الذي يلتزم "العدل" -على الأكثر- فيقتص لنفسه ولأصحابه، ويستردّ ما اغتصب منه ومنهم، وهو كثير، ويطلب التعويض الكافي عن الاغتراب والملاحقة طيلة هذه المدة الطويلة.

ولعلّ أقل ما يُقبل ويغتفر لهذا الفاضل أن يَدخل بلدَه شامخًا رافعًا

رأسه معتزًّا بمجده الذي وصل إليه، وبحقه الذي انتزعه. لكن الرسول الأخلاقي الذي وصفه ربُّه بالخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، لم يكن مثل أفضل الناس؛ بل إنه لولا بشريته التي نؤمن بها، وعبوديته التي كان يعدّها وِسامه الأرفع، لولا البشرية والعبودية لقلنا: إنه لم يكن من الناس، وهو يدخل مكة... لقد كان ملاكًا طاهرًا ارتفع عن أكبر مدى تستطيع أن ترنو إليه البشرية أو أن تطمح في الوصول إليه.

ونظر إلى آلاف الوجوه التي فعلت به الأفاعيل طيلة عقدين من الزمان، بعد أن دخل مكة من أعلاها، من كداء، وهو يضع رأسه -وهو راكب- على دابته، تكاد تلامس رأسه ظهر الدابة تخشّعًا وخضوعًا لله، وإقرارًا بأنه صاحب الفضل في تدويل الأيام، وفي إعزاز الأذلاّء. ولقد كانت رأسه تلمس واسطة الرحل من شدّة الانحناء وهو -مع ذلك- مشغول عن نفسه، وعن أية نظرات ترقبه وهو داخل دخول النبي المنتصر، وليس دخول "الملِك" كما قال أبو سفيان للعباس رضي الله عنه: "لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيمًا.. فصحّح له العباس رضي الله عنه، وقال له: إنها النبوّة"..

إنه ﷺ مشغول عن الناس بقراءة سورة الفتح، بينما يخفق قلبه بأروع المشاعر؛ لأنه في طريقه إلى المسجد الحرام والكعبة، وقد فعل ما أراد، واستلم الحجر الأسود، طاف بالبيت، ولم يكن محرمًا ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(الإسراء:٨١)، ثم دخل إلى جوف الكعبة، فأزال آثار الوثنية في داخلها كما أزالها من خارجها، ثم دار في البيت يُوحّد الله ويكبره. وكل ذلك، وهم ينظرون إليه، إنهم في وادٍ بعيد عنه، إنه في الآخرة، في الملأ الأعلى، أما هم فيفكرون هلِعين فيما ينتظرهم، متذكرين ماضيهم الأسود معه.

ونظر إليهم... وهم ينتظرون القضاء العادل... لكنهم مع ذلك كانوا يعرفون أن محمدًا هو محمد رسول الرحمة. إنه لن يعاملهم بالعدل. فلو عاملهم بالعدل لانتهى كل شيء. ثم فاجأهم النبيّ الأعظم بالسؤال: «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟» وكأنما كان السؤال نفسه طوق نجاة لهم. فسرعان ما أجابوه قائلين: «خيرًا... أخ كريم، وابن أخ كريم.» قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾(يوسف: ٩٢)، اذهبوا فأنتم الطلقاء» .[٦٣٥]

لقد وُلدوا من جديد، ودبت في أوصالهم الحياة، وما كانوا يتخيلون أن يَنقَذوا -هكذا- في دقيقة واحدة، وبعبارة واحدة، «اذهبوا، فأنتم الطُّلقاء» . لكنه سموّ محمد ﷺ في حربه.. سموه في عفوه.. سموه في إكرام من ظلموه.. وفي تأليف قلوبهم. فإن أكبر ما يهمه كنبي أعظم أن يدخل إلى قلوبهم، إنه لا يريد الطاعة كملِك، وإنما يريد الطاعة مع الحبّ كنبيّ بعثه الله رحمة للعالمين، وقد تحقق له ما أراد.

ثم تتوالى آيات عظمته، فيرفض أن يأخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة ويعطيها للعباس ﵁ أو لعليّ ﵁ (بعض بني هاشم قومه)، وقال: «اليوم يوم برّ ووفاء» . فالنبي الأعظم لا يعرف الانتقام.

وعندما كانت الجيوش الإسلامية تزحف على مكة في ظل أوامر صارمة بعدم إراقة الدماء إلا في الدفاع عن النفس أخطأ أحد القادة -وهو الرجل العظيم سعد بن عبادة ﵁- فقال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم يذلّ الله قريشًا". فانتُزعت منه الراية بأمر الرسول ﷺ وأعطيت لابنه قيس وصَحح

[٦٣٥] انظر: النور الخالد، فتح الله كولن، ص:٢٥٠.

الرسول ﷺ العبارة حتى لا تذهب إلى الناس وتروّعهم قائلاً: «اليوم يوم المرحمة... اليوم يُعزّ الله قريشًا..». وقد صدق... فلولاه ولولا دخول مكة في الإسلام لما كانت لمكة قيمة، ولَمَا كان لقريش قيمة أبدًا.



الطريق إلى إحياء علوم الدين والدنيا معا[٦٣٦]

كان أبو حامد قادرًا على الانطلاق وعلى التحكم في الذات، وعلى أن يعيش في الدنيا وأن يعتزل ويعيش في السنوات الطوال بين الدنيا والآخرة. يا له من عظيم خدم الإسلام والمسلمين في منعطف من منعطفات الطريق.

في سنة ٥٠٥هـ ترك لنا العملاق الكبير أبو حامد الغزالي موسوعة ضخمة أطلق عليها اسم "إحياء علوم الدين"، ومات -رحمه الله- بعد أن عاش في دنيانا مدة قصيرة من الزمن إذا قيست بأعمار بعض الناس. فقد ولد سنة ٤٥٠هـ، أي إنه عاش خمسًا وخمسين سنة؛ اعتزل فيها الدنيا سنوات ليست بالقصيرة، متفرغًا للتفكير وللتدبر في الوحي والكون والعقل والنفس. وقد تألق في دحضه لحجج الفلاسفة، وأخرج للدنيا كتاب "تهافت الفلاسفة"، وأعطانا خلاصة تفكيره ونجاحه في الخروج من مستنقع الشك إلى أعلى درجات اليقين في كتابه "المنقذ من الضلال والهادي إلى ذي العرش والجلال".

إن القرن الذي عاش فيه الغزالي كان قرن صراعات كلامية قاتلة بين المتكلمين والمحدثين والفقهاء. وفي نفس الوقت ساد التصوف البدعي

---

[٦٣٦] مجلة حراء، العدد:٢٨ (يناير-فبراير ٢٠١٢).

الذي مثّل مرحلة تخدير للأمة نمت تحت ظلالها الحركات الباطنية والقرمطية، وتقدم الصليبيون يزحفون بجحافلهم من كل بلاد أوروبا؛ لأنهم أدركوا مستوى القاع الذي انحدر إليه المسلمون، وعرفوا أن قبلتهم لم تعد واحدة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾(الحشر:١٤). أما أصحاب الحركات الضالة الذين غلبتهم اللاعقلانية واللامنطقية، فأوّلوا الإسلام تأويلاً باطنيًّا غنوصيًّا، وشتتوا وجدان المسلم وعقله، فقد استحقوا قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾(آل عمران:٧)، وقليل منهم هم الذين كانوا من الراسخين في العلم الذين يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾(آل عمران:٧).

أبو حامد الغزالي وابن خلدون

وتلفت أبو حامد حوله فلم يجد معينًا له على الحق الذي يعرفه، ولا على الفقه الشمولي للإسلام الذي يريده. فقد رأى تآكل أهل الحق الداخلي، وشراسة أهل الباطل الخارجية، وامتداد الملحدين في فراغ المسلمين. وفي إطار الجمع بين الخلوة والتفاعل، والشريعة والحكمة، والحديث والفقه، كتب أبو حامد كتابه الذائع الصيت "إحياء علوم الدين". فكان شأنه في ذلك شأن عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ، الذي تشابه عصره بعصر أبي حامد الغزالي، فكتب كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". والجزء الأول من كتابه "العبر" هو ما يسمى باسم "مقدمة ابن خلدون"، الذي أصبح من أمهات الكتب وروائع الفكر

العالمي، إذ ارتفع بها صاحبها إلى درجة سقراط وأرسطو وأفلاطون كما يقول المؤرخ البريطاني المعروف "أرنولد توويني" الذي كان من أكبر المدافعين عن قضايا العرب وحضارتهم.

الحاجة لعلوم الدين وعلوم الدنيا

إن العلوم المسماة "ظلمًا" بعلوم الدنيا قد تكون -إذا توافرت لها النيات الصالحة والأدوات الصحيحة والمقاصد النبيلة- من علوم الدين. فالطبيب الذي يعالج الأبدان لتكون قادرة على العمل والجهاد، أشرف وأزكى وأقرب إلى الله من الفقيه الذي يميت على الناس دينهم، ويمزق رؤيتهم، ويميل إلى التشدّد بدعوى الورع أو الأخذ بالأحوط حتى ولو تسبّب في تدمير العائلات وتفكيك المجتمعات، وقد يمتلئ قلبه بالتعصب المذهبي والبغض لإخوانه المتبعين للمذاهب الأخرى... وهكذا يمكن أن نقول في سائر علوم الدنيا.

ولئن ران على عقول المسلمين نوع من الفقه الكليل بالدين وعلومه، فقد ران على عقولهم نوع من الجهل الفاضح بعلوم الدنيا؛ فبينما أصروا على "فرض" حفظ القرآن على أبنائهم، أصرّوا في الوقت نفسه على "رفض" تدبّر القرآن واستكشاف الآفاق والسنن والكونية المحدّدة والمحققة لأسباب النهوض، ولعوامل التقوى ولعوامل الانهيار من جانب آخر، حتى يتأتى لنا أن نعرف الطريقين فنعمل بما يوصلنا "لامتلاك أسباب النهوض"، ونعمل في الوقت نفسه على "اجتناب أسباب السقوط". وظل القرآن يدرس في نطاق محدد، يدور بين إعجاز بياني وإعجاز فقهي (الأحكام) ولغوي وعقدي. لكن المسلمين الرافضين لعلوم الدنيا، عجزوا

عن اكتشاف إعجاز القرآن التربوي مع أنه معجزة تربوية ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩) بالدرجة الأولى، ويسعى للتغيير الداخلي للنفس من أجل تغيير الواقع الخارجي، لأن تغيير ما بالخارج مشروط بتغيير ما بالداخل. وجدير بالذكر أن أول ما يجب معرفته عن شعب حديث اليقظة الذي لا تزال آثار النوم الطويل بادية عليه هو: هل بيده أسباب تقدمه الذاتي الداخلي؟ إننا نجد في القرآن الكريم النصّ المبدئي للتاريخ التكويني: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). وينبغي أن لا نقرر هذا المبدأ حسب إيماننا به فقط، بل يجب أن يكون تقريره في ضوء التاريخ كما يقول مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة". وعلينا -هنا- أن نتأكد من شرطين -بطريقة داخلية وإيمانية قوية-:

أولهما: هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي؟

ثانيهما: هل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق هذا المبدأ في حالتها الراهنة؟

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى، يؤكد لنا "مالك بن نبي" أن الحضارة بمعناها الصحيح الخالد، لا تنبعث -كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها. فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أو هي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدّر الله على الإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، هذا بالنسبة لصحة المبدأ القرآني.

وبالنسبة للنقطة الثانية نقول: إنه من المعلوم أن جزيرة العرب -مثلاً-

لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباءً لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة؛ "الإنسان" و"التراب" و"الوقت" راكدة خاملة. حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء، نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدّسة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم. فمن تلك اللحظة (لحظة ﴿اقْرَأْ﴾) وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قرونًا طوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى المدنية والرقي. لقد عجز المسلمون عن أن يستنبطوا من القرآن نظرية اجتماعية أو حسب تعبير ابن خلدون "علم العمران"، وهو علم يضم علمي "الاجتماع" و"فلسفة التاريخ"، وحتى عندما جاء "ابن خلدون" وقدم تأصيلاً لعدد كبير من علوم الدنيا في مستوى الأنفس والآفاق، عجز المسلمون عن الاستفادة من "ابن خلدون" كما عجزوا في عصور التخلف عن الاستفادة المرجوة من الكتاب والسنة. مع أنهما يمثلان المرجعية الأساسية لنظرية المعرفة الإسلامية التي تمنحنا مفاتيح العلوم، وتمنحنا منهج البحث العلمي القائم على الوحي والنصوص الدينية والعقل والتجربة، أو بديهيات العقل السليم والحس السليم، فضلاً عن اللغة من حيث دلالتها الظاهرة المتعارف عليها، أي -بإيجاز- الاكتساب بالاختبار، والنقل بالتواتر.

ومشت عملية إحياء علوم الدين في تاريخنا عوراء أو عرجاء على هذا النحو... فلا هي اكتشفت في القرآن ما يتصل بعلوم الدنيا على النحو الذي يسمّونه الآن "الإعجاز العلمي في القرآن" وبالتالي انطلقت بالمفاتيح القرآنية تكتشف الكون وعلومه وقوانينه، ولا هي بذلت جهدًا محترمًا

في اكتشاف علوم الكون وقوانينه، ثم ذهبت بعد ذلك تتعامل مع القرآن ومفاتيحه من خلال علوم الكون التي اكتشفتها، بحيث تكتشف النسبة بين علوم الكون المنظور وعلوم القرآن المسطور. وقد تكتشف ما هو أهم وهو التطابق والتكامل بينهما، ومساعدة الوحي للعقل، وتفصيل العقل لمجمل الوحي وتطبيق دلالاته وتوجيهاته. كلا.. إن كل ذلك لم يقع إلا بنسبة ضئيلة تألّقت في عدد من الرموز الكبيرة في عصر تألُّقنا وازدهارنا الفكري، بينما بهتت واختفت في عصور ضعفنا العقلي والحضاري.

وانظر إلى حالنا في يوم الناس هذا... أين الفقيه والمفسر وعالم العقيدة الذي يلم بقدر مقبول من علوم الكون مثل الفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها؟ إن هذا الفقيه الموسوعي الثقافة يكاد يكون نادرًا ندرة الكبريت الأحمر، وقد تجد بعض جوانبه موجودة بدرجة ما في عدد محدود، من أمثال الشيخ محمد الغزالي، والشيخ الشعراوي، وبديع الزمان سعيد النورسي، وفتح الله كولن، والطاهر بن عاشور "في التحرير والتنوير"، وسيد قطب في "الظلال".

ابن حزم الأندلسي، الملمّ بعلوم الدين والدنيا

تأمل معي في الموضوعات التي عالجها الفقيه الظاهري أبو محمد على بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ) صاحب كتاب "المحلى" بأجزائه الكثيرة في الفقه المقارن، وكتاب "الإحكام في أصول الأحكام" في أصول الفقه بأجزائه الخمسة. هذا الفقيه الظاهري، عالج -مع ذلك- قضايا "مقارنة الأديان"، واعتُبر من مؤسسي هذا العلم من خلال كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، وعالمًا في المنطق في كتابه "التقريب لحد المنطق"،

وعالمًا في التاريخ في كتبه "جوامع السيرة" و"حجة الوداع"، ورسالته في "أمهات الخلفاء" و"المفاضلة بين الصحابة"، وكتابه "فضائل الأندلس وأهلها" و"نقط العروس"، وعالمًا في علم الأنساب في كتابه "جمهرة أنساب العرب" وهو من أصعب العلوم. وقد قدم مع كل ذلك وغيره نظريات أثّرت في تاريخ الحضارة الإسلامية والإنسانية، فقدم نظرية في الحب العذري الذي يسمّونه "الأفلاطوني" زورًا وبهتانًا، وذلك من خلال كتابه "طوق الحمامة" وهو الكتاب الذي يقول عنه المؤرخ في الأدب الأندلسي أستاذنا الكبير الطاهر مكي: "إنه أروع كتاب درس الحب في العصر الوسيط في الشرق والغرب في العالمين الإسلامي والمسيحي"، وقدم من خلال كتابيه "التقريب" و"الفصل" نظرية في المعرفة مازجًا فيها بين ما يعرفه الإنسان ببديهة الفطرة وأوليات العقل، وما يعرفه الإنسان بالحواس السليمة عن طريق الاكتساب.

وقدم ابن حزم أيضًا نظرية في كتابه "الفصل" تحت عنوان "مطلب بيان كروية الأرض" وفيه يقول: إن أحدًا من أئمة المسلمين لم ينكروا تكوير الأرض، وقد جاء القرآن بتكويرها في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾(الزمر:٥)، وهذا إثبات لكروية الأرض بالدليل النقلي، أما بالدليل العقلي فيبني ابن حزم ذلك على ما أثر من ربط الصلاة بزوال الشمس، أي انتقالها من جهة إلى جهة. ومن ثم يبسط نظريته من خلال دراسة في أكثر من عشر صفحات. ومما يضاف إلى هذه المجالات الإبداعية التي قدمها ابن حزم للحضارة الإنسانية، رفضه النظرية التقليدية السائدة لدى المتكلمين والفلاسفة في العصور الوسطى، وهي نظرية "الجزء الذي لا يتجزأ". فإن ابن حزم قد جاهر بأنه: "ليس في

العالم جزء لا يتجزأ، وأن كل جزء انقسم الجزء إليه فهو جسم أيضًا وإن دقّ أبدًا". وهي النظرية النسبية التي أظهرها "ألبرت آينشتاين" مخترع الذرة في عصرنا الحديث.

ابن خلدون آثاره العلمية الشاملة

ونكتفي من هذا النموذج الذي قدمه فكر ابن حزم الظاهري بهذا القدر، ونقدم نموذجًا آخر يتمثل في الفقيه المالكي "عبد الرحمن بن خلدون" صاحب "المقدمة". لقد عالج هذا الفقيه من خلال المقدمة موضوعات مثل: فن التاريخ، علم العمران وما يعرض فيه، علم الجغرافيا وتفاصيل الأقاليم في أقاليمها، وأثر الهواء في أخلاق البشر، وطبيعة أهل البدو وأهل الحضر، ونظرية العصبيّة، وتأثّر المغلوب بالغالب، وطبيعة العرب وحاجتهم دائمًا للدعوة الدينية، وأحكام الخلافة والإمامة، والدواوين كديوان الرسائل والكتابة والشرطة، وغيرها... والسكة "العملة" والحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها، ومبادئ الخراب -أو الدمار- في الأمصار، والمعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وأمهات الصنائع مثل صناعة البناء والنجارة والحياكة والوراقة، وعلوم تعبير الرؤيا وعلم العدد والحساب والجبر والمقابلة والعلوم الهندسية، وعلم الطبيعيات والفلاحة والطلسمات وصناعة النجوم، وعلوم اللسان العربي، وغيرها.

وهكذا أحيا علماؤنا "وفقهاؤنا" علوم الدين والدنيا معًا، ومزجوا بينهما مزجًا كاملاً، ولم يروا أي تناقض، بل رأوا ضرورة إحياء الدنيا بعلوم الدين، وإحياء الدين وتفعيله من خلال علوم الدنيا. وما عرفوا أسلوب الكنيسة في إهمال علوم الدنيا ومحاربة أهلها بدعوى الاكتفاء

برؤية الكنيسة للحياة والعالم من خلال الكتاب المقدس. وفي مساجدنا كانت علوم الدين والدنيا تدّرس جنبًا إلى جنب، وينظر إليها على أنها متكاملة، وأنها كلها عبادة، بل كان الطالب ينتقل -في المسجد الواحد- من مجلس أو "عمود" أستاذ الفقه إلى أستاذ اللغة، وإلى أستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية.

إن تكوين الفقيه والداعية من خلال "علوم الدين" بطريقة كمية انعزالية لم يعد كافيًا في عصر التحديات العلمية الهائلة، ولا طريق أمامنا إلا بناء داعية جديد يجمع بين فقه علوم الدين وفقه علوم الدنيا مع قدرته على قيادة الواقع بالوحي والفكر معًا. إننا لا نملك سلاحًا ولا قوة سياسية أو اقتصادية نواجه بها تحديات العولمة، وليس أمامنا إلا قوة الفكر والقيم حين نحسن فقه ديننا ونحسن عرضه، فهذه القوة هي التي نستطيع بها أن نقدم الإسلام وحضارته للعالم، لاسيما وهو في حالة ضعف مشين في مجال القوة العقدية والقيمية والفكرية والروحية. إنه وصل إلى القاع وهو يعيش عالم "الأشياء" -لا غير- أي المادة، أما نحن فلدينا -مع جهودنا في عالم الأشياء- منظومة فكرية وقيمية وروحية.



دع الغيب الذي فيك يتكلم[٦٣٧]

أيها الإنسان (الكون)!

ألستَ قسيم الكون؟ وهل يُعقل الكون إلا بك؟ وهل ينطق إلا بك؟ وهل يذلَّل الكون -بإذن مكون الأكوان- إلا لك؟!

إياك أن تزعم أنك جِرم صغير، ففيك انطوى العالم الأكبر. لقد صنعك الله بيده، ونفخ فيك من روحه. فأنت من الروح جئت، وبالروح تعيش، وبها تصنع كل أمجادك. فالروح قبل العقل وقبل الجسد، كما أن العقل قبل المادة. وعندما تذهب منك الروح صاعدة إلى بارئها ينتهي كل شيء فيك.

في البدء كانت الروح. ثم تمضي الحضارة إلى مرحلة العقل وتدخل عالم الأشياء. أما في مرحلة الروح فالغايات قبل الوسائل، والعام قبل الخاص، والمعاني فوق المباني، والأخلاق والمثل والأشواق العليا فوق القوانين، وفوق المعادلات الدنيوية الوضعية. حتى لو كانت هذه المعادلات في إطار العدل، فالحبّ والرحمة والإيثار فوق العدل، دون إلغاء العدل.

دع الروح تعمل فيك متعانقةً مع الوحي. لأنك -بهما- تصل إلى

---

[٦٣٧] مجلة حراء، العدد:١١ (أبريل-يونيو ٢٠٠٨).

"إنسانيتك"، وبهما تنطلق إنسانيتك من إسارها فتتفجّر حكمة ونورا.

لسوف يضاء المصباح في داخلك، سيلتقي فيك الغيب والشهادة، ستنطلق حواسك إلى مناراتها لتضيء جوانب كونك الداخلي، وإشعاعاتك الخارجية. هنا قد تتحقق فيك بعض الومضات النورانية الربانية. وقد يلتقي فيك النوران: نور الغيب ونور الشهادة.

سوف يدخل المصباح إلى مشكاتك. فلا تستطيع الشهادة الواردة إليك أن تطفئ نور الغيب، ولا يستطيع الغيب الكامن فيك أن يشلّ فاعلية الشهادة، بل إنك سترى الأشياء على حقيقتها، لأنك سترى بنور البصر والبصيرة، وبالروح والعقل والمحسوس معًا. فكل الطاقات ستتفتح، كما تتفتح الزهور في الربيع. وسوف يفوح منك عطر الإنسانية الربانية.

سيفقه قلبك، ولسوف تعجب أن هناك ناسًا ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩)، وستبصر عينك الأشياء وما وراء الأشياء، وسيذهلك أن هناك ناسًا ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩). وستلتقط آذانك كل أنغام التوحيد المبثوثة في "سيمفونية الكون" فتعرف معنى حفيف الأشجار، وخرير الأنهار والبحار، وقطرات الأمطار، بل ربما تفهم منطق الطير، ليس بالشعور السليمانيّ الساطع، بل باللاشعور الوجداني الخافت. وسوف تدرك أن موسيقى الكون لا تتناشز، بل تتناغم، حتى مع العواصف والرياح. فلكلّ دورُه، ولكلّ إيقاعه ودلالته. وما يظنه بعضهم من تناقض ونشاز إنما يعود إلى أنهم لم يفقهوا جيدا أصول الإصغاء: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩).

عندما تترك الغيب الذي فيك يتكلم، سوف تتكشف لك ألغاز كثيرة.. سوف يدلك الغيب على حقيقة ما عجزت "الشهادة" عن تفسيره.. سوف

تزول عقبات الصعود.. وسوف يمضي الوعي فيك إلى غايته دون قيود. كيف رأى عُمير بن الحمام ﵁ أكل تمرات تساوي عمرا طويلا، فألقاها ليقطع العلاقة بالمحسوس في ساعة المفاصلة بين الشهادة والخلود. لقد أدرك الحقيقة وأراد سرعة العبور، لأن "الغيب" فيه هو الذي كان يتكلم ويعمل.

فدع الغيب الذي فيك يحمل فطرتك النقية ويتكلم ويعمل... دعه يمرّ، واترك موازينك المحسوسة رويدا، وتمهّل، وحاول أن تصعد وتحلّق. ترك أبو بكر ﵁ لأولاده الحصى، وهاجر مع النور إلى الأرض المنوّرة "ثاني اثنين" ليغنم، لأن الغيب فيه كان هو الذي يتكلم.

فاترك الغيب يحمل فطرتك ويعمل. قال حاتم الأصم: "لا تغترّ بموضع صالح، فلا مكان أعلى من الجنة، وقد لقي آدم ﵇ فيها ما لقي.. ولا تغترّ بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبّده لقي ما لقي.. ولا تغترّ بكثرة العلم فإن بَلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي.. ولا تغترّ برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه".. لأن المهم -قبل كل ذلك- أن يتكلم الغيب الذي فيك، وأن تفقه وتعلم وتقصد أن تعمل.

روي عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا آوى إلى فراشه يقول: "يا ليت أمي لم تلدني"، فقالت له أمه: يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك، هداك إلى الإسلام. قال: "أجل، ولكن الله قد بيّن لنا أنا واردو النار، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها". انظر كيف تكلم الغيب في أبي ميسرة فعرف الفروق بين الورود والصدور.

وقال ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ

أَجْمَعِينَ﴾(الحجر:٤٣)، صاح سلمان الفارسي ﷺ ووضع يده على رأسه، وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدرون عليه". فأي غيب مكنون تحرك في سلمان فأبصر المستقبل من خلال ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾(مريم:٧١).

قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: "ابْكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلمَ أحدُكم لصرخ حتى ينقطع صوتُه، وصلى حتى ينكسر صُلبه"، وكأنه أشار إلى معنى قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا».. ولكن لماذا لا نعلم العلم؟ لأن الشهادة الموجودة فينا وحدها هي التي تتكلم، أما "الغيب" الذي فينا فقد أخرسناه، حتى لا يتكلم.

عندما أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم أشهدهم على أنفسهم. لكن كيف شهد جميع بني آدم على أنفسهم؟ وأيّ بني آدم كانوا، أأبناء الحاضر المخاطب أو أبناء المستقبل؟ وأين كانوا عندما أدّوا هذه الشهادة الخالدة؟ وبأي لغة تكلموا؟ كان "الغيبُ الواعي" الذي فيهم هو الذي يشهد ويتكلّم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ أجاب الغيب الجماعي الكامن فيهم: ﴿بَلَى﴾.

وهكذا شهدوا على أنفسهم بلغة الغيب الواحدة التي تتكلم دون إرادتهم.. لغة القوة التي لا تحبسها إرادة، ولا يحدها زمان، ولا يحكمها وعي.. لغة الماضي والحاضر والمستقبل: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت:٢١). خلقكم أول مرة فاعترفتم بربوبيّته وقلتم: "بلى، شهدنا على أنفسنا". وخلقكم ثاني مرة، أعادكم بعد بعثكم الثاني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتكلمَت عنكم جلودكم، أنطقها الله الذي أنطقكم أول مرة.

في البداية تكلم الغيب الكامن فينا معترفا بالربوبية. وفي النهاية تكلم الغيب الكامن فينا معترفا بقدرة القادر، وإبداع الخالق. وبين البداية والنهاية تكلمت فينا قوى كثيرة، لكنها قوى الشهادة.

أما قوة الغيب الكامن فينا: قوة الفطرة والوعي والكهرباء المبثوثة في كياننا.. في قلوبنا وأرواحنا وأسماعنا وأبصارنا.. قوة النواة اللاشعورية والخليّة الحية الدائمة.. قوة المضغة التي لو صلحت صلح الجسد كله، والروح التي كانت في البدء، وتبقى معنا، تغدو وتروح حسب فاعليتنا وحضورنا، فإما غبنا فتوفاها الله حين غيابنا في نومنا أو موتنا؛ وإما حضرنا فأرسلها الله إلى أجَلنا المسمى.. أما قوة الغيب هذه فهي التي يجب أن نستثيرها لتتكلم فينا، بل لتعمل فينا، بل لتقودنا.

استفْتِ قلبك، إنه قوتك الحقيقة، وهو المصلح والقائد... استشره دائما، واخضع له ولا تخضع لقوى الشهود حين تختلّ في يدها الموازين.

أما موازين الداخل، موازين الغيب الكامن فيك، فهي لا تختل أبدا، شريطة أن تحفظها بسور البداية: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢)، وبسور النهاية: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت:٢١).



رحلة الصعود الملائكية[٦٣٨]

ما أصعب أن تنخلـع من ذاتك البشرية، وأن تتصل بإخوانك المؤمنين من الجن الذين قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢). وكذلك ما أصعب أن تتصل بإخوانك من الملائكة الذين ستلتقي بهم إن شاء الله في الجنة.

إنني -بعون الله- قد أستطيع تمثّل مشاعر إنسان مثلي، وقد أعيشها بكل قلبي فأنجح بنسبة كبيرة، أما أن أتمثّل مشاعر الملاك جبريل عليه السلام في هذا اللقاء الأخير، بعد رحلة دامت ثلاثة وعشرين عامًا، كان فيها دائم التواصل مـع حبيبه وحبيب الكون كله، الرحمة العالمية للعالمين محمد بن عبد الله ﷺ، أما أن أصل إلى هذا المستوى فذلك صعبٌ جدًّا.

حقًّا، لقد كانت مشاعر الرسول محمد ﷺ توحي له بأن هذه اللقاءات هي آخر اللقاءات على الأرض مـع جبريل عليه السلام ومـع وحي الله سبحانه وتعالى. ومـع أن مشاعره لا يمكن أن تكذبه أبدًا، إلا أن ثمة نسبة بشرية بقيت فيه، تؤكد أن رسول الله محمدًا ﷺ لا يعلم الغيب حتى وإن أحسَّ به، وحتى لو اتجهت مشاعره في اتجاه هذه الوقائـع المستقبلة.

أما حالة جبريل عليه السلام فتتمثل في أنه كان يعلم -بما علمه الله سبحانه وتعالى- أن

---

[٦٣٨] مجلة حراء، العدد:٢٣ (مارس-أبريل ٢٠١١).

هذا هو اللقاء الأخير. ولو كان جبريل عليه السلام بشرًا مثلنا، لنزلت منه الدموع غزارًا، وعجز أن يكبت مشاعره أو يكبح جماحها من فراق الرسول ﷺ. يؤكد هذا ما ذكره أحد الصحابة رضي الله عنه أن المدينة (يثرب) عندما دخلها رسول الله ﷺ أضاء منها كل شيء، وعندما توفي أظلم فيها كل شيء.

لقد كانت الحياة سيعُمّها السواد أمام جبريل عليه السلام لو كان بشرًا، فالسواد من رؤيتنا ومن مشاعرنا وعواطفنا وليس من البيئة الخارجية المحيطة بنا.

لكن الحالة التي كان يعيشها جبريل عليه السلام هي أنه لا يستطيع أن يتمثل "بشرًا سويًّا" بالمشاعر الإنسانية الضعيفة والعاطفية. فلذلك بدا عليه السلام متماسكًا وكأنه لا يعيش اللقاء الأخير والأيام الأخيرة مع رسول الله ﷺ الذي كان يزوره في الليل والنهار، بعد أن يقطع ملايين الأميال ومئات السنوات الضوئية.

لكن هذا المظهر الوقور والثابت من جبريل عليه السلام، وعدم اطلاع الرسول ﷺ على علم الغيب، كلاهما لم يكونا كافيين لصرف مشاعر الرسول ﷺ عن إدراك أن الأمر ليس عاديًّا، وأن هذه اللحظات ربما تكون الأخيرة في لقاء السماء بالأرض، وجبريل بمحمد عليهما السلام. يؤكد هذا الإحساس لدى الرسول ﷺ ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "وكان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرسُول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة".

لكن هذه المدارسة التي كانت تتكرر مرة واحدة في كل عام في ليالي شهر رمضان المبارك، تكررت في رمضان من السنة الحادية عشرة من الهجرة مرتين. فقد جاء في صحيح البخاري عن فاطمة الزهراء رضي

الله عنها قالت: "أسرَّ إليَّ النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي". فهكذا صرّح الرسول بشعوره باقتراب أجله.

ومعروف أن "المعارضة" تعني "المدارسة"، فأحدهما (جبريل عليه السلام أو الرسول ﷺ) يقرأ والآخر يستمع، وذلك تأكيدًا لحفظ القرآن وتنبيهًا على أن الرسالة آذنت بانتهاء، وتحقيقًا لوعود الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩).

فالقرآن الكريم كله -جملة واحدة- راجعه جبريل مع رسول الله عليهما السلام، ولعل آخر القرآن نزولا -عند بعض المفسرين- هي آيات الربا من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٧٨-٢٨١).

الأيام الفاصلة في تاريخ الإنسانية

إنها بحق أعظم الأيام الفاصلة في تاريخ الإنسانية. لقد دأب مؤرخو الإنسانية إلى تقسيم مراحل التاريخ إلى عصور، وربما إلى مواقع عسكرية أو أزمات إنسانية، وربما أعطى بعضهم للحروب العالمية وإلقاء أمريكا بقنبلتي "هيروشيما" و"نجزاكي" دورًا في هذا التقسيم. لكن هذه التقسيمات مرتبطة بظروف مادية، بعيدة كل البعد عن النظر إلى التطورات الروحية والعلمية والأخلاقية للإنسان، وهي تطورات حيوانية أكثر منها إنسانية.

أما ما وقع في هذه الأيام التي راجع فيها جبريل ورسول الله عليهما السلام القرآن الكريم مراجعة أخيرة، كي يكون بحق فوق أي تحريف أو تزوير، وبحيث ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤٢)، وما وقع في هذه الأيام، فهو منعطف حاسم لطريق جديد في تاريخ البشرية كله، وهو الدخول في عصر جديد، له خطورته الخاصة ومعالمه الأساسية بالنسبة لمستقبل الإنسانية. إنها المعالم التي تتجلى في الحقائق التالية التي فرضت نفسها على الإنسانية وهي:

أولًا: لقد انتهت آخر الكلامات الإلهية الموجهة إلى الأرض، فلا وحي بعد اليوم.

ثانيًا: لقد نزل إلى الأرض عبر التاريخ آلاف الأنبياء والرسل، ولا إرسال للأنبياء والرسل بعد اليوم، ومحمد ﷺ هو "خاتم الأنبياء". وعلى البشرية أن تقرر مستقبلها، وأن تقبل هذا "الوحي الخاتم" وهذا "النبي الخاتم" الذي قدم للناس -قولا وفعلا- قرآنًا يمشي على الأرض، وطلب منها أن تعتمده كآخر طبعة من الوحي، تهيمن على كل ما نزل قبل ذلك.

ثالثًا: لقد انقطع نزول الملائكة من ذوي الشأن وحملة الرسالات، فلا نزول لجبريل عليه السلام إلى الأرض بعد اليوم، ولن ينزل إلى الأرض إلا ملائكة مكلفون بوظائف محددة، لكنه ليس مأذونًا لهم بمخاطبة الناس. فقد انقطع الكلام بين الملائكة والإنسانية فلا كلام بعد اليوم. وحتى ملك الموت يؤدي مهمّته في إنهاء حياة الناس، بطريقة سرية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: لقد وكّل الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أمر تبليغ الوحي إلى الناس العاديين الذين جعلهم الله ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بعد الأنبياء، وجعلهم

﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقال لهم رسول الله ﷺ وهو يودّعهم في حجة الوداع: «بلّغوا عني ولو آية»، وقال لهم أيضًا: «إنما بعثتم ميسرين»، فهم المبتعثون من قبله عليه الصلاة والسلام ليحملوا رايته إلى الإنسانية.

خامسًا: الويل لهؤلاء المبتعثين من رسول الله ﷺ إن خانوا الأمانة ولم يبلّغوا الرسالة، ولم يقدّموا طوق النجاة "القرآني" للبشرية بأحسن الطرق، وأعدل وسائل التقديم، أي بالحكمة والموعظة الحسنة، والثقافة الرفيعة التي تحترم -أيضًا- قيمة العقل الإنساني الذي سيتحمّل أعباء كثيرة في المرحلة التالية.

سادسًا: ويا ويل العقل إن عبد نفسه، وقرر أن يستغل الفرصة للمُضي مختالا مغرورًا، بعيدًا عن أوامر الوحي ونواهيه الفاصلة التي تحدد له شارات المرور الحمراء والخضراء. صحيح أن الإنسانية التي يقودها العقل، تتحمل كلها مسؤولية انفصال العقل عن الوحي، لاسيما الوحي الأخير الذي احترم العقل كل الاحترام، ووفر له أكبر شروط الفعالية والإيجابية والإبداع في إطار الثوابت الإلهية التي جاء بها القرآن الذي يهدي إلى التي هي أحسن.

سابعًا: لكن هذا لا يقلل من مسؤولية المسلمين الذين ينبغي عليهم أن يعرفوا دورهم، ويبلغوا الأمانة التي نيطت بهم إلى الناس باللغة العربية وبلغات الناس جميعًا، وبكل وسائل البلاغ، وسيكون حسابهم عسيرًا حكامًا ومحكومين، مثقفين وعلماء ودعاة وعامة من عامة الناس... فكلهم مسؤول عن أداء وظيفة "البلاغ" في حدود طاقتهم، تأسّيًا بخطوات نبيهم وإمامهم وقدوتهم خاتم النبيّين ﷺ الذي قال الله سبحانه وتعالى له: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾.

لقد كانت أيامًا صعبة هذه الأيام التسعة، التي عاشها الرسول ﷺ وهو ينتظر أن تصعد روحه إلى الرفيق الأعلى، وأن يعود مرة أخرى إلى "سدرة المنتهى"، يجلس إلى جوار أبيه إبراهيم عليه السلام.

لقد كان الرسول ﷺ ينظر في وجوه أصحابه رضي الله عنهم وتدور في فكره تساؤلات: "هل ستثبت هذه الأمة على ما مات عليه وما علّمها إياه؟ أم هل تخون الأمانة فتغير وتبدل وتتقاعس وتغلبها المطامع الدنيوية؟".

لقد كان عليه الصلاة والسلام يعرف أنه بدأ ليله ونهاره، سواء في بطاح مكة وشعابها، أم في دار الأرقم بن الأرقم، أم في مسجده الكريم في المدينة، من أجل أن يبني الإنسان المسلم القادر على أداء الأمانة والزهد في الدنيا، ولقد أيده الله سبحانه وتعالى ونصره وفتح له قلوبًا مغلقة وعقولًا جامحة، وكانت الآلاف المؤلفة من أصحابه أهلاً لحسن الظن بهم، لأن الله سبحانه وتعالى مدحهم في القرآن الكريم وأثنى عليهم وقال عنهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(الفتح:٢٩)، ومدحهم في بيعة الرضوان، وذكر أن أهل بدر جميعًا غفر لهم، وبالتالي وصفهم الرسول ﷺ بأحسن الصفات، وأفاض عليهم أطيب الألقاب؛ فهذا "صدّيق"، وهذا "فاروق"، وهذا "أمين الأمة"، وهذا "سيف الله" وهكذا... لكنه عليه الصلاة والسلام، كان يستشعر -كما أشار قبل ذلك في بعض المناسبات- أن هناك خوارج يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وأن هناك منافقين دخلوا الإسلام بعد انتصاره وتألّق دولته دون أن يفهموا حقيقة الإسلام، وأن هناك قوى ماكرة لن تترك نور الله يمضي دون أن تثير حوله الشبهات.

ومع ذلك فقد انتصر أصحابه الذين آمنوا به حق الإيمان، وكان لهم فضل القضاء على المرتدين والخونة. ولم يكتفوا بمحيط الجزيرة العربية،

بل ساحوا في الدنيا يرفعون راية "لا إله إلا الله" بالحكمة والموعظة الحسنة، لا يقاتلون إلا من قاتلهم. وإذا نصرهم الله على أعدائهم وملكوا الأمور، فرضوا العدل وفرضوا حقوق الإنسان، وفرضوا حقوق الله، على العكس مما تفعله القوى الغالبة اليوم حين تفرض الظلم، وتسحق حقوق الإنسان باسم المحافظة على حقوق الإنسان، وتقاتل من لم يقاتلها، وترتكب أعظم الجرائم في التاريخ، حين تزعم أن أفرادًا من شعب ما، هاجموها فتهاجم البلد بأكمله وتبيد أطفاله وشيوخه، زاعمة أنها تقوم -حين تقتل هؤلاء الأطفال والنساء والشيوخ- بمحاربة الإرهابيين المتطرفين.

ولمدة عشرة قرون، كانت يد الإسلام غالبة على العالم، وكانت حضارته هي الحضارة الرائدة، وكان -وهو يعلم البشرية- يتلقى الضربات والإبادات الجماعية من الصليبيّين، لكنه أبى أن يفعل كما فعلوا، لأن أصحابه -تلاميذ أصحاب رسول الله وتابعيهم- يحملون إلى الناس دينًا وحضارة وأخلاقًا، ولا يحملون إليهم دمارًا ولا إبادة ولا فسادًا ولا نفاقًا.

لقد كان دينهم يحكمهم قبل أن يحكموا به غيرهم، وكانت أفعالهم الواضحة الشريفة أقوى من أقوالهم، فدان الناس لهم وعرفوا قيمة دينهم وعظمة النبي القدوة الرائعة، الذي ينتمون إليه.

القراءة الخاتمة للقرآن

حين يعتكف الناس في العشر الأواخر من رمضان ويقرأون القرآن ويتدبرونه، عليهم أن يحاولوا استعادة هذه الأيام العشرة أو التسعة التي انقطع بعدها جبريل ﵇ عن زيارة الأرض، وودّع صاحبه النبي العظيم ﷺ، وانتهت آخر كلمات السماء، وبقي وحده -خاتم النبيين- يجاهد بالقرآن جهادًا عظيمًا، وهو يسأل ربه ألا تفتن هذه الأمة من بعده عن دينها

تحت وطأة ما ستملكه من أرض الله بعد أن تفتح عليها الدنيا، وهو يسأل الله ﷻ ألا يكون بأسهم بينهم، وألا يعودوا إلى الجاهلية يضرب بعضهم رقاب بعض، وألا يعيدوا الظلم إلى الأرض، وهو ذلك الظلم الذي كان عليه الكسروية والقيصرية.

وهو ينادي الأمة مع كل ذلك قائلًا لهم: «لا تسبّوا أصحابي»، «اتقوا الله في أصحابي»، «لا تؤذوني في أصحابي»، «والصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».. كأنه يعلن حملة على استعباد السادة للعبيد. وهو يوصي أيضًا بالمرأة لأنه كان يعلم أن الرجال سيظلمونها، وسيبعدونها عن بيوت الله، وعن أخذ حقوقها والقيام بدورها.

هكذا كانت خواطره ﷺ كما تدلنا آثاره في أيامه الأخيرة. فهل نحيي في نفوسنا ذكريات هذه الأيام الأخيرة التي راجع فيها النبي محمد ﷺ وجبريل ؑ القرآن المراجعة الأخيرة الخاتمة، وهل نحيي في وعينا وأعمالنا ذكريات رمضان مرتبطة برحلة القرآن التي بدأت في رمضان في ليلة القدر، وانتهت في رمضان عندما اعتمد الأمين جبريل القراءة الخاتمة للقرآن التي أكمل بها الدين وتمت بها النعمة. وعسى أن نعيش هذه الرحلة القرآنية الرمضانية في واقعنا وفي حياتنا كما كان يعيشها الرسول ﷺ وصحابته ﭬ يومًا بيوم منذ رمضان الأول الذي نزل فيه القرآن، إلى رمضان الأخير الذي عاشه جبريل ومحمد عليهما السلام، وكأنهما يودّعان الأرض بقلوب خاشعة وأعين دامعة، لكنها دموع معنوية نفسية، وليست بدموع من نوع دموعنا.

فعليك السلام يا جبريل وأنت تودّع الأرض وتودع محمدا ﷺ..

وعليك السلام يا خاتم الأنبياء وأنت تؤثر الآخرة وتقول: «بل الرفيق الأعلى».



كتب الأستاذ فتح الله كولن المترجمة إلى اللغة العربية

١. ونحن نقيم صرح الروح
٢. ونحن نبني حضارتنا
٣. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-١
٤. ترانيم روح وأشجان قلب
٥. روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
٦. القدر في ضوء الكتاب والسنة
٧. الموازين أو أضواء على الطريق
٨. حقيقة الخلق ونظرية التطور
٩. أسئلة العصر المحيّرة
١٠. أضواء قرآنية في سماء الوجدان
١١. طرق الإرشاد في الفكر والحياة
١٢. ألوان وظلال في مرايا الوجدان
١٣. النور الخالد: محمد... مفخرة الإنسانية
١٤. القلوب الضارعة / إشراف: محمد فتح الله كولن

كتب ودراسات حول فكر الأستاذ فتح الله كولن

١. عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، أ.د. فريد الأنصاري.
٢. البردايم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة، د.محمد باباعمي.
٣. أرباب المستوى.. حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي.
٤. ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة، د. محمد باباعمي.
٥. الزمن والوقت.. النصوص والمفاهيم المؤسسة على الرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي.
٦. الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي.
٧. هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي.
٨. عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، أ.د. فؤاد البنّا.
٩. الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدبّاغ.
١٠. نداء الروح.. رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت.
١١. فتح الله كولن.. رائد النهضة في تركيا المعاصرة، أ.د. عبد الحليم عويس.
١٢. مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، مؤتمر.
١٣. محاورات حضارية، حوارات نصّية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، أ.د. جيل كارول.
١٤. فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه.
١٥. فتح الله كولن.. قصة حياة ومسيرة فكر / أرطغرول حِكمة.